عمرو عبد الحميد



عصير الكتب

فتاة الياقة الزرقاء





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
- رقم الإيداع: 2021/14733م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-11-4

- المؤلف: د. عمرو عبد الحميد
- تدقيق لغوي: مهند ماهر جندية
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار







إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

● الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
● رقم الإيداع: 2021/14733م
● الترقيم الدولي: 978-977-6902-11-4

● المؤلف: د. عمرو عبد الحميد
● تدقيق لغوي: مهند ماهر جندية
● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



عمرو عبد الحميد

رواية





فتاة الياقة الزرقاء

1

قريتنا صغيرة هادئة تبتعد عن مدينة المنصورة الساحلية قرابة العشرين ميلًا، اسمها قرية الخالدية، يقع بيتنا عند طرفها الغربي، بيت قديم البناء يرتفع لطابقين، واجهته الأمامية بيضاء باهتة تطل على حديقة صغيرة من أشجار البرتقال، يقسمها إلى نصفين ممر ترابي يهبط من الشارع الرئيسي إلى سلالم البيت، تقف فيه أغلب الوقت سيارة الإسعاف التي يعمل عليها أبي، والتي تتبع مركز التبرع الإجباري بالدم، في حين تطل نوافذ بيتنا الخلفية على رقعة زراعية شاسعة تمتد بلونها الأخضر على مرمى البصر حتى تتعانق مع قبة السماء.

كنت قد تجاوزتُ عامي الثامن بأيام وقتما صار بيتنا هذا فجأةً مثار حديث أهل قريتنا جميعهم، بدأ الأمر ذاك المساء، عندما زارنا للمرة الأولى قائد مخفر الشرطة: السيد غسان، ذلك الكهل النحيف ذو الوجه الغائر الخدين، والصدر الذي لا يتوقف عن السعال كلما تحدث، وبدأ يفحص غرف البيت السفلية والعلوية بجدرانها ونوافذها وأثاثها واحدة وراء الأخرى برفقة أبي الذي بدا كأنه يتقبل الأمر تمامًا.

أتذكر أنَّني وقفت متشبثة بتنورة أمي أراقب ذلك الرجل في قلق، خاصةً أنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها ضابطًا خارج إطار الكتاب المدرسي، إلى أن انتهى من فحصه وتدوينه ملاحظاته في دفتره، فقال

لأبي وهو يمسك جزءًا من سيجارة قديمة مُطفأة بدا أنه وجدها في أثناء فحصه:

- لو كان ضابطٌ غيري هنا لحرمكما الآن فرصةَ عمركما بسبب هذه.. لكني سأتغاضى عن ذلك.

ونظر حوله وهو يتابع:

- أما بالنسبة إلى حالة البيت فلا أجد أي مانع قد يعوق عيشة آمنة لطفلتكما المنتظرة.. سيمنحكما البنك، على كل حال، منحة مالية جيدة، سيكون جزءٌ منها كافيًا لتجديد البيت وأثاثه.. هنيئًا لكما بمولودتكما الجديدة التي فتحت لكما كل أبواب النعيم.

- مولودة؟!

صِحت إلى أمي في حماس، فوضعتْ سبّابتها اليمنى أمام فمها كي أسكت، وواصلتْ إنصاتها إلى حديث الضابط الذي أردف لأبي:

- سترسل لكم هيئة الرعاية الصحية طبيبًا في الغد لفحصكم جميعًا، وإن دوّن في تقريره عدم وجود أي أمراض مُعدِية لديكم.. فقد يستغرق الأمر ثلاثة أو أربعة أيام لتسلُّم الطفلة من مخفر شرطة المدينة.

صِحت إلى أمي مرة أخرى وأنا أجذب تنورتها:

- هل سنحصل على طفلة جديدة؟

فأجابتني بنبرة ليِّنة في حين كان الرجل يغادر:

- نعم يا ليلى، ستحظين بأختٍ في نهاية هذا الأسبوع.

فصرختُ إليها، وعيناي تلمعان من الفرحة:

- حقًّا؟! ما اسمها؟

فقالت بنبرة شاردة ما زلتُ أذكرها:

- اتفقتُ أنا وأبوكِ على تسميتها سوزان.

هكذا ظهرت سوزان في حياتنا مطلع عام 2320 الميلادي، لتجعلنا بين ليلةٍ وضحاها أكثر عائلة مميزة في قريتنا الصغيرة.

***

ما زلت، أتذكر طبيب القرية وهو يفحص حلقي وأذني قبل أن يستمع إلى صدري عبر سماعته الطبية ويدوِّن ملاحظاته في دفتره الورقي، وما زلت أتذكر ذهاب أبي وأمي في نهاية ذلك الأسبوع لإحضار أختي الرضيعة من مخفر شرطة المدينة، وذلك التجمع الغريب لأفراد عائلتنا في بيتنا للمرة الأولى؛ عمتي وزوجها وولداهما السخيفان اللذان يكبرانني سنًّا، خالتي ثريا وزوجها، جيراننا وأبناؤهم، الكل حضر إلى بيتنا باكرًا في صباح ذلك اليوم من أجل رؤية المولودة الجديدة قبل أن يلتفُّوا حول شاشة التلفاز مُنصتين إلى قائمة الأسماء التي كانت تتلوها إحدى المذيعات الشابات ريثما يعود أبي وأمي، لا أعرف إن كانوا قد تجمعوا هكذا يوم وصولي أم لا، لكنَّ نظرات الانتظار والشغف الواضحة في أعينهم كانت أمرًا غريبًا جدًّا بالنسبة إليَّ، تولَّت خالتي ثريا يومها الاعتناء بي وإلباسي أفضل فساتيني، سألتُها مستغربةً وهي تصفِّف شعري أمام مرآة غرفتي في الطابق العلوي:

- هل تجمعتم هكذا يوم ذهاب أبي وأمي لتسلُّمي؟

قالت وهي تنظر إلى صورتي المنعكسة في المرآة:

- لا، لم يذهب أبوكِ وأمكِ أصلًا إلى المدينة لتسلُّمكِ، إنَّكِ مثل بقية أطفال القرية تسلَّمكِ أبواكِ من مخفر القرية المحلي، إنَّ الوضع مع سوزان يختلف بعض الشيء، إنَّها من ذوات الياقة الزرقاء.

سألتُها في تعجب:

- وماذا يعني ذلك؟!

كادت أن تجيبني لولا أنّنا سمعنا بوقَ سيارة إسعاف أبي، فركضتْ إلى النافذة المُطلة على الحديقة وصاحت لي:

- لقد وصلوا.

ركضتُ أنا الأخرى إلى النافذة، ومع قامتي التي لم تكن تتجاوز الثلاثة أقدام وقتها، حملتني عاليًا لأستطيع الرؤية، فوجدتُ الجميع قد خرجوا إلى السيارة، والتفُّوا حول أمي التي كانت تحمل أختي بين ذراعيها مدثَّرةً في لفة زرقاء مبارِكين ومهنِئين، حينذاك همستْ لي خالتي وأنا أراقب الفرحة البادية على وجوه الجميع وهم يفحصون وجه الرضيعة ويُقبِّلون جبينها واحدًا وراء الآخر:

- لقد أرسل الله لنا هذه الطفلة في الوقت المناسب تمامًا.



2

عامًا بعد عامٍ، فهمت لماذا لم تكن سوزان طفلةً عاديّة، ولماذا اهتم بها أقاربنا إلى ذلك الحد، ولماذا زارنا ضابط الشرطة قبل وصولها بأيام كي يتفحص معيشتنا، ولماذا صِرتُ أنا وأبي وأمي نخضع لفحص طبي إجباري كل شهر بعد أن تُفحَص فحصًا مبالغًا فيه من الطبيب نفسه، ولماذا ولماذا ولماذا.

كان الأمر جميعه متعلقًا بالجائحة التي أصابت العالم قبل قرنين ونصف، قال السيد لبيب؛ معلم الصف، وهو يشرح لنا عن تلك الجائحة في عامنا الأخير بالمدرسة الابتدائية:

- كانت سنة 2070 الميلادية بداية كل شيء، بدأ الأمر في دولة إفريقيا الوسطى بوفاة كل المولودات الإناث خلال شهرين من ولادتهن، لم يهتم العالم وقتها بذلك الحدث الغريب في تلك الدولة الفقيرة؛ معتقدين أنَّ الأمر يتعلق بأوبئة محلية كانت تنتشر بكثرة هناك في تلك الآونة، لكنَّهم لم يسلموا من الأمر ذاته بعدما أخذ ذلك الشبح المخيف يتسلل تباعًا من دولة إلى أخرى ليُخضِع دول العالم كلها ويُسدِل ظلامه على كل المواليد الإناث في أرجاء الأرض جميعها خلال عامين فقط، ما إن تُولد الأنثى حتى تنتشر الخلايا السرطانية في جسدها دون سبب مفهوم لتلقى حتفها

في أقل من شهرين، حتى إنَّ كثيرات من الحوامل في تلك الآونة كُنَّ يُفضِّلن إجهاض أجنتهن عمدًا ما إن يعرفن أنَّهن إناث.

وتنهَّد متابعًا:

- اكتشف العلماء فيما بعد أنَّ نقطة بدء تلك الأورام كانت تكمن في الجدار الخلفي للرحم، وسرعان ما اكتشفت المختبرات الكبرى خللًا جينيًّا غريبًا وُلدت به أرحام الإناث المصابات، ثبت فيما بعد علاقته الوطيدة بذلك السرطان المميت، ليكون ذلك الاكتشاف نقطة النور الأولى في النفق المظلم الذي هدد حياة البشرية، وإن لم يُفهَم السبب الحقيقي لذلك الخلل، أو لأكون أكثر دقة، لم يُفهَم السبب حتى الآن، وُضعت بعض الاحتمالات والنظريات وقتها، تفترض تعلق الأمر بالطاقة النووية والتعديلات الجينية للمحاصيل الزراعية التي سادت في تلك الأوقات، لكنَّ تلك الافتراضات صارت لاحقًا محض هُراء بعدما منعت بعض الدول استخدام تلك الأنواع من الطاقة والتكنولوجيا لعقود، واستمر الأمر كما هو كل هذه السنوات.

ثم عرض لنا عبر العارض الضوئي فيلمًا تسجيليًّا يعود إلى عام 2072 م، كان عن مؤتمر قائم في قاعة كبرى تمتلئ بالعديد من السيدات والسادة ذوي البشرات المختلفة والبذل الأنيقة، يدُسُّ بعضهم في آذانهم سماعات أذن خارجية تترجم خطاب المتحدث، وقال حين ظهرت على الشاشة سيدة خمسينية شقراء تستعد لإلقاء خطابها من فوق منصة القاعة أمام ذلك الجمع الغفير:

- إنَّها «مارثا سكوت» رئيسية منظمة الصحة العالمية في تلك الحقبة.

وسكت لنركّز في حديثها الذي كان مترجمًا في أسفل الشاشة إلى اللغة العربية:

- السيدات والسادة، أود أولًا أن أقدّم تعازيَّ إلى من فقدوا أطفالهم خلال المدة السابقة في شتى بقاع الأرض.

ثم تنهّدت، وقالت دون أن تنظر في الأوراق أمامها:

- تحدثت وسائل الإعلام في الأسابيع الماضية عن اكتشافنا الخللَ الجينيَّ المستجد المصاحب للجائحة الجديدة، نعم إنَّني أؤكد للجميع اكتشافنا ذلك الأمر، لكن في الوقت ذاته أؤكد أنَّ مختبراتنا لم تجد بعدُ سببًا واضحًا لوجود ذلك الخلل، كما ادَّعت بعض المنصات الإعلامية. لحسن الحظ أجمعت البحوث التي وصلت إلينا من أكثر من ثلاثمئة جامعة ومعهد بحثي من مختلف أنحاء العالم، على نجاة المولودات بعد استئصال أرحامهن خلال ثلاثة أيام من الولادة لا أكثر، نعم ندرك أنَّ ذلك ليس حلًّا جذريًّا، ولكنَّا نرى أنَّه حل مؤقت لإيقاف نزيف الوفيات الذي أصابنا في العامين السابقين، لذا نقرر -نحن في منظمة الصحة العالمية- موافقتنا على إجراء الجراحة العاجلة المتمثلة في استئصال رحم كل مولودة حديثة بعد ثبوت الخلل الجيني في خلايا رحمها، مع الحفاظ على المبيضين، وسنوفر كل الدعم طبيًّا وماليًّا للدول التي تحتاج إلى ذلك.

وصمتت لثانية، ثم أكملت بنبرة حزينة:

- من اليوم نأسف بأن تكون نساء الأرض الحديثات بلا أرحام، وليرحمنا الله وليقدم لنا العون والهداية لتجاوز هذا الأمر سريعًا.

قال السيد لبيب وهو يوقف عرض ذلك الفيلم:

- مع إجراء الفحوصات الجينية لكل المواليد الإناث بعد ذلك القرار، استُؤصِلت في ذلك العام فقط أرحام أكثر من تسعين مليون طفلة مولودة، والأعوام القليلة التالية شهدت أيضًا أرقامًا قريبة من هذا الرقم الضخم، ومع تلك الجراحات الهائلة ظنَّ الجميع أنَّها نهاية البشرية، وخاصةً بعدما أُعلِن رسميًّا فشل جميع المحاولات لزرع الأجِنَّة البشرية المُخصبة في أرحام الحيوانات أو الأرحام الصناعية.

ثم صمت، وانفرجت أساريره فجأة، وقال:

- إلى أن أُكتشفت أول خلية زرقاء عام 2079م، بعد سبعة أعوام كاملة من قرار المنظمة باستئصال أرحام الإناث حديثات الولادة، طفلة من جزر «لوسون» في الفلبين أظهرت نتائج فحصها الجيني سلامتها الجينية.

وعرض أمامنا عبر العارض الضوئي صورًا متتالية لرضيعة ذات ملامح شرق آسيوية تتصدر عناوين الأخبار بكل اللغات، حتى توقف عند صورة كان فيها عدد من الأطباء الآسيويين يحيطون بسرير صغير ترقد فيه الطفلة مرتديةً سترة بيضاء ذات ياقة زرقاء كبيرة، وقال:

- كانت «إيڤا باديلا» الطفلة المُكتشَفة الأولى التي تنجو من الخلل الجيني، عُرفت في ذلك الوقت بذات الياقة الزرقاء؛ نسبةً إلى ياقة سُترتها التي كانت ترتديها في هذه الصورة.

ثم أردف:

- لم تكن إيڤا الطفلة الأخيرة التي أتت إلى الحياة دون خلل جيني، منح الله عالَمنا إناثًا كثيرات في الأعوام التالية، ظلَّت أعدادهن تزداد في دول العالم حتى صارت نسبة الفتيات اللاتي يُولدن

برحم سليمة مقابل الفتيات اللاتي يخضعن لجراحة استئصال الرحم الطارئة، ثلاثين فتاة من بين كل ألف مولودة، لم تزِد النسبة في أي بلد على هذه النسبة قط.

وقال وهو يعرض لنا صورًا لرضيعات يرتدين سُترًا بيضاء ذات ياقات زرقاء:

- سُميت الناجيات عالميًا بذوات الياقات الزرقاء أو الخلايا الزرقاء تيمنًا بإيفا؛ قُبلة الحياة الحقيقية لهذا العالم الحديث، وصارت تلك الفتيات مسؤولات عن بقاء البشرية حتى إشعار آخر. لدينا في قريتنا ثلاثٌ منهن، لا تزال واحدة تعيش بيننا.

وأشار نحوي فجأة، وقال بابتسامة عريضة:

- إنَّ ليلى لديها كنز في بيتها.

وسألني:

- كم يبلغ عمر أختكِ الآن؟

أجبته في ارتباك شديد من سؤاله المفاجئ:

- أربع سنوات سيدي.

قال مُوجِّهًا حديثه إليَّ وإلى بقية التلاميذ في الفصل:

- لديها اثنا عشر عامًا أخرى قبل أن تغادر القرية لتبدأ رسالتها السامية التي خُلقت من أجلها.

لم أنطق بشيء إلى السيد لبيب، لكنِّي صرخت داخل نفسي متعجبة:

- تغادر إلى أين؟!

للأسف كانت تلك هي الحقيقة التي لم تخبرني بها أمي، كان على سوزان أن تغادر بلا رجعة إلى محميات الخلايا التابعة لبنك التخصيب

مع وصولها عامها السادس عشر، في مقابل ذلك سيستمر منحُ الحكومةِ أسرَتنا امتيازات إضافية لا تتمتع بها إلا أُسر الخلايا الزرقاء، وحتى لو لم تكن لدينا تلك الامتيازات، لم يكن في مقدورنا رفض رحيلها عنًا أبدًا؛ كان ذلك قدرها منذ مولدها.. ورغمًا عن الجميع كان عليها أن تكمل مساره حتى النهاية.



3

عرفت البشرية أول تجربة ناجحة لزراعة جنينٍ بشري في رحم امرأة أخرى لا تمت له بصلة في عام 1985م، ومنذ ذلك الحين حظيت الأمهات غير القادرات على الحمل -لسببٍ يخص أرحامهن- أو غير الراغبات فيه، بفرصةٍ حقيقية للإنجاب، من خلال استئجار أرحام نساء أخريات لاحتضان مولودهن مقابل مبلغ من المال.

في بلدنا كان ذلك الأمر مُحرَّمًا وغير مُشروع لسنوات طويلة قبل الجائحة، اعترض رجال الدين على الأمر برُمته ووافقتهم الحكومات المتتابعة على ذلك دون نقاش، لكن مع الوضع العالمي الجديد واستئصال أرحام الإناث كافة، لم يكن لأي دولةٍ مفرٌّ من أن تكون تلك التقنية هي الطريق الوحيد لبقاء نسل مواطنيها، وأن تُوقَّع اتفاقية الخلايا الزرقاء[1]، ومنذ ذلك الوقت ولم تعد أرحام فتيات الياقات الزرقاء ملكًا لهن فحسب، بل صارت ملكًا للدولة نفسها، ليتغير شكل العالم شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ما نحن عليه الآن، لم تعرف العصور القديمة مثلًا مُسمًى لوزارة الإنجاب، الآن وزارة الإنجاب هي الوزارة الأهم في

(1) أجريت عام 2089م في مقر منظمة الإنجاب الدولية في بروكسل، وكان أهم نصوصها؛ إعلان كل دولة عدد خلاياها الزرقاء، والتعهد بحمايتهن، وتجريم إهداء الخلايا بين الدول أو الاتّجار فيهن.

حكومتنا، خاصةً أنها المشرف الرئيسي على بنوك التخصيب التي تنظم بكل حزمٍ ودقةٍ مواعيد تسلُّم المواليد لكل زوجين.

لك أن تتخيل أن ثمة ثلاثين فتاة من بين كل ألف فتاة يستطعن فقط احتضان الأجِنَّة داخل أحشائهن، أما البقية -وأنا منهن- فيجب عليهن إجراء جراحتين على الأقل في حياتهن؛ الأولى: خلال الثلاثة أيام الأولى من الولادة لاستئصال أرحامهن، والثانية: بعد البلوغ لاستخلاص بويضاتهن من أحد المبيضين. تتكفل فروع بنك التخصيب في كل قرية أو مدينة بالحفاظ على تلك البويضات مُجمدةً في إحدى خزائنها مثلما تفعل مع الحيوانات المنوية للأزواج، ومن ثم تحدد للزوجين موعد تسلُّم طفلهما من مخفر الشرطة الأقرب لهما بعد تفعيل المؤقِّت الخاص بهما.

المؤقِّت؛ جهازٌ إلكتروني زجاجي في حجم كف اليد، يتصل لاسلكيًّا بنظام البنك الرقمي، ما إن يبلغ كل شاب أو فتاة عامهما السادس عشر حتى يصل إليهما المؤقت الخاص بهما عبر البريد، يحمل كل مؤقِّت على شاشته أربعة حقول للوقت؛ السنوات والأيام والساعات والدقائق التي سينتظرها صاحبه قبل تسلُّم طفله من مخفر الشرطة، تبدأ أرقام تلك الخانات في العد التنازلي تلقائيًا من يوم توثيق زواج صاحبه، ودون وصول أرقام الحقول جميعها إلى الرقم صفر.. من المستحيل أن تتم عملية تخصيب الطفل المنتظر.

صار ذلك الجهاز منذ اختراعه هو المُنظِّم الحقيقي للإنجاب، وفي الوقت ذاته كان الفرصة المثالية لكل حكومات العالم للسيطرة على كل شيء يخص مواطنيها، فخرجت إلى النور بعض العقوبات المتمثلة في زيادة مدة انتظار المذنبين. في وقتنا الحالي مثلًا.. متوسط مدة الانتظار لتخصيب طفلٍ واحد من طفليك المسموح بهما، كي يُزرَع في رحم خلية زرقاء هو ثمانية أعوام، لكنك قد تُفاجأ بزيادة تلك المدة أشهرًا أخرى

إن ارتكبتَ مخالفة قيادة واحدة أو فوَّتَّ مرة من مرات التبرع الإجباري بالدم كل أربعة أشهر، أو تأخرتَ لأيامٍ عن دفع ضرائبك، وقد يصل الأمر إلى سنواتٍ إن ارتكبتَ جريمة كبرى ورأى القاضي أنك تستحق إضافة سنوات أخرى إلى سنوات انتظارك، وربما يصل الحكم إلى حرمانك الإنجابَ فيُجمَّد عدّاد مؤقتك التنازلي مدى الحياة.

عند توثيق الزواج يعتمد بنك التخصيب مدة الانتظار الأطول بين الزوجين، لذلك لا تتعجب من حرص كل طرفٍ على فحص مؤقِّت الطرف الآخر قبل إتمام زواجهما. وكم سمعتُ عن فشل كثيرٍ من العلاقات بسبب إهمال الشبان عدَّادَ مؤقتاتهم.

الجميع متساوون ما لم تكن ثريًا ثراءً فاحشًا لتستطيع شراء فرصة إنجاب من مؤقِّت مواطن آخر.. خاصةً أن البنك يتيح عمليات البيع والشراء السرية بين المؤقتات دون تدخل منه، ما دام قد وافق البائعُ على التفريط في إحدى فرصتيه، أو ما لم تكُن متمتعًا بامتيازات إضافية تقرها الحكومة، لكونك قريبًا حتى الدرجة الثانية من خلية زرقاء.

قالت عمتي في زيارتها الأولى لنا بعد وصول سوزان بخمسة أيام، وكنا قد جلسنا إلى طاولة الطعام لتناول العشاء:

- ذهبتُ إلى البنك يوم أمس.. أعلنتُ لهم رغبتي في طفلٍ إضافي، كان الموظف هناك في قمة البشاشة والترحاب، ولم يطلب مني سوى بطاقة الهوية التي تثبت أنني عمة سوزان.

ثم أخرجَتِ المؤقِّت الخاص بها من جيب سترتها، وقالت فرِحةً وهي تشير إلى عدّاد الوقت التنازلي على شاشته:

- أطلقَ صافرته صباحًا.. أعطانا ثلاثة أعوام فقط لتسلُّم طفلنا الاستثنائي.

وأطلقت تنهيدة وأردفت متمنية:

- آه لو كان مولودي القادم هذا طفلةً من ذوي الياقات الزرقاء أيضًا.. لكنتُ قد طلبت طفلين آخرين بعدها وتأمينًا صحيًا مجانيًا لأسرتي مدى الحياة.

ضحك أبي، وقال مازحًا:

- أعتقد أن الحكومة وقتها كانت ستُخضِع عائلتنا لفحص جيني دقيق.

وأضاف بعدما تناول رشفة من كوب الماء أمامه:

- جاءت فكرة الامتيازات الإضافية لأُسر الخلايا الزرقاء منذ عقود لهذا السبب بالمناسبة، كانوا يظنون أن إنجاب أطفال إضافيين لتلك الأُسر قد ينتج عنه مزيد من الخلايا الزرقاء، لكن ذلك الأمر ثبت فشله تمامًا منذ سنوات طويلة، لم ترتبط الخلايا الزرقاء قطُّ بجينات عائلية معينة.. وإن بقيت الامتيازات كما هي.

هزَّت عمتي رأسها موافقةً أبي، ثم نظرت إلى أمي وسألتها:

- هل قرَّرتْ ثُريا أي امتيازٍ ستختاره؟

قالت أمي:

- لم تقرر بعدُ؛ لا تود ثريا إنجاب أكثر من الطفلين المسموح بهما، إن مولودها القادم أمامه عامان وبضعة أشهر فقط كي يصل، والثاني بعده بثماني سنوات، تفكر هي وزوجها في تقديم طلب للبنك خلال هذا الأسبوع لنيل امتياز بإعفاءٍ ضريبي لها ولزوجها خلال العشرة أعوامٍ القادمة.

قالت عمتي:

- وأنتما، هل اتخذتما قراركما بعدُ؟ إنكما الأكثر امتيازات بيننا.

قالت أمي:

- نعم.. سنحظى بطفلين آخرين، قدمنا طلبًا بالفعل يوم تسلُّم سوزان لتخصيب طفلٍ لنا خلال الثلاثة أشهر القادمة، وعدَنا موظف البنك بوصوله إلينا بعد عامٍ على الأكثر، والثاني لم نحدد موعده بعدُ.

ردت عمتي:

- أرى أن طفلًا واحدًا كافٍ.. إضافة إلى ليلى، وأرى أن تستبدلي بالطفل الآخر راتبًا شهريًا لكما مدى الحياة، خاصةً مع راتب حلمي الضئيل وتقاعدكِ عن العمل.

هزت أمي رأسها رافضةً وهي تحرك الشوكة في طبقها دون تركيز، وكأنها تذكرت عملها القديم كممرضةٍ في أحد مستشفيات الشرطة في محافظة جنوبية قبل أن تتزوج أبي وتستقر في قريتنا.

لوت عمتي شفتيها، وغمغمت بعدما ملأت فمها بالأرز:

- كما تودّان.. كنت أظن أنكما في حاجة إلى المال.

تطايرت بعض حبات الأرز من فمها إلى وجهي، فنظرتُ إليها بمسحةٍ من القرف ولم أنطق بشيء، كذلك لم تنطق أمي أو أبي، وران صمت طويل بيننا.

في داخلي لم أحب عمتي قطُّ، ولطالما رأيتُها شخصًا متطفلًا ثقيل الظل إلى أقصى حد، قلت لأمي ليلتها بعدما أوينا إلى غرفتنا، وكان أبي قد ذهب لتوصيل عمتي إلى بيتها:

- هل أنتم متأكدون أن عمتي أخت أبي حقًّا؟ ربما أخطأ المخفر وأعطى جدي طفلةً أخرى.

ضحكت أمي وهي تُرضِع سوزان من قنينة اللبن الصناعي:

- لا يخطئ المخفر أبدًا، إن لكل أبوين بصمةٌ وراثيةٌ تتوافق مع طفلهما.

قلت مستغربة:

- أبي طويل نحيف الجسد.. وهي قصيرة سمينة، شَعْر أبي أسود ناعم.. وشعرها مجعد سيئ.

وضممت شفتيَّ متذكرة لثوانٍ، وأكملت:

- أبي متطاول الوجه وأنفه صغير.. أما هي فوجهها مستدير ممتلئ وأنفها طويل، لا لا إنهما ليسا أخوين.

وأردفتُ بصوتٍ منخفض:

- حمدًا لله أنني أُشبهكِ ولا أشبهها.

كنت أعني ذلك تمامًا.. لطالما حمدتُ الله أنني أشبه أمي في عينيها البنيتين الواسعتين وأنفها الصغير وشعرها البني الداكن الأملس وقوامها الرشيق.

ثم نظرتُ إلى سوزان التي كانت قد انتهت من رضاعتها وواصلت نومها، وقلت لأمي:

- هل ستشبهني سوزان عندما تكبر.. أم ستكون مختلفةً عني تمامًا كما هو الحال مع أبي وعمتي؟

قالت أمي مازحةً وهي تُمسِّد شعري بيدها:

- علينا أن ننتظر الأيام لتخبرنا.

تثاءبت حينها سوزان وفتحت عينيها، فصرختُ وقلتُ:

- إن عينيها رماديتان.

قالت أمي ضاحكةً:

- لا تزال في أيامها الأولى.. كنتِ مثلها ثم تبدَّل لون عينيكِ مع أشهُر عامكِ الأول.

زممتُ شفتيَّ وقلت:

- يا للحسرة!

ثم انحنيتُ إلى رأس سوزان وقبَّلتُ وجنتها، بعدها نظرتُ إلى أمي وسألتها:

- هل حديثكِ إلى عمتي عن طفلين جديدين أمر جدِّي؟

نظرتْ إلى المؤقت الموضوع على الكومودينو بجوار السرير، وقالت:

- نعم.. سينضم إلى عائلتنا طفل جديد بعد عام، أما الثاني فربما ننتظر ثلاثة أو أربعة أعوام أخرى.. لم نتخذ قرارًا بموعد قدومه أنا وأبوكِ بعدُ.

قلتُ:

- ماذا سيكون الطفل القادم، ولد أم فتاة؟

قالت:

- لا نعرف.. يخبرنا المخفر بنوعه قبل تسلُّمه بأيام قليلة.

تمددتُ على ظهري بجوار سوزان، وأسندتُ رأسي إلى الوسادة، وقلت وأنا أنظر إلى السقف:

- أظن أنه سيكون ذكرًا، سنكون أسرة رائعة.. أنتِ وأبي وأنا وسوزان ويونس.

قالت ضاحكة:

- يونس مَن؟

قفزتُ من نومتي وقلت بعينين لامعتين من الحماس:

- جاء هذا الاسم في بالي حالًا.. وأرى أنه اسم جميل.

ضحكتْ أمي وقالت:

- حسنًا.. أعدكِ بتسميته هذا الاسم إن كان ولدًا.

بعد عام واحد صارت أسرتنا الصغيرة خمسة أفراد.. وصل إلى بيتنا مع أبي وأمي يونس؛ أخي الجديد.. المولود الإضافي الذي منحته لنا الحكومة ضمن امتيازات وجود سوزان بيننا، وأوفت أمي بوعدها لي.. وأطلقت عليه الاسم الذي اخترتُه في حديثنا تلك الليلة، بالطبع لم يُستقبَل كما استُقبِلت سوزان، بل لم يهتم أحد من أقاربنا بمجيئه من الأساس بعدما أبلغَنا المخفر أنه ذكر.. لكنَّ أحدنا لم يكن يعرف أنه القنبلة الموقوتة التي أتت إلى الحياة صدفةً لتدمر كل شيء فيما بعد.





4

بعد أربعة أعوام من انضمام يونس إلينا، وصل إلى قريتنا السيد شاهين؛ قائد مخفر الشرطة الجديد، الذي تولى منصبه بعد تقاعد السيد غسان. رأيته للمرة الأولى عندما استدعى أبي إلى مكتبه بعد يومين فقط من وصوله كي يرى سوزان ويتحقق من أمر ما -على حد قوله-، ولسبب لا أعلمه اصطحبني أبي أنا الأخرى معهما، في حين بقيت أمي في المنزل لرعاية يونس.

يقع مخفر الشرطة في طرف القرية الشرقي؛ بناء كبير ذو واجهة زجاجية كانت تلمع بشدة مع أشعة الشمس وقتما ترجّلنا من سيارة أبي لندلف إليه، بعثَتِ الممرات الداخلية المتشعبة التي سرنا فيها بعد عبورنا بوابة التفتيش، القلق في داخلي، فلا أحد يحب الإضاءة الخافتة ولا السقف المنخفض ولا الجدران الرمادية الداكنة، وتلك الثلاثة قد اجتمعت في هذه الممرات اللعينة، حتى إنني صحت إلى أبي الذي كان يسبقني بخطوات حاملًا سوزان كي يتمهل لألحق به، ثم هدأ توتري بعض الشيء عندما وصلنا إلى ردهة واسعة عالية السقف، يوجد في جانب منها مقاعد انتظارٍ يجلس عليها أزواج تحمل نساؤهم رُضّعًا ملفوفين في لفات بيضاء، في حين تظهر في جانبها البعيد مكاتب متجاورة زجاجية الجدران، يشغلها موظفون ذوو بذلات أنيقة. فكرت

في أن أولئك الأزواج قد تسلَّموا أطفالهم للتو وينتظرون إنهاء إجراءات تسلُّمهم في تلك المكاتب، وجال في بالي وأنا أنظر إلى زوجين يتفحصان وجه مولودهما في فرحةٍ أن أبي وأمي قد جلسا الجلسة نفسها عندما تسلَّماني من هذا المكان قبل ثلاثة عشر عامًا.

بعدما تجاوزنا الردهة.. انعطف بنا أبي إلى ممر كئيب آخر انتهى بسلمٍ صعدناه إلى الطابق الثاني، حيث وصلنا إلى مكتب القائد الذي كان ينتظرنا. أدخلَنا الجندي الواقف بجوار باب مكتبه إليه بمجرد تعريف أبي بنفسه. وجدتُه رجلًا خمسينيًا ذا وجه أبيض يميل إلى الحُمرة، شعره رمادي خفيف ينحسر عن مقدمة رأسه بعض السنتيمترات، عندما نهض من مقعده ليرحب بنا وجدته في طول أبي تقريبًا، بيْد أنه كان يمتلك جسدًا رياضيًا يملأ بجدارة سترته العسكرية، نظر إليَّ بغير اكتراثٍ ثم تركزت نظراته على سوزان، وسأل أبي وهو يشير إلينا كي نجلس على المقعدين أمام مكتبه:

- عمرها خمس سنوات الآن، أليس كذلك؟

قال أبي:

- بلى سيدي.

قال الرجل:

- إنني أدرس كل شيء يخصك ويخص زوجتك منذ أمس.

وأردف بعد ثانية من الصمت:

- دوَّن السيد غسان في ملاحظاته الجانبية عنك أنك تتعاطى مخدر الحشيش.

قال أبي مدافعًا عن نفسه في توتر:

- إنه قانوني وليس جريمة كما تعرف سيدي.

هزَّ السيد رأسه:

- نعم، لو كنا قبل مئتي عام لاعتقلتك الآن.. لكن حتى وإن كان القانون يسمح بتعاطيه الآن فإنني لن أسمح لك بإيذاء الطفلة، من اليوم لن يُسمح لك باصطحاب سوزان وأنت تقود سيارة عملك التي تعدُّها سيارتك الخاصة.

وأشار إلى شاشة كبيرة على الحائط المواجه لمكتبه، كان يظهر عليها دوائر متداخلة مختلفة الأحجام وخطوط متقطعة ملونة، تومض وتخفت في منتصفها نقطة حمراء في حجم عملة معدنية بجانبها بعض المصطلحات المرقمة؛ سرعة التنفس ومعدل دقات القلب وأشياء أخرى لا أتذكرها، وأردف:

- لحسن الحظ لا يوجد غير ابنتكَ هنا، لا تغامر بإخراجها عن إطار القرية مهما حدث.. وإلا ستلقى مني ردة فعل سيئة تجاهك.

هزَّ أبي رأسه وهو يزدرد ريقه، فتابع الرجل:

- كذلك سنُعيِّن دورية مناوبة من ضابط وبعض الجنود لحماية بيتك، كان السيد غسان متهاونًا كبيرًا في هذا الشأن.

بعدها انتقل بالحديث إلى كلام مُرسَل عن مسؤوليته أمام البنك عن كل شيء يخص سلامة سوزان، أما أنا فظَلَّ تركيزي كله منصبًا على شاشة الحائط المُعلقة والنقطة الوامضة عليها.

يومها عدنا إلى منزلنا سيرًا على الأقدام بعدما أصرَّ ذلك الرجل على قراره بمنع أبي اصطحاب سوزان معه في أثناء قيادته، وأوكل مهمة إرجاع سيارتنا للبيت إلى جندي من جنوده. عرفت في أثناء نقاشي مع أبي ونحن في طريق عودتنا إلى البيت أن جميع الخلايا الزرقاء يحملن في أجسادهن شريحةً إلكترونية دقيقة تحدد أماكنهن وعلاماتهن الحيوية

لدى جهات عديدة، منها: بنك التخصيب المركزي، وأقرب البنوك الفرعية إليهن، وكذلك مخفر الشرطة، وأي محاولة لإخفاء أي أبوين طفلتهما أو تعرضها لأي مكروه عن قصد.. ستكون أقل عقوبة له السجن مدى الحياة مع مصادرة الطفلة منهما. سألته مندهشةً:

- لماذا لا تريح الحكومة نفسها وتتولى هي تربية الخلايا الزرقاء من البداية؟

قال:

- يوجد بند رئيسي من اتفاقية الخلايا الزرقاء العالمية، ينص على تنشئتهم مع أسرهم، وتُوفِّر منظمة الإنجاب العالمية دعمًا ماليًّا وطبيًّا كبيرًا للدول الملتزمة بنودَ تلك الاتفاقية.

تنهدتُ وقلت:

- كان سيصبح راحةً للحكومة، وراحة للخلية وأهلها.

وتابعتُ ضامةً شفتيَّ:

- سيكون يومًا حزينًا علينا حين تفارقنا سوزان.

قال أبي:

- نعم، ولكن ليس باليد حيلة.. لقد جئنا جميعًا من رحم خلايا زرقاء، وعلى سوزان أن تكون أمًّا حاضنة لأناسٍ آخرين قادمين.. نحمد الله أنْ عوَّضنا بأخيكِ يونس، وسنُرزَق بطفل أو طفلة أخرى عندما نقدم طلبًا جديدًا لإنجاب طفلٍ مستقبلًا.

نظرتُ إلى سوزان الناعسة فوق كتفه وقلت:

- سيكون يومًا أشد قسوة على هذه الفتاة حين تكبر وتعرف بأمر رحيلها الإجباري عنا.

قال:

- آجلًا أم عاجلًا ستعرف، لا تكوني أنتِ السبب في ذلك وحسب.

قلتُ:

- إن الجميع يعرفون أن سوزان خلية زرقاء، وبمجرد التحاقها بالمدرسة سيخبرها من يراها بمستقبلها المعروف.. فكرة إخفاء مصيرها عنها مستحيلة.

التفت إليَّ وقال:

- لن تذهب الفتاة إلى المدرسة أبدًا.. غير مسموح للخلايا الزرقاء بتلقّيهن تعليمًا.

صحتُ في تعجب:

- ماذا؟!

قال:

- كما قلتِ قبل قليل.. سيكون يوم فراقها صعبًا للغاية، تريد الحكومة تخفيف صعوبة ذلك الفراق، لذا توجد بعض الإجراءات الحازمة لتقليل دائرة معارفها.. وقّعتُ إقرارًا بذلك يوم تسلُّمها.

قلت مُقطِّبةً جبيني في استهجان:

- إن هذا ظلم كبير.

قال:

- أخبرني موظف البنك يومها أنها ستتلقى بعد رحيلها عنا تعليمًا خاصًا يُعوِّض سنوات تعليمها الفائتة.. كذلك سيُعيِّن لها البنك طبيبًا نفسيًا يزورها أسبوعيًا في العام الأخير لها بيننا.

قلت متذمرةً:

- عليهم أن يرسلوا طبيبًا نفسيًا لنا أيضًا.

عندما وصلنا إلى المنزل.. حكى أبي لأمي عمّا حدث مع القائد الجديد، وعن تلك الدورية التي ستتناوب على حماية بيتنا من الخارج، قالت أمي وهي تأخذ سوزان منه:

- إذن ما يقوله الناس عنه صحيح.. لقد انتقل هذا السيد إلى قريتنا عقابًا له بعد موت خلية زرقاء في المكان الذي كان يخدم فيه سابقًا، لذا جاء إلينا بكل هذا الحرص.

هزَّ أبي رأسه موافقًا دون حديث.. ولم يأتِ بذكر مخدِّر الحشيش الذي تحدث عنه الرجل، ولم أتحدث عنه أنا الأخرى.. وإن ندمتُ على ذلك أشد الندم لاحقًا.

***

المرة الثانية التي رأيتُ فيها السيد شاهين عن قرب كانت في بيتنا بعد ثلاث سنوات من لقائنا الأول.. كنت وقتها قد بلغت عامي السادس عشر، وصرت من حاملي المؤقتات الشخصية، وكان يونس الشقي قد خطف مني مؤقتي فجأةً وأنا أشاهد على شاشته صور الخلايا المنضمّات حديثًا للمحميّات، التي كان يعرضها المؤقت على مدار اليوم كإحدى المزايا الإضافية لاقتنائه، وأخذ يركض إلى الخارج ومعه سوزان -التي لم تكن تفترق عنه- كي أركض خلفهما صارخةً كعادتنا اليومية منذ وصول ذلك المؤقت عبر البريد، لكن في تلك المرة انزلقت قدم سوزان وارتطم رأسها بحافة طاولة الردهة لتسقط فاقدةً الوعي تندفع من رأسها نافورة من الدماء، وقتها تسمَّرتُ في موضعي من الصدمة، في حين أخذ يونس يصرخ إلى أمي وهو يحاول إيقاظ الفتاة الغارقة في دمائها.

حصلت سوزان في ذلك اليوم على أربعة غُرز جراحية في رأسها، قامت بها أمي دون أن تستدعي طبيب القرية، سألتُها في قلق شديد وهي تنتهي من لف رأس سوزان بالشاش:

- هل سيضيف ذلك الحادث شهورًا إضافية إلى مدة انتظار مؤقتي؟

قالت دون أن تنظر إليّ:

- إنه حادث عارض لم يكن لكِ ذنب فيه، إنه ذنب هذا الشقي.

وأومأت برأسها نحو يونس الذي كان يجلس على ركبتيه ممسكًا بيد سوزان التي استعادت وعيها، ومحدقًا إلى رأسها الملفوف من غير أن يُعير كلمات أمي ذرة اهتمام واحدة. حينذاك فوجئنا بالسيد شاهين يدلف إلينا لاهثًا ومعه الضابط المكلف بحماية البيت، وسأل أمي على الفور بوجه محتقن:

- ماذا جرى؟!

أجابت أمي في هدوء:

- لقد انزلقت قدم سوزان وسقطت، فأُصيب رأسها بجرح قطعي بسيط.

نظر إلى سوزان بقلق وقال بعصبية شديدة:

- لو علم مسؤولو البنك بهذا الأمر!

نهضت أمي من جلستها على الأرض، وقالت وهي تخلع قفازاتها الطبية وتضعها جانبًا:

- سيدي إنها طفلة في عامها الثامن، إن أردنا سلامتها في كل لحظة فعلينا أن نُقيِّد أطرافها أو نُخدِّر جسدها لنمنعها من الحركة.

زمَّ شفتيه، ثم قال وقد هدأ انزعاجه بعض الشيء:

- تسارعت معدلات تنفسها وخفقان قلبها أمامي فجأة، وأطلقَتِ الشاشةُ صافرة إنذار أدركت معها أن مصيبة ما قد أصابتها.

وتابع وهو يتفحص بعينيه لفة الشاش على رأسها:

- سأستدعي طبيب القرية حالًا.

قالت أمي:

- لا داعي لذلك، لقد نظَّفتُ الجرح وخيَّطتُه، سأراقبها طوال الليل، وإن كانت لديها علامات خطِرة سأستدعي الطبيب بنفسي، كنتُ ممرضة فيما قبل واعتدتُ مثل هذه الإصابات.

قال بنبرة صارمة:

- لا، سيأتي الطبيب لمرافقتها الليلة.. عليه أن يُدوِّن تقريره لبنك التخصيب المركزي، لا بد أن صافرة الإنذار نفسها قد أُطلِقت لدى شاشاتهم.

قالت أمي بغير اكتراث:

- كما تريد.

كنت أتابع حديثهما بترقب شديد، وتنهدتُ عندما لم تتفوه أمي بأي شيء يخص مؤقتي. كذلك لم تتحدث بأي شيء يخص يونس.. وإن كنت أعرف تمام المعرفة أن ذلك الفتى لن يهتم بشيء سوى أن تكون سوزان بخير في أسرع وقت، بغض النظر عن أي شيء آخر.

في تلك الليلة ظل بجانبها رفقة الطبيب طوال الليل، مررتُ على غرفتيهما فجرًا في أثناء ذهابي إلى دورة المياه.. فوجدته ممددًا بجانبها محتضنًا إياها، في حين يجلس الطبيب الشاب على مقعد مجاور لسريرهما يقرأ كتابًا، سمعت أبي يقول لأمي بعد يوم واحد من ذلك الحادث:

- أخطأنا بالتسرع في إنجاب يونس.. لم نضع في حسباننا أن يكونا قريبين في السن إلى هذا الحد، إنه متعلق جدًا بها، وسيكون أكثر المتألمين بيننا لفراقها بعد ثمانية أعوام.

لم أسمع أمي تجيب بشيء، أعتقد أنها أومأت برأسها موافقةً كلامه. كان أبي مُحقًا في حديثه تمامًا، فمنذ بدأ الطفلان في المشي على أقدامهما حتى صارا كتوءمين ملتصقين.. لا يفارقان بعضهما أبدًا، وإن أصرَّت أمي على تفريقهما.. شرعا في البكاء دون توقف ريثما ترضخ لهما وتعيدهما معًا مرة أخرى، حتى ملامحهما الشكلية كانت تتقارب أكثر فأكثر مع نموهما؛ إذ امتلك الاثنان نفس بياض الوجه والعينين الرماديتين والشعر البُني الفاتح الأملس.

الأمر الذي فاجأني لاحقًا هو مساعدة يونس لسوزان في تهجئة الحروف بعد التحاقه بالمدرسة، أظن أنه فعل ذلك وقتها من منطلق طفولي لا أكثر، لكن الذي أدهشني حقًا هو قدرة سوزان على تهجئة أكثر من كلمة بعد أشهر قليلة. انزعج أبي كثيرًا حين اكتشف ذلك الأمر. عذرته عندما عرفت فيما بعد أن اختبارًا مفاجئًا قد يُجرى لسوزان في أي وقت، وإنْ ثبت إجادتها القراءة.. قد يؤدي ذلك إلى معاقبته لخرقه بنود تربية الخلايا الزرقاء التي ألزم بها نفسه. لذلك حاولنا جميعًا إثناء يونس عن التسلل إلى سوزان بكتبه المدرسية، لكننا فشلنا بعدما أخذ الفتى يستخدم كل الحيل للذهاب إلى غرفة سوزان ليبدآ القراءة معًا. مع الوقت بدأ الأمر يعجبني وإن لم أصرِّح بذلك، وشعرتُ أن أمي صارت تراه عاديًا هي الأخرى، حتى إنها قالت لأبي عندما فاض بنا الكيل من يونس:

- سأعلِّمها كي تدّعي أميَّتها إذا عقدوا لها اختبارًا مفاجئًا.. لا تشغل بالك بهذا الأمر.

***

في عامه التاسع عرف يونس بأمر رحيل سوزان عنا مستقبلًا، يومها دلف إلينا ممتقع الوجه والعينين، وسألنا بصوت مختنق بالدموع عن صحة ذلك الأمر.. وعندما أكّد له أبي صحة ما سمعه، صاح مغمغمًا بعد بكاء شديد: «لا لن يحدث ذلك». حاول أبي حينها شرح كل شيء عن دور الخلايا الزرقاء في إبقاء البشرية، وكيف جئنا جميعًا من خلايا زرقاء انفصلت في وقت ما عن عائلاتهم، إلا أن ذلك الكلام لم يجد لإقناعه سبيلًا. شرح له أبي برويةٍ عن العقوبات التي قد تودي بحياته هو وأمي إن لم ترحل سوزان في وقتها المحدد، انزوى في ركن الغرفة وأخذ ينشج بقوة.. حاولت أمي تهدئة روعه قائلةً وهي تحتضنه إنها ستقدم طلبًا لإنجاب طفل آخر قرب رحيل سوزان، دمدم صارخًا فيها بألا تتحدث عن رحيل سوزان مرة أخرى.. لم يتوقف إلا عندما دلفت إلينا سوزان، وسألته مستغربةً عن سبب بكائه، وفي حين كنا نترقب في قلق شديد ما سينطق به، مسح عينيه سريعًا بكُم قميصه، وقال محاولًا إمساك نفسه من البكاء مجددًا:

- لا شيء.. عنّفني أحد المعلمين في المدرسة اللعينة لأنني لم أُجِب سؤالًا سهلًا.. هيّا لنقطف بعض ثمار البرتقال من الحديقة.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا بصمت، في حين خرج الثنائي إلى الحديقة الأمامية، قالت أمي بعدما أخرجت زفيرها:

- إنه رقيق القلب، لكنه يحمل المسؤولية منذ صغره.. لن يتفوه لها عن أمر رحيلها.. لن يُحمّلها ذلك الهم، سنساعده يومًا بعد يوم على تقبل ذلك الأمر، عليه أن يعرف أنه توجد أمور علينا تحملها رغمًا عنا.

بعد أيام قليلة من ذلك اليوم.. وجدتُ سوزان تدخل إلى حجرتي، وتسألني دون مقدمات:

- هل يوجد خطب ما يصيب يونس؟!

أجبتها في مكرٍ:

- لماذا؟

قال:

- لا أعرف.. أشعر أن شيئًا ما متغير فيه.

قال:

- إنكما تكبران، ومع كل يوم تعبرانه تكتسب شخصية كليكما ملامحَ جديدة.. وإن كنتُ أرى يونس طبيعيًا مئة في المئة.

أومأتْ برأسها في صمت.. وطلبت مني -على غير عادتها- أن تنام برفقتي، فوافقتُ على الفور، فقفزتْ إلى سريري وتسللتْ أسفل الفراش. في تلك الليلة أصابني أرق طويل لم أعتده، ومكثت أفكر في تلك الحياة التي تنتظرها بعد ست سنوات، لم تتقبل نفسي فكرة حمل هذه الطفلة بطفلين أو ثلاثة في عامها السادس عشر مرغمةً من أجل آخرين ينعمون بحياةٍ طبيعية لا يشغل أحدهم باله بما قد تعانيه من أضرارٍ صحية ونفسية مع تتابع الحمل والولادة. ونظرت إليها وهي غارقة في نومها بجواري، وقبّلتُ رأسها وأنا أهمس:

- أنا آسفة.. ليت أبي وأمي يملكان حق الرفض.

***

المرة الثالثة التي لا أنسى رؤية السيد شاهين فيها كانت في ذلك اليوم المشؤوم، عندما فتحتُ عينيَّ في ألمٍ شديدٍ ودوارٍ أشد جعلا ذهني يستغرق أكثر من دقيقتين حتى أستوعب ما أنا فيه، كنت راقدةً على سرير طبي تلتصق بذراعيَّ وصدري أقطاب أسلاكٍ كثيرة تتصل بشاشة مجاورة تطلق صافرة قصيرة منتظمة، في حين يتدفق سائل مصفرٌّ من

قنينة مُعلّقة على حامل معدني بجواري إلى أوردة رقبتي عبر قسطرة طبية. حينها سمعت وقع أقدامه وهو يدلف إليّ ويقترب مني ليسألني بنبرة حانية:

- كيف حالكِ؟

نظرتُ إليه لثوانٍ محاولة استيعاب هويته، ثم استرقت النظر إلى نافذة زجاجية جانبية كان يقف خلفها عمتي وخالتي ويونس وسوزان ينظرون إليّ، قبل أن أمعن النظر في صورتي المنعكسة في الزجاج أمام سترة خالتي الداكنة، كانت عيناي متورمتين مزرقّتين، ووجنتاي مسحوجتين، يُغطّي نصف جبهتي فوق حاجبي الأيسر لاصق طبي عريض، في حين جُبِرت ذراعي اليُسرى بجبيرة زرقاء كبيرة وثقيلة، عدت بعيني إلى صاحب الصوت الواقف أمامي، الذي سألني من جديد مترقبًا:

- ليلى ألا تتذكرينني؟!

قلت في وهنٍ بالغٍ:

- سيد شاهين! ماذا حدث؟! أين أنا وأين أبي وأمي؟!

ضمَّ شفتيه وهزَّ رأسه آسفًا وقال:

- لطالما حذرتُ أباكِ من تعاطي ذلك المخدر.

وسكت. دارت في رأسي سريعًا صور متتابعة لساعات النهار السابق؛ استعدادنا أنا وأمي وأبي للذهاب إلى المدينة من أجل التبرع الإلزامي بالدم.. تأكيد أمي ليونس بأن ينتبه إلى سوزان حتى نعود.. توصيتها ضابط المناوبة بأن ينتبه إليهما.. إطلاق أبي بوق سيارته كي نسرع بالركوب.. ذلك الجزء المُطفأ من السيجارة، الذي دسّه أبي سريعًا في جيبه قبل ركوب أمي معنا في كابينة السيارة، خضوعنا لعملية التبرع

بالدم.. شعور أبي بالدوار أثناء سيرنا في رواق الخروج من ذلك المبنى، توقفه عن السير واصفرار وجهه وانحناؤه بجسده ممسكًا ركبتيه لاهثًا.. قلق أمي واستفسارها منه إن كان يحتاج إلى طبيب.. رفضه ذلك الأمر ومتابعته سيره.. ترنح السيارة بنا في طريق عودتنا وعدم استماع أبي إلى نداءاتنا بأن يتوقف، وإصراره أنه بخير.. الجسر الفولاذي الشاهق الذي كانت سيارتنا تندفع نحوه بسرعة رهيبة.

توقفَتِ المشاهد في رأسي عند ذلك المشهد.. ومعه امتلأت عيناي بالدموع، كنت أرغب في الصراخ بكل قوة، لكن العقار المهدئ الذي كان يسري في عروقي منحني استرخاءً إجباريًا. مِلت برأسي المتثاقل ونظرت إلى أخويَّ المحدقين إليَّ من خلف الزجاج، وانسلَّت دموعي إلى وجنتيَّ دون توقف.. صرنا يتامى.

***

بعد خروجي من المستشفى بأيام قليلة وصل إليَّ اتصال هاتفي من السيد شاهين للقاء موظفة بنك التخصيب في مكتبه بمخفر الشرطة، كنت أعلم أن الأمر يخص رعاية سوزان بعد رحيل أبويَّ، كان يونس يقف حينها خلفي دون أن أشعر، أجفلت وأنا أنهي الاتصال عندما تفاجأت بوقوفه، فقال مقتضبًا:

- إن سوزان تعلم بأمر رحيلها.

سألته غير مصدقة:

- ماذا؟ منذ متى؟!

قال:

- لستُ أنا من أخبرها.. قالت إن أمي قد أخبرتها بالحقيقة قبل أكثر من عامين ووعدَتها بألا تتركها.

هززتُ رأسي أسفًا، وقلت:

- لم تكن لتستطيع أمي فعل ذلك.. كانت تخفف عليها الأمر ليس إلا.

قال:

- هل سيأتون لأخذها بعد رحيل أبوينا؟

قلتُ:

- لا أفهم في الأمور القانونية.. ولم يحدثني أبي أو أمي عن أي شيء يخص الأوراق التي وقّعاها بخصوص سوزان، زارتني عمتي في المستشفى قبل خروجي بأيام وعرضتْ عليَّ أن تتولى هي رعايتها رسميًا، لكني لم أعطِها جوابًا حتى الآن.

قال:

- نعم، لمَّحتْ عمتي لسوزان بهذا الأمر، ومن يومها وهي ترفض الحديث معي.. تشعر بأننا سنتخلى عنها، لن تتوانى عمتنا عن الاستغناء عنها في أي وقت.

قلت بيأس:

- كما اعتادت أمنا القول.. توجد أمور تفوق قدراتنا أحيانًا.

قال بصوت تخنقه الدموع:

- لن أسامحكم أبدًا على هذا.

في اليوم التالي.. ذهبت إلى مخفر الشرطة مع عمتي وزوجها اللذين أصرّا على مرافقتي، عندما دخلنا إلى غرفة السيد شاهين.. كان يجلس إلى مكتبه، وأمامه امرأة ثلاثينية أنيقة ترتدي بذلة سوداء ذات تنورة قصيرة تصل إلى ركبتيها، نهضا ورحبا بنا، ثم أشار إليَّ السيد شاهين كي أجلس على المقعد الشاغر أمام السيدة، في حين جلستْ عمتي وزوجها على أريكة جلدية تلاصق الحائط الذي يواجهني.. قالت السيدة بصوت هادئ عذب:

- اسمي مادلين صقر.. مديرة قسم الخلايا الزرقاء اليتامى في بنك تخصيب المدينة.

هززت رأسي، فأردفتْ وهي تنظر إلى جبيرة ذراعي:

- لن أطيل عليكِ.. بعد وفاة والديكِ صار أمامنا ثلاثة طرق لرعاية سوزان خلال السنوات الأربع القادمة؛ الطريق الأول: أن تتولي رعايتها بنفسك.. خاصة أن عمرك عشرون عامًا. والثاني: أن تتنازلي لأحد أقاربك من الدرجة الثانية بحق رعايتها وتخلي مسؤوليتك من هذا الأمر.

سمعت لحظتها صوت صرير الأريكة الجلدية، فرفعت طرف عيني إلى عمتي فوجدتها قد مدَّت جزعها للأمام معطية كل انتباهها إلى كلمات السيدة التي تابعت:

- والطريق الثالث: أن تنتقل سوزان من اليوم إلى دار رعاية تتبع وزارة الإنجاب في المدينة، وفي هذه الحالة ستخلون مسؤوليتكم عنها تمامًا، مثلما سيكون الحال مع السيد شاهين.

تبادلتُ نظرة خاطفة مع عمتي وكذلك مع السيد شاهين.. ثم قلت بهدوء:

- سأتولى رعايتها سيدتي.

قالت وكأنها تريد تأكيدًا مني لما قلتُه:

- ولكني أعتقد أنكِ ستكونين مشغولة في السنوات القادمة بدراستك الجامعية.

صمتُّ هنيهة ثم قلت:

- نعم سألتحق بمعهد العلوم الطبية صيف هذا العام.. لكن هذا لن يعوقني عن رعايتها، كما أن السيد شاهين يوفر لنا حماية خاصة، ولديَّ أخ يشتد عوده يومًا بعد يوم.. سيعينني على الاعتناء بها.

قالت باسمةً وهي تمد يدها لتفتح حقيبة جلدية بنية كانت تضعها على الطاولة الصغيرة بيننا:

- حسنًا.. لنوقِّع أوراق تحملك مسؤولية تسليم سوزان لنا بعد أربعة أعوام.. عليَّ أن أذكّركِ بأن أي تأخرٍ في تسليمها بعد توقيع هذه الأوراق سيودي بكِ إلى المحاكمة بتهمة خيانة الأمانة.

ابتلعتُ ريقي وهززتُ رأسي إيجابًا.

وقعتُ ستَّ عشرة ورقة دون أن أقرأ منها شيئًا، وضعَتِ السيدة ثمانيَ منها في حقيبتها مجددًا بعد مراجعتها، وأعطتني ثمانيَ لأحتفظ بها، ثم قالت باسمة:

- ستنالين بعض الامتيازات الإضافية؛ الطفل المتبقي لأبيكِ وأمكِ، الذي لم يقدما طلبًا بشأن تخصيبه صار امتيازًا إضافيًا لكِ من اليوم؛ هذا يعني أن البنك سيسمح لكِ مستقبلًا بتخصيب خمسة أطفال من بويضاتك؛ اثنين وفق قانون الإنجاب، واثنين لكونكِ أخت سوزان، وذلك الطفل الذي لم يلحق بأبويكِ. الامتياز الثاني سيكون حصة تموينية شهرية خلال السنوات الأربع القادمة لكِ ولأخيكِ ولسوزان بالطبع. الامتياز الثالث ستحصلان فيه على راتب أبيكما كاملًا حتى التحاقكِ أنتِ وأخيكِ بعملٍ يفوق راتبه ذلك الراتب مستقبلًا. أما الامتياز الأخير فقد طرأ في بالي في أثناء توقيعكِ الأوراق، سيوفر لكِ بنك التخصيب منحةً مجانية لدراسة الطب في العاصمة بعد تخرجكِ في معهد العلوم إن أردتِ ذلك.

هززتُ رأسي بصمت.

***

في طريق عودتنا إلى البيت.. لم تنطق عمتي بكلمة، ظل وجهها ممتقعًا فحسب. كانت ترى في داخلها أني أضعت عليها وعلى أسرتها غنيمة من الامتيازات دفعة واحدة، حتى إنها فارقتني عند بيتها دون توديعي.. لم أهتم، واصلتُ طريقي إلى بيتنا.. صعدت السلالم الخارجية بقلبٍ يخفق خفقانًا عظيمًا.. كان الباب الرئيسي مفتوحًا على مصراعيه، خطوت إلى الداخل، وجدت يونس وسوزان يجلسان في انتظاري، حدقا إليّ لثوانٍ.. نظرتُ نحوهما دون أن أقول شيئًا، ثم رفعتُ لهما أوراق الرعاية بيدي السليمة باسمةً؛ ركضا نحوي واحتضناني.. أغلقتُ على جسديهما بذراعيَّ وضممتهما إلى جسدي بقوة، وأغمضت عينيَّ وأنا أتنفس بهدوء شديد.. كانت تلك اللحظة هي بداية قصتنا الحقيقية.

5

بعد ستة أشهر من إعلاني تحمل مسؤولية سوزان.. التحقت بمعهد العلوم الطبية في مدينة المنصورة الساحلية، ورغم أني اعتدت منذ بلوغي السادسة عشرة الذهابَ إلى تلك المدينة كل أربعة أشهر من أجل التبرع الإلزامي بالدم فإن الذهاب إليها للدراسة كان مختلفًا تمامًا بالنسبة إليَّ، خاصةً أن معهدي كان يقع في ضاحية أخرى غير الضاحية الطرفية، التي يوجد فيها مركز التبرع بالدم؛ ما أعطاني مجالًا للتعرف أكثر إلى المدينة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، كانت الأبنية في تلك الضاحية ذات ارتفاع منخفض لا يتجاوز الستة طوابق يتوسطها بنك التخصيب كأعلى بناء فيها، رأيته للمرة الأولى بذلك القرب عندما وقفتُ أمام نافذة قاعة المحاضرات الواقعة بالطابق الخامس في يوم دراستي الأول وحدقت إلى تصميمه الفريد، برج دائري عملاق يتجاوز ارتفاعه الثلاثين طابقًا، تغلفه واجهة كهرمانية كانت هي الوحيدة من نوعها بين بقية الأبنية.. قال صوت من خلفي فجأة:

- يتيح معهدنا فرصةً واحدة كل عام للعمل في محمية الخلايا التابعة له.

التفتُّ إلى صاحب الصوت، كان شابًا هزيل البنية نحيل الوجه شعره بُني قصير ضارب إلى الصفرة، وعندما وجدته يوجِّه حديثه إليَّ هززت رأسي إيجابًا بخجل، وقلت:

- نعم أعرف ذلك.

فتابع في هدوء وهو ينظر إلى مبنى بنك التخصيب:

- أعتقد أن الجميع هنا سيتنافسون من أجل تلك الوظيفة.

كان محقًا في كلامه، فموظفو محميات الخلايا التابعة لبنوك التخصيب يتقاضون أعلى الأجور في بلدنا، ووظيفة مثل هذه هي أسمى غاية من وراء الالتحاق بمعهدنا، وإن كنت على خلافهم، قد يكون لديَّ فرصة أخرى للَّحاق بوظيفة بنكية عندما ألتحق بكلية الطب في العاصمة. فقلت له وأنا أنظر إلى زملاء الصف الجالسين على مقاعد القاعة المُدرَّجة:

- نعم.. لا بد أن الجميع سيعملون بكل جد للَّحاق بتلك الوظيفة.

فقال:

- لستِ من المدينة، أليس كذلك؟

قلت:

- بلى، إنني من قرية مجاورة تبتعد عشرين ميلًا عن جنوب المدينة.

قال:

- نعم، يبدو عليكِ.

قوستُ حاجبيَّ غيظًا وأنا أنظر في عينيه بعدما فكرت أنه يقصد بكلامه نوعًا من الإهانة، لكنه تابع سريعًا:

- لا أقصد أي إهانة يا آنسة، لكنَّ تسريحة شعرك المعقودة وراء رأسك ككعكةٍ.. نادرًا ما نراها هنا عند الفتيات من عمرك.

قلت مغتاظةً:

- لا أملك وقتًا لمثل هذه التفاهات.

ثم غادرته.

كان ذلك هو اللقاء الأول لي بـ «رامي إسماعيل»؛ أكثر طلاب الصف تفوقًا وتعقيدًا في الوقت ذاته، سمعت فتاة معنا تقول لأخرى في أسبوعنا الدراسي الأول.. إنها تعرفه منذ وقت طويل، وإن ذلك المجنون قد فوَّت على نفسه فرصة اللحاق بكلية الهندسة من أجل الفرصة الوحيدة التي يوفرها هذا المعهد للعمل في محميات الخلايا بعدما فاتته دراسة الطب التي كان يرغب فيها، وإنه أخبرها في وقتٍ سابق أنه يرى الستين طالبًا الملتحقين بالصف ليسوا مجرد منافسين على الوظيفة فحسب.. بل أعداء له لن يدخر ذرة جهد واحدة لهزيمتهم.

في العادة لا ألوم الأشخاص الذين يعملون بكل قوة من أجل مصالحهم ما داموا لا يسببون الأذى لمنافسيهم، وكنت أرى ذلك في رامي يومًا بعد يوم، بالعكس فقد خالف الفتى ظنوني في نهاية العام الأول بعدما ساعدني في فهم الدروس التي فاتتني مع غيابي المتكرر لأسباب تتعلق بيونس وسوزان دون أن أطلب منه ذلك، لنصبح مع بداية العام الثاني صديقين مقربين نجلس متجاورين على الدوام في قاعة المحاضرات، ونتمشى معًا بعد انتهاء يومنا الدراسي عبر شوارع المدينة حتى محطة الحافلة التي كنت استقلُّها إلى القرية كل مساء.

عيبه الوحيد في رأيي أنه كان ثرثارًا عظيمًا لا يكف عن التحدث عن حلمه بالالتحاق بمحميات الخلايا، في حين كنت أنا الجانب الصامت

الذي يستمع إلى أحلامه ويتكلم بالكاد.. كان يكفيني التفكير في سوزان ويونس اللذين صرت أمهما وأنا في عامي العشرين، في مهمة كنت الأسوأ فيها على الإطلاق. ذات مرة ابتسمتُ في أثناء المحاضرة ساخرةً من نفسي وأنا أتذكر سوزان وهي تدلف إليَّ في حالة رعب شديد من ذلك النزيف الذي أصابها في أثناء نومها وبلَّل ملابسها الداخلية السفلية، ورغم أني قرأت ذات مرة مقالًا عن الدورة الشهرية التي كانت تصيب النساء كل شهر قبل الجائحة فإني لم أنتبه إلى أن ذلك النزيف بين فخذيها هو نفسه ذلك الحيض الذي قرأت عنه، لأرى في نفسي كل الحماقة حين انتهت الطبيبة -التي استدعيتُها إلى بيتنا في هلع- من فحصها وقالت إن ذلك الأمر عادي مع الخلايا الزرقاء، لتجدد بطانة أرحامهن كل ثمانية وعشرين يومًا.

في ذلك اليوم سألني رامي ونحن في طريقنا إلى الحافلة عن سر ابتسامتي البلهاء في أثناء المحاضرة، فأخبرته بسوزان وقصتها منذ جاءت إلينا قبل ثلاثة عشر عامًا، ووالديَّ اللذين تركاني أحمل ذلك العبء وحدي فجأة، وأخي الذي يزداد تعلقه بها يومًا بعد يوم، وصرَّحتُ له عن منحة الطب التي تنتظرني بعد تخرجي في معهد العلوم، والتي قد تتيح لي فرصةً أكبر للعمل في أحد بنوك تخصيب الدولة إن صفا ذهني وصرت أكثر تركيزًا بعد مغادرة الفتاة، فلم يفوِّت الفرصة ليسألني عن كل كبيرة وصغيرة تخص سوزان وحياتها وعن الرعاية التي تلقاها من مخفر الشرطة ومن طبيب القرية، وعن وعن وعن، حتى شعرت بالندم أني أفلتُّ لساني وأخبرته بذلك الأمر بعدما لم يتوقف للحظة عن أسئلته، غير أني قلت له في لحظة صدق:

- أرى أنك أكثرنا حظوظًا للالتحاق بمحمية الخلايا يا رامي.. إني أعرف نفسي جيدًا، لن أتفوق عليكَ ولا على بقية طلاب الصف..

لذلك فإني أرجو كثيرًا أن تكون أنت من يلتحق بهذه الوظيفة لعلك تكون حلقة الوصل بيني وبين أختي يومًا ما.

فابتسم ابتسامةً خفيفة، وهو يحدق إلى عينيَّ اللتين التمعتا بدموعهما، ثم قال كأنه تذكر شيئًا:

- أرأيتِ قطار الخلايا من قبل؟!

قلتُ:

- لا.

قال متحمسًا:

- إن اليوم هو أول أيام الشهر.. سيصل إلى محمية المدينة بعد ساعة من الآن.

سألته:

- هل يمر بالقرب من هنا؟!

قال:

- لا.. إنه يختفي داخل نفقه، ما إن يدخل المدينة حتى يصل إلى محمية الخلايا المحصنة.. لكني أعرف مكانًا نستطيع عنده رؤيته بوضوح للغاية.. انتظريني هنا فحسب.

ثم غادرني راكضًا في حماس، وعاد بعد عشرين دقيقة راكبًا دراجة نارية ومغطيًا رأسه بخوذة سوداء كبيرة، وقال عندما أوقف دراجته أمامي بحركة استعراضية كادت تطيح بي:

- إنها دراجة أبي.

وأومأ برأسه كي أركب وراءه، نظرتُ إلى عينيه بنوع من التشكك، لكنه صرخ فيَّ متحمسًا وهو يناولني خوذة أخرى كانت معلقة بجانب الدراجة خلف ساقه:

- هيا.. أمامنا نصف ساعة أخرى كي نصل إلى المكان المقصود.. لا أريد أن تفوتنا رؤية القطار.

هززتُ كتفي استسلامًا، وأخذتُ الخوذة منه ودسست رأسي فيها ثم ركبت خلفه، فزمجرَتِ الدراجة النارية عاليًا بعدما لف مقبضه على مقودها أكثر من مرة متباهيًا قبل أن تنطلق بنا خارجة من المدينة نحو حدودها الصحراوية الغربية.. وهناك انعطفنا إلى طريق رملي متعرج يمتد بين تلال رملية كان ارتفاعها كافيًا لحجب الرؤية على الجانبين.

فكرت وأنا أتشبث بخصره مرتعبةً وهو يسرع بالدراجة النارية أكثر وأكثر، أن ذلك الفتى مخبول حقًّا، وندمت في داخلي أني طاوعته ورافقته إلى تلك المنطقة المهجورة، لكن الأوان كان قد فات بعدما خرجنا من ذلك الطريق إلى منطقة صحراوية شاسعة كان الأفق من حولها رمليًا في جميع الجهات عدا جهة المدينة التي ظهرت بها قمم الأبنية ينتصب بينها بنك التخصيب الشاهق.

***

بعد نصف ساعة من القيادة المتواصلة بالدراجة النارية أبطأ أخيرًا من سرعتها إلى أن أوقفها، والتفت إليَّ وقال وهو يشير إلى تلٍّ رملي مجاور:

- سأريكِ أعظم مشهد قد ترينه في حياتك.

صعدتُ خلفه التلَّ إلى قمته، ثم توقفتُ مكاني غير مصدقة عندما رأيت قضبان السكة الحديدية تشق الصحراء نحو المدينة، فقال:

- إنها السكة الحديدية الوحيدة المتبقية من العصر القديم.. تمتد هذه القضبان لتربط المدن الثمانية الكبرى -التي توجد فيها المحميات- بعضها ببعض، ولا يسير على قضبانها إلا قطارات الخلايا الزرقاء، يصل قطار مدينتنا محملًا بالخلايا الجديدة بداية كل شهر، ويغادر في اليوم التالي.

تساءلتُ مستغربة:

- ألا تكتفي محافظتنا بخلاياها؟!

قال:

- لا يُشترط أن تنضم الخلية المولودة في المحافظة إلى محمية المحافظة نفسها.. إن البنك المركزي هو من يحدد توزيع الخلايا على المحميات وفق معايير مختلفة أهمها الحالة الصحية للخلية، تنال دائمًا محمية العاصمة الجودة الأعلى من الخلايا، تليها المحميات السبع الأُخريات دون فروق تُذكر.

قلت:

- أتعني أن سوزان لن يُشترط وجودها في محمية محافظتنا؟!

قال:

- نعم، لا أعتقد أنكِ ستعرفين المحمية التي ستوجد فيها مستقبلًا.

قلت بخيبة أمل:

- هذا يعني أيضًا أن فرصة لقائكما قد تكون ضعيفة للغاية.

أومأ برأسه موافقًا، وقال:

- إن المحميات تعُجُّ بآلاف الخلايا النشطة، وكل شيء هناك يتم وفق ضوابط صارمة.. لكن إن حالفني الحظ وانضممتُ بعد

التخرج إلى إحدى المحميات والتقيت أختكِ هناك يومًا ما فأعدكِ بأنني سأكون حلقة وصل جيدة بينكما.

وأردف مشيرًا بسبابته:

- في الحدود المسموح بها بالطبع.

هززتُ رأسي، فصاح فجأةً وهو يشير بعيدًا:

- إنه هناك.

نظرت بعيدًا، كان القطار قد ظهر بالفعل قادمًا تجاهنا، لكني لم أجد نفسي منبهرةً كما توقع الفتى المخبول، أو ربما كنت قد انشغلت قليلًا بما قاله، غير أني فوجئت به يمسك بيدي ويجرُّني كي أركض معه لنهبط من فوق التل إلى الدراجة النارية مرة أخرى، وقال وهو يدير محركها سريعًا:

- لا ترتدي الخوذة حتى لا يظنونا أشرارًا.

سألته متخوفةً:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

لم يُعِر سؤالي أي اهتمام، وزمجر بالدراجة النارية.. فوثبتْ بنا منطلقة لتعبر التلَّ المرتفع ناحية السكة الحديدية، صرختُ إليه:

- توقف!

لكنه زاد من السرعة متحديًا، في حين كان القطار يصرخ ببوقه قادمًا بسرعته الرهيبة، ثم انحرف بالدراجة فجأة لتركض بنا موازية للسكة الحديدية على بعد أقل من مترين منها. خلال لحظات كان القطار يمر بجوارنا، التفتُّ نحو عرباته ذات اللون الخارجي الأزرق وأنا أصرخ رعبًا من ذلك الجنون الذي يمارسه رامي، لكنَّ عينيَّ التقتا للحظة بعيني فتاة كانت تقف خلف زجاج نافذة إحدى العربات تحدق إلينا، فنسيتُ

كل شيء من حولي، وفي حين كان الفتى يزيد من سرعة الدراجة أكثر فأكثر لمجاراة سرعة القطار الذي بدأ يُبطِئ من سرعته مع اقترابه من حدود المدينة.. كانت العربات تتوالى بجواري واحدة وراء أخرى ما بين عربات مشغولاتٍ بفتيات شاردات يجلسن على مقاعدهن دون أن يلتفتوا جانبًا، وعرباتٍ أُخريات تمتلئ عن آخرها بجنودٍ تُدَس صدورهم في سترات سوداء واقية، وتُغطّى رؤوسهم بخوذٍ ضخمة ذات نظارات كبرى معتمة، قلت في نفسي وأنا أنظر إليهم: «لا توجد مهمة عسكرية في عصرنا الحالي أهم من تأمين مثل ذاك القطار»، ثم شعرت بالهلع عندما التفتَ أحد الجنود إلينا وهيَّأ إليَّ عقلي أنه سيقنصنا بسلاحه الناري.. لكنه لم يفعل. وتجاوزنا القطار دون أن نصاب بمكروه.

بعد أقل من دقيقة كان القطار قد صار بعيدًا عنا بعشرات الأمتار، واضطُر رامي إلى إبطاء سرعة الدراجة مع ظهور بعض الكثبان الرملية في طريقنا، إلى أن أوقفها تمامًا، والتفتَ إليَّ وقال لاهثًا بحماس:

- أرأيتِ؟!

فقلت:

- أعدني إلى المدينة حالًا.

***

في أثناء ركوبي الحافلة عائدةً إلى قريتي في ذلك اليوم.. لم يفارق ذهني تلك الفتاة التي التقيتُ بعينيها خلف زجاج القطار، وبدأ عقلي يُكوِّن قصصًا مختلفة عن رغبتها في البقاء مع أهلها وإرغامها تحت سطوة أسلحة الجنود على ركوب ذلك القطار، ولهنيهة تخيلتُ نفسي أركب خلف رامي دراجته النارية لنجاري سرعة قطار الخلايا الذي يحمل

سوزان إلى العاصمة، لن تكون نظرتها إليَّ حينها نظرة استعطاف كالتي رأيتها في أعين تلك الفتاة، ستكون نظرة ازدراء واحتقار بلا شك.

في ذلك المساء أخرجتُ الأوراق التي وقّعتها مع السيدة مادلين في مخفر الشرطة، وأعدت قراءتها بكل تأنٍّ، لم يكن فيها أي جديد، كانت جميع بنودها تتحدث تفصيلًا عن أحقية البلاد في امتلاك الفتاة، وعن رأفتها بنا لتركها تعيش بيننا هذه المدة، وأُفرِدت صفحة كاملة عن العقوبات التي تنتظرني إذا أقدمتُ على الخيانة بمنع تسليمها.. ابتسمتُ ساخرةً وأنا أهز رأسي؛ لستُ من أولئك الأشخاص الذين يقوون على مخالفة القانون، سأسلمها بكل تأكيد بعد ثلاثة أعوام، وعليَّ أن أعيش حياتي المتبقية تلاحقني نظرات أخي المتهمة لي بخيانة العائلة، ما أسهل أن يلقي الناس باللوم على غيرهم ما داموا ليسوا في موضعهم وقت اتخاذ القرارات المصيرية. فجأةً ومضت في بالي فكرةٌ وأنا أعيد الأوراق إلى خزانة الملابس، لم أكن أعرف إمكانية تنفيذها، لكني أخذت أرسم تفاصيلها في خيالي مشهدًا وراء آخر حتى وقت متأخر من تلك الليلة، وعندما شعرت أنني قد أنسى لاحقًا أي تفصيلة منها.. نهضت من سريري إلى مكتبي وبدأتُ أدوِّن كل ما جال في بالي على ورقة بيضاء، حتى انتهيت فطويت تلك الورقة بعناية، ووضعتها مع أوراق رعاية سوزان في خزانة الملابس.

***

الأيام التالية لم يكن فيها أي جديد.. يوم دراسي مرهق ينتهي فيرافقني رامي إلى محطة الحافلة.. تقلُّني الحافلة إلى البيت فأجد يونس وسوزان في انتظاري.. نتسامر بعض الليالي ونهتم باستذكار دروسنا في ليالٍ أخرى.. يأتي يوم وصول قطار الخلايا فأطلب من رامي أن يقلّني بدراجته النارية إلى السكة الحديدية بشرط ألا نسابق القطار،

نجلس فحسب فوق التل الرملي ونشاهده وهو يمر أمامنا، إلى أن يختفي عن أنظارنا فنعود أدراجنا.. يأتي يوم التبرع الدوري بالدم فأذهب إلى هناك وأتبرع بدمائي قبل ذهابي إلى المعهد.. يواصل رامي مساعدته لي بإفهامي الدروس التي لا أفهمها.. يزداد يقيني أكثر وأكثر بأني لن أتفوق على بقية الطلاب أبدًا سواء في المعهد أو في كلية الطب لاحقًا مع نتائج اختباراتي الشهرية المخيبة.. يواصل رامي تفوقه علينا جميعًا بعد منافسة شرسة مع طالبين آخرين.. أُخرِج الورقة المطوية في خزانة الملابس بين الحين والآخر وأضيف إليها بعض التفاصيل وأضعها مكانها من جديد.. أيام متشابهة كان التوتر فحسب يزحف إليها شيئًا فشيئًا مع اقتراب يوم رحيل سوزان.. إلى أن جاء يوم مختلف بعض الشيء في نهاية عامنا الدراسي الثالث؛ كنا في قاعة الامتحانات الواقعة في طابق المعهد الثاني لخوض الامتحان النهائي لمادة الباثولوجيا الإكلنيكية.. وكان نظام الامتحان في تلك القاعة كالتالي: شاشة كبرى أمامنا تعرض الأسئلة تباعًا في حين يُدوِّن كلٌّ منا إجاباته من مقعده المحدد على شاشة صغيرة مُثبتة بمسند المقعد، وفي حين كان العد التنازلي لبدء الامتحان قد ظهر أمامنا على الشاشة الكبرى كي نستعد.. انتبهتُ إلى أن رامي لم يحضر إلى القاعة بعدُ، وسرعان ما سرَت الهمهمات عن بقاء مقعده خاويًا، واعترت الدهشة وجوه الجميع وأنا بينهم، ليس رامي الذي يُفوِّت امتحانًا قد تكون خسارة درجاته سببًا في تراجعه عن المراكز العشرة الأولى في الترتيب النهائي، والذي يعني بدوره إنهاء حلمه بالعمل في محمية الخلايا.. مرتبكةً استأذنتُ المراقب للخروج من القاعة، فسمح لي محذرًا بأن هناك أسئلة ستفوتني، لم أهتم.. وخرجت سريعًا إلى الرواق الممتد أمام القاعة وهاتفت رامي لحثه على الإسراع بالقدوم، غير أن الرنين الآتي عبر سماعة الهاتف استمر دون رد، حاولت مرة أخرى وأنا

أراقب بعيني باحة الطابق الأرضي الملاصقة لبوابة المعهد الرئيسية، لكني لم أجد إجابة منه، بدأ القلق يزداد في داخلي وأنا أنظر إلى الساعة الرقمية الكبرى المعلقة على جدار قاعة الامتحان الخارجي، التي كانت قد تجاوزت وقت بدء الامتحان بخمس دقائق كاملة، وأعدت مهاتفته وأنا أصرخ إلى نفسي: «هيا.. أجب».

لكنه لم يجب في تلك المرة أيضًا، أخرجت زفيري يأسًا، وهممت بالعودة إلى القاعة في خيبة أمل، لكن قبل أن أعبر بابها وجدت هاتفي يصدر رنينه وشاشته تشير إلى اتصالٍ من رامي.. فتحت الخط على الفور وصرخت فيه:

- أين أنت؟ لقد بدأ الامتحان قبل ثمانيَ دقائق.

قال في هلع كبير يصل إلى البكاء:

- إني ما زلت في البيت.. لقد غلبني النوم.. كنت أُذاكر المادة حتى وقت الفجر وغفوت دون أن أشعر.. أرجوكِ أخبريهم أني قادم.

ركضتُ إلى المراقب وقلت والهاتف في يدي:

- سيدي إن رامي في الطريق إلينا.. لقد غلبه النعاس بسبب سهره لمذاكرته المادة.

نظر إلى ساعة الحائط المعلقة على أحد حوائط القاعة، وهزَّ رأسه آسفًا بأن الأوان قد فات.. صرختُ إلى المراقب:

- أرجوك، لم يكن يقصد التأخر.

قال ببرود:

- يوجد وقت مسموح للتأخير.. يتبقى منه ست دقائق فقط.. هيا إلى مقعدكِ وإلا فاتكِ الامتحان أنتِ الأخرى.

كنت أعرف أن رامي يستحيل أن يصل إلينا قبل ربع ساعة على الأقل، وبدا أنه سمع حديث المراقب فوجدته يقول باكيًا:

- أرجوكِ يا ليلى.. افعلي أي شيء.. أرجوكِ لقد تعبت كثيرًا هذا العام.. وخسارتي درجات هذا الامتحان ستدمر كل شيء.

لم أكن أعرف ماذا أفعل، كان الوضع صعبًا للغاية، كنت أعرف أن المراقب لن يسمح له أبدًا باجتياز الاختبار بعد تأخره عن الوقت المسموح به؛ وإلا اتهمه بقية الطلاب المنافسين بالتواطؤ معه، وفي الوقت نفسه كنت أوقن أن ذلك الفتى لم يدخر جهدًا كي يحصد الدرجة العليا في كل اختبار يخوضه ليخطو خطوة إضافية نحو حلمه، وكذلك حلمي بأن يصبح يومًا ما حلقة وصل بيني وبين سوزان، وفي حين كان قلبي يخفق بقوة والمراقب يصرخ فيَّ كي أدلف إلى القاعة وأذهب إلى مقعدي، وجدتُ نفسي أنظر إلى ساعة الحائط التي كانت تشير إلى بقاء أقل من خمس دقائق كي يعتمد المراقب شاشات الطلاب الحاضرين للامتحان والغائبين عنه، وأقول لرامي عبر الهاتف:

- لن يفوتك هذا الامتحان.. أعدك بهذا، أسرع فحسب.

قال صوته متشككًا:

- ماذا ستفعلين؟!

صرخت فيه:

- أسرع فحسب.. أمامنا خمس عشرة دقيقة.

ثم استدرتُ على عقبيّ، وركضتُ مبتعدةً عن قاعة الامتحانات في دهشة كبرى من المراقب، وهبطتُ بكل سرعتي السلالم إلى الطابق الأرضي، وواصلت ركضي نحو البوابة الخارجية حيث كانت خطتي الطارئة التي ومضت في بالي أن أصل إلى لوحة الكهرباء الواقعة على

الجدار المجاور لها وأحاول العبث فيها كي ينقطع التيار عن بناء المعهد بالكامل وعن قاعة الاختبارات وشاشاتها قبل تدوين أسماء الحاضرين؛ ما يعطينا قرابة خمس عشرة دقيقة إضافية قبل أن يعمل المولد الاحتياطي للمبنى، لكني ما إن وصلت منقطعة الأنفاس إلى تلك اللوحة حتى وجدت بابها المعدني مُحكم الإغلاق على عكس ما توقعت، طرقت عليه بقوة محاولةً فتحه وسط دهشة العابرين وأفراد الأمن الذين انتبهوا إليَّ، وبدؤوا يركضون نحوي، ركضتُ بعيدًا عنهم كالمخبولة دون أن أعرف ماذا أفعل، صرت أنا والفتى في مهب الريح.. فجأةً لمحت باب معمل كيمياء الطابق السفلي مفتوحًا.. أسرعت إليه ورجلان من الأمن يهرولان خلفي.. عبرته إلى الداخل.. فلم أجد فيه أحدًا، توقف الرجلان عند الباب ناظرين نحوي بترقب ما أنوي فعله بعدما وقفتُ خلف إحدى الطاولات ممسكةً بيدي فوهة اللهب المُطفأة، التي تتصل قاعدتها بالغاز وأنا أنظر بقوة إلى عيونهما، وفي حين شرع أحدهما في التقدم نحوي.. ضغطتُ بيدي زر الإشعال الذاتي لها، فاشتعل لهيبها، فتوقف عن تقدمه محدقًا إليَّ عندما وجدني أخلع قميصي العلوي وأضعه فوق اللهب لتشتعل به النيران.. قبل أن أقذف به عاليًا وهو مشتعل ناحية جهاز استشعار الحريق المُعلق في سقف المعمل، لتندفع المياه على الفور من فتحات السقف مغرقةً كل شيء من حولي، وتدوِّي صافرات إنذار الحريق في كل مكان، وتنقطع الكهرباء.

***

اصطحبني الرجلان إلى مكتب الأمن بعدما أطفآ القميص المشتعل وأغلقا محابس الغاز عن معمل الكيمياء، في حين كانت حالة الذعر المصاحبة للهرج والمرج قد سيطرت على أروقة وقاعات المعهد بطوابقه المختلفة، لمحتُ بعينيَّ بعض زملائي وهم يخرجون من قاعة

الامتحانات راكضين، لكن سرعان ما بدأ رجال الأمن في طمأنتهم وطمأنة الجميع بأن الحريق قد سُيطِر عليه، نظر بعضهم نحوي في تعجب وأنا أسير برفقة رَجُلَي الأمن بقميصٍ داخلي وشعرٍ غارقين بالمياه، لكني أبعدت عيني عنهم ونظرت إلى الأسفل أمامي، ومع إدراكي أن الامتحان قد أُلغي ولو مؤقتًا.. لم أكن أعرف المصير الذي كنت في الطريق إليه بعد فعلتي الحمقاء.

***

عادت الكهرباء بعد نصف ساعة تقريبًا.. ورفض قائد أمن المعهد إطلاق سراحي للحاق بالامتحان المُعاد، وأصرَّ على خضوعي للتحقيق أمام محققَين من أعضاء هيئة التدريس؛ أحدهما شاب والآخر أكبر سنًا، استمر ذلك التحقيق لأكثر من نصف ساعة، كانت إجاباتي كلها؛ لا أعرف لماذا قمت بذلك، رأى المحقق الشاب أن يستدعي الشرطة بعد إدلاء رَجُلَي الأمن بأقوالهما.. حينذاك خفق قلبي خفقانًا عظيمًا؛ ما هذا الذي فعلته بنفسي؟! ووجدت نفسي أغمغم إليهما باكيةً:

- لا أعرف لماذا فعلت ذلك.. كان رهانًا أحمقَ بيني وبين أحد الزملاء، أرجوكما.. إني مسؤولة عن طفلين يتيمين أحدهما خلية زرقاء.

أصرَّ الرجل على استدعاء الشرطة في حين بدا على وجه الآخر عدم ترحيبه بالفكرة، لكنه واصل صمته.. حتى نطق أخيرًا بنبرة هادئة:

- علينا أن نحمد الله أن النيران لم تصل إلى مواسير الغاز في المعمل وإلا لم نكن هنا في هذه اللحظة.. سنتحقق من أمر أخويكِ بعدها سنتخذ قرارنا الصارم بشأنكِ.

بعد ساعة أخرى بقيتُ خلالها حبيسةً في مكتب الأمن دلف إليَّ المحققان من جديد.. قال الرجل الأكبر سنًا باقتضاب:

- لم أرَ في حياتي فتاة حمقاء مثلك.. سنكتفي بفصلكِ نهائيًا من هذا المعهد.

قلت بصدمة عظيمة:

- ماذا؟! أرجوكَ سيدي، إنَّ دراستي الطبَّ متوقفة على تخرجي في هذا المكان!

هزَّ كتفيه وقال:

- لقد صدر القرار بالفعل ولا تراجع عنه.. إن هذا أفضل لكِ ولإخوتك من استدعاء الشرطة واتهامك بالشروع في إحراق المبنى بالكامل، والذي ستكون عقوبته السجن بكل تأكيد، يمكنك الالتحاق بمكانٍ آخر العام الدراسي القادم.. ستُرسَل أوراقك إلى بيتك عبر البريد خلال الأيام القادمة.

جلست على مقعدي واضعة رأسي بين كفيَّ في حسرة وذهول.. ثم اصطحبني أحد أفراد الأمن إلى خارج المعهد. كان رامي يقف في انتظاري.. أسرع إليَّ عندما رآني وسألني على الفور:

- ماذا حدث؟!

قلت وأنا أعض على شفتيَّ كي أمسك نفسي من البكاء:

- لقد فُصلت من المعهد.

اتسعت حدقتا عينيه غير مصدق، وحاول أن ينطق، لكنه ابتلع كلماته، ثم قال بعد لحظةٍ بنبرة آسفة:

- لقد لحقت بالامتحان بالفعل وحققت مرادي منه.. لكنني لم أكن أتخيل أن تضحي بمستقبلك من أجل هذا.

فرَّت دمعة من عيني إلى وجنتي فمسحتها سريعًا، ثم قلت بمرارة شديدة:

- تذكر فحسب أنك تدين لي بدينٍ ليس هينًا.

- لم أرَ في حياتي فتاة حمقاء مثلك.. سنكتفي بفصلكِ نهائيًا من هذا المعهد.

قلت بصدمة عظيمة:

- ماذا؟! أرجوكَ سيدي، إنَّ دراستي الطبّ متوقفة على تخرجي في هذا المكان!

هزَّ كتفيه وقال:

- لقد صدر القرار بالفعل ولا تراجع عنه.. إن هذا أفضل لكِ ولإخوتك من استدعاء الشرطة واتهامك بالشروع في إحراق المبنى بالكامل، والذي ستكون عقوبته السجن بكل تأكيد، يمكنك الالتحاق بمكانٍ آخر العام الدراسي القادم.. ستُرسَل أوراقك إلى بيتك عبر البريد خلال الأيام القادمة.

جلست على مقعدي واضعة رأسي بين كفيَّ في حسرة وذهول.. ثم اصطحبني أحد أفراد الأمن إلى خارج المعهد. كان رامي يقف في انتظاري.. أسرع إليَّ عندما رآني وسألني على الفور:

- ماذا حدث؟!

قلت وأنا أعض على شفتيَّ كي أمسك نفسي من البكاء:

- لقد فُصلت من المعهد.

اتسعت حدقتا عينيه غير مصدق، وحاول أن ينطق، لكنه ابتلع كلماته، ثم قال بعد لحظةٍ بنبرة آسفة:

- لقد لحقت بالامتحان بالفعل وحققت مرادي منه.. لكني لم أكن أتخيل أن تضحي بمستقبلك من أجل هذا.

فرَّت دمعة من عيني إلى وجنتي فمسحتها سريعًا، ثم قلت بمرارة شديدة:

- تذكر فحسب أنك تدين لي بدينٍ ليس هيِّنًا.

6

وصل ملف أوراقي عبر البريد بعد ثلاثة أيام من قرار فصلي، أدركتُ وأنا أتصفحه سريعًا أنَّ المحقق الأكبر سنًّا واصل رأفته بي بعدما وجدتُ أن سبب فصلي المدوَّن رسميًا في الأوراق هو كثرة تغيبي عن المعهد، وليس إشعالي الحريق عمدًا في إحدى قاعاته. على كل حال انتهت علاقتي بذلك المكان منذ ذلك الحين وصارَ عليَّ الالتحاق بكليةٍ أو معهدٍ آخر مع بداية العام الدراسي الجديد.

في تلك المدة استمرت العلاقة بيني وبين رامي هاتفية لا أكثر، كانت معظم محادثاتنا تدور حول الكلية التي سأرتادها مستقبلًا، أمَّا سوزان ويونس فلم أخبرهما بالأمر في البداية، إلى أن استقر بي تفكيري إلى اختيار كلية الحقوق، فحدَّثتهما عن نيتي الالتحاقَ بها رغبةً مني في البعد عن المجال الطبي بعد ثبوت فشلي في دراسته خلال سنوات المعهد.. وقد كان. التحقت بكلية الحقوق في المدينة نفسها مع بداية عامي الثالث والعشرين لتتحول حياتي من الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية والتشريح إلى القوانين الجنائية والمدنية والعقوبات الخاصة بمُدد المؤقتات.

مرَّ العام الدراسي الأول هادئًا لا جديد فيه سوى أنَّني صرتُ أكثر التزامًا بالدراسة راغبةً في تعويض سنوات المعهد الفائتة، ثم استحال

الأمر إلى شغف بالدراسة نفسها مع بدء الجانب العملي في النصف الثاني من ذلك العام، والذي أتاح لي حضور جلسات المحكمة العليا في المدينة بصفتي طالبة متدربة، وفي حين كان زملائي يتذمرون من إجبارهم على ذلك الأمر.. كنتُ أجده ممتعًا للغاية، خاصةً مع ولعي بمراقبة وجوه المذنبين بعد حكم القضاة بإضافة سنواتٍ أكثر لمدد مؤقتاتهم أو حرمانهم الإنجابَ.

تعوَّد رامي في تلك الآونة المجيءَ إليّ في نهاية بعض الأيام لنتمشى معًا إلى محطة الحافلة كعادتنا في الأيام الخوالي، وأحيانًا كانت تأخذنا أقدامنا فنتجوَّل في ميادين المدينة مساءً لنشاهد عبر شاشاتها العملاقة التابعة لبنك التخصيب، صور الخلايا المنضمات حديثًا للمحميات رغم أن الصور نفسها كانت تُعرض على شاشات مؤقتاتنا على مدار اليوم، ولمرة واحدة خلال ذلك العام ذهبتُ أنا إلى معهده للقائه، غير أنّي استأتُ كثيرًا عندما رأيت تلك النظرة الكارهة لي في عيون منافسيه بعدما كنت من فوَّت عليهم الفرصة الحاسمة لتخطيه، فأخبرتُه بعدم رغبتي في المجيء مجددًا إلى ذلك المكان، وقد تفهَّم ذلك.

قُبيل نومي كل ليلة كنتُ أدوِّن في دفتري ما يحدث في قاعة المحاكمات، هذا نالَ عامًا إضافيًّا إلى مؤقته، وهذه نالت عامين، وهذا حُرِم هو وزوجته الإنجابَ إلى آخر العمر.. وفقدت الزوجة وعيها في قاعة المحكمة، وهذا شابٌ بدا عليه وعلى عائلته الثراء ولم يتأثر وجهه على الإطلاق بحكم القاضي بحرمانه الإنجابَ، كان واضحًا أنَّه يمتلك من المال ما يستطيع به شراء فرصة إنجاب من مؤقت شخص آخر مهما كان سعرها. كان ذلك التدوين يساعدني كثيرًا على شغل وقتي في البيت بعدما بدأتُ أتجنَّب النقاش مع أخويَّ بقدر المستطاع خوفًا من فتح موضوع رحيل سوزان الزاحف إلينا بعد أقل من عام، ومع مضي الأيام

أكثر فأكثر صرتُ أتفنَّن في الهرب بأي طريقةٍ ممكنة في كل مرة أراد أحدهما الحديث عن ذلك الأمر، إلَّا أنّي وجدتُ يونس يدلف إلى غرفتي ذاتَ مساء، وكنَّا قد صرنا على بُعد سبعة أشهر فقط من اليوم المُنتظر، وسألني مقتضبًا بعدما سكت بعض الوقت:

- لو خُيِّرتِ بيني وبين سوزان.. من ستختارين؟

تركتُ القلم الذي كنت أمسك به وأغلقت دفتري، وقطبت إليه جبيني مستفهمةً بعدما لم أفهم مقصده، فتابع بنبرة حزينة:

- هذا ما أشعر به الآن، بعد سبعة أشهر سأُخيَّر بينكِ وبين سوزان، إنّي أحب سوزان كثيرًا.. ربما أكثر منكِ، لكنكِ تبقين أختي أيضًا.

تنهدتُ راحةً بعدما فهمتُ ما يرمي إليه، أخيرًا فهم الفتى ماهية الأمر، وقلت:

- ربما تخسرني إن أردت فعل ما يدور في بالك، لكنَّك لن تربح سوزان أبدًا.

هزَّ رأسه بنوع من الاستسلام، وقال:

- نعم، أعرف ذلك.

حدقت إليه مستغربةً من نبرته، وسألته غير مصدقة:

- هل صرتَ ترى أخيرًا أنَّ علينا التسليم بالأمر؟!

أومأ إيجابًا زامًّا شفتيه، وقال بنبرة أكثر حزنًا:

- نعم، لقد كبرتُ بما فيه الكفاية.. وصرتُ أعرف جيدًا واقع ما نحن فيه، كنتِ محقة عندما قلتِ إنَّه توجد أمور علينا أن نرضخ لها وإن لم تَرُق لنا.

وأردف بعد لحظة من الصمت:

- مثلما استسلمتُ لفكرة موت أبي وأمي قبل أكثر من ثلاثة أعوام، صرتُ أُدرِّب خيالي بقوة كي يفكر بأنَّ سوزان كانت برفقتكم في أثناء الحادث ولم تنجُ هي الأخرى.

في الحقيقة اندهشت من تغيُّر موقفه المفاجئ؛ لكن هكذا البشر جميعهم، ما إن ينضجوا ويفهموا معنى رؤية الأمور من كل الزوايا حتى تصبح كثيرٌ من أفكارهم قابلةً للتغيير، وإن أشفقتُ عليه داخل نفسي مما قال. كنتُ أكثر من يعرف كم يحب هذا الفتى أختنا الوسطى وأنَّه مهما أقنع نفسه بذلك الحديث المتعلق بحادث أبي وأمي فلن يجد الأمر مثلما يفكر فيه أبدًا، إنَّ موت الأحبة أهون كثيرًا من بقائهم أحياء بعيدين عنَّا. وفي أثناء تفكيري فيما قال، وجدته يقول:

- فكرتُ في أمرٍ ما، وأريدُ أن أعرضه عليكِ.

سألته:

- ما هو؟

أجابني:

- منذ مدة وأنا أقرأ عن مصير الخلايا الزرقاء بعد انتهاء مدة عملهن في المحميات، لم أصادف مقالًا يتحدث عن خلية ناجية، أو بالأحرى خلية عادت إلى أهلها بعد انتهاء مدة خصوبتها.

قلتُ آسفةً:

- نعم أعرف ذلك، ستنتهي صلتنا بسوزان تمامًا يوم بلوغها السادسة عشرة، ستتولى وزارة الإنجاب كل شيء فيما بعد.

وأمسكتُ عن الكلام لحظةً قبل أن أقول:

- حتى مماتها.

وتابعتُ مصبِّرةً نفسي وإياه:

- يقولون إنَّ حياتهن السرية في المحميات بعد انتهاء مدة خدمتهن مثل الحياة في الجنة، ستستمتع بكل شيء جميل هناك، ولا بد أنَّها ستحظى بصحبة من مثيلاتها، لطالما خلقت الظروف الصعبة أعز الأصدقاء.

لم يُعِر ما قلته اهتمامًا، وقال:

- إنّي أكثر من يعرف الفتاة، لن تكون سعيدة أبدًا ما دامت تشعر بخذلاننا لها.. وإن مرَّ على ذلك عشرات السنين، لذلك فكرتُ أن نجعلها تنسانا.

سألته متعجبة:

- كيف؟!

قال:

- عليها أن تفقدنا هي.

نظرتُ إلى عينيه وقلت:

- لا أفهمك.

قال بنبرة جادة:

- علينا أن نموت في مخيلتها، مثل أبي وأمي، لنصبح في عقلها ذكرى لا أكثر.

وتابع:

- إنَّ هذا هو الحل الوحيد الذي سيساعدها في تجاوز أمر ابتعادها عنًا، أفكر في تدبير حادث مزيف لنا.. تقتنع من خلاله تمام الاقتناع بموتنا، لكن الفكرة لا تزال غير مكتملة في رأسي.

نظرتُ نحوه بطرف عيني دون أن أنطق بكلمة، لا أعلم إن كان الفتى قد قرأ أوراق عصفي الذهني التي كنت أخفيها مع أوراق رعاية سوزان أم حدث ذلك من قبيل توارد الأفكار، لطالما فكرتُ من خلال تلك الأوراق في أمر شبيه بذلك، أي نعم لم تكن نفس فكرة الحادث المزيف الذي نموت من خلاله في مخيلتها، لكنّي كنت أفكر على الدوام في شيء نتمكن من خلاله إحداث إصابة غير قاتلة للفتاة تبعدها في أثناء فرز الخلايا عن محمية العاصمة؛ أكثر المحميات تأمينًا وتدقيقًا، ظنًّا مني أنّ وجودها في أي محمية أخرى قد يزيد فرص تواصلنا معها عن طريق رامي، ثم فكرتُ في أنه على الرغم من تشابه الفكرتين فإن هدفيهما يختلفان تمامًا، كان هدفي هو استمرار التواصل بيننا وبين سوزان وإن كانت فرصته ضئيلة للغاية، في حين كان هدف يونس وأد أي اتصال بيننا وبين الفتاة بعد اليوم الذي ترحل فيه رأفةً بها.

نظر نحوي ينتظر مني ردًّا بعدما استغرقتُ في الشرود، فقلت:

- هل أنتَ جاد في هذا الأمر؟

هزَّ رأسه إيجابًا وقال:

- نعم.

ضممت شفتيَّ، ثم قلت:

- كنتُ أفكر في فكرة تشبه فكرتك؛ إحداث إصابة لسوزان قبيل رحيلها تجعلها تبتعد عن محمية العاصمة من أجل إمكانية تواصلٍ قد تحدث مستقبلًا من خلال شخص مرشح بقوة للالتحاق بالعمل في إحدى المحميات، لكن فكرتك تروقني أيضًا، أظن أنَّ اعتقادها بأنَّنا رحلنا عن هذا العالم سيكون أفضل لها من اعتقادها بتخلينا عنها، ما رأيك أن نمسك العصاة من المنتصف؟

أن ندبّر حادثًا تُصاب من خلاله ويمنحنا في الوقت ذاته موتًا مزيفًا، إن فشلت الخطة بتزييف موتنا تكون فكرتي ما تزال سارية حتى إشعار آخر.

سكت لحظةً مفكرًا، ثم هزَّ رأسه إيجابًا وقال:

- ربما يساعدنا في ذلك الأمر السيد شاهين.

قلت:

- لا، إنّي أعرف ذلك الرجل جيدًا، لن يكون همه الحالي سوى مرور السبعة أشهر القادمة في سلام، ولن يريد أن يورّط نفسه في أي تقصير قُبيل تقاعده.

ونهضتُ من موضعي وقلت:

- علينا أن نجد خطة محكمة بأنفسنا، وإلّا كانت النتيجة عكسية تمامًا، ولن تسامحنا سوزان أبدًا على فعلتنا، دعني أفكر في تفاصيلها فحسب وسأخبرك ما علينا فعله بالضبط في أقرب وقت.

أومأ برأسه إيجابًا بصمت.

***

في تلك الليلة أخرجت أوراقي القديمة المُخبّأة في خزانة الثياب، وجلست إلى مكتبي أنظر في التفاصيل التي وضعتها فيها قبل أكثر من عام، وتدور في رأسي فكرة يونس الطارئة، ثم بدأت أرسم على ورقة بيضاء جديدة بعض الخطوط بعشوائية؛ لعلها تساعدني في التفكير.. حتى غلبني النعاس دون أن أصل إلى شيء. في الأيام التي أعقبت ذلك اليوم.. سيطرت الفكرة على كل تفكيري؛ في أثناء ركوبي الحافلة ذاهبةً إلى المدينة أو عائدةً منها، خلال المحاضرات والمحاكمات، خلال مشيي

مع رامي من غير أن أصرّح له بشيء، وكلّما سألني يونس نهاية كل مساء:

- هل وصلتِ إلى شيء؟

أهزُّ رأسي إليه نافيةً، وأدلف إلى غرفتي لأخرج أوراقي وأرسم مزيدًا من الخطوط فيها، وأظل أحدق إليها حتى وقت متأخر من الليل، قال الفتى بعدما مرّت ثلاثة أسابيع دون أن أصل إلى كيفية تنفيذ فكرته:

- سنلغي فكرة إصابة سوزان، وسأذهب إلى السيد شاهين.

أصررتُ على رفض ذلك الأمر، وطلبت منه أن يمهلني المزيد من الوقت، خاصةً أنَّ لدينا قُرابة ستة أشهر متبقية، فوافق بغير اقتناع، ثم حدث الأمر أخيرًا! كنتُ نائمة في سريري تلك الليلة عندما خطرت في بالي فجأةً بعض التفاصيل التي قد نتمكن من استعمالها، ففتحت عيني على الفور، ونهضتُ من أسفل غطائيَ مسرعة إلى مكتبي، وفتحتُ دفتر تدويني للمحاكمات اليومية وأنا أهمس إلى نفسي في حماس: «أحتاج إلى طبيب، وسائق محترف، وسيارة إسعاف».

وبدأت أنقر بيدي على سطح المكتب بتوتر وأنا أُقلِّب أوراق الدفتر، لا أعرف كثيرًا عن حياة أولئك الأشخاص الذين قضت المحكمة العليا بحرمانهم الإنجابَ، لكن لا بد أنَّ نظام المحكمة الرقمي يعج بالكثير من التفاصيل عنهم، ولا بد أنّي سأجد بينهم الطبيب والسائق اللذين خطرا على بالي قبل قليل، وهمستُ إلى نفسي من جديد وأنا واضعة رأسي بين كفيَّ مفكرةً: «إذن، هذه هي الخطوة الأولى، ملفات القضايا في نظام المحكمة الرقمي، ومن ثَمَّ سيأتي كل شيء».

***

في الصباح التالي توجهتُ مباشرة إلى مبنى المحكمة العليا، قدمتُ بطاقة هويتي المُدوَّنة فيها صفتي؛ طالبة متدربة، إلى موظف حفظ ملفات القضايا القديمة، الذي كان يجلس إلى مكتبه منشغلًا للغاية في شاشة أمامه، وأخبرته عن رغبتي في الاطلاع على بعض القضايا المحكوم فيها بحرمان الإنجاب، لاحتياجي إليها في الدراسة، لم يهتم الرجل بما قلته، وأشار دون أن ينظر إليَّ نحو بعض الشاشات المتراصَّة في القاعة الممتدة أمامه، وقال:

- أمامكِ ساعتان حتى انتهاء وقت العمل، ابحثي عمًّا تشائين.

التقطتُ بطاقة هويتي منه وأسرعتُ إلى شاشة تقع في ركن القاعة البعيد، ونقرتُ بإصبعي في حقل البحث الظاهر عليها مُدوِّنةً كلمات بحثي؛ «حرمان الإنجاب»، فُوجئت بظهور قائمة أسماء مرقمة تحوي أكثر من خمسة آلاف اسم نالوا حكمًا بحرمان الإنجاب، وسرعان ما أُصبت بالصدمة بعدما لم أجد وسيلةً للبحث عن ماهية وظيفة المذنب؛ ما كان يعني ضرورة فحصي ملفَّ كل واحد منهم على حِدة لأتبين وظيفته، لكنِّي تنهدت وهززت رأسي إيجابًا وأنا أهمس إلى نفسي: «من أجلكِ يا سوزان، ومن أجل يونس».

وبدأت أفحص الأسماء وملفاتها واحدًا تلو الآخر، الأسماء المئة التي فحصتها في ذلك اليوم لم يكن بينها أحد قد يساعدني فيما أخطط له، كان أغلب أصحابها حِرفيين وعُمَّال مصانع وعاطلين عن العمل. في الأيام التالية أكملت ذهابي إلى تلك القاعة لفحص المزيد من ملفات الأسماء، وخلال اليوم الثاني والثالث والرابع كنت قد فحصت أكثر من ثمانمئة ملف رقميّ دون أن أصل إلى نتيجة، مع حلول اليوم الخامس دوَّنتُ أول الأسماء في دفتري؛ «هاشم عدلي»، سائق محترف كان عمره سبعة وعشرين عامًا وقت صدور الحكم بحقه؛ بحرمانه الإنجاب قبل

خمسة وعشرين عامًا، يعيش في الحي الشرقي من المدينة، حسبت عمره في ذهني وقلت لنفسي: «لم يعد شابًا، لديه اثنان وخمسون عامًا الآن»، وأكملت قراءة ملفه باحثة عن أي وسيلة للتواصل معه فلم أجد، لعنة الله على كسل الموظفين العموميين، لم تُحدَّث البيانات منذ كُتبت للمرة الأولى، ولم تذكُر إن كان لا يزال مُقيمًا في العنوان نفسه الذي كان يقيم فيه وقت صدور الحكم أم رحل إلى مكان آخر، والأهم إن كان ما يزال على قيد الحياة أم لا، وباستياء شديد أكملت بحثي في بقية الأسماء. بعد ثمانية أيام كنت قد دونت في دفتري بيانات سبعة عشر اسمًا يحملون وظيفة سائق محترف، وفي اليوم الرابع عشر من بداية بحثي.. عثرتُ أخيرًا على اسم طبيب؛ «ريمون نشأت»، طبيب يعيش في قرية مجاورة للمدينة اسمها «قِبارة»، نال حرمان الإنجاب قبل اثني عشر عامًا؛ بعد قيادة سيارته مخمورًا وصدمِها بطفلة في السادسة من عمرها منهيةً حياتها، قضى القاضي بحرمانه الإنجابَ وانتقال فرص إنجابه إلى أسرة الطفل المتوفية، دوَّنتُ اسمه وعنوانه سريعًا، وانتقلت إلى الاسم الذي يليه.

في الأيام التالية واصلت بحثي عن مزيد من الأطباء والسائقين، فلربما يرفض مَن وجدتهم عرضي الذي سأقدمه إليهم، إلى أن اندفع الأدرينالين في عروقي ليصيبني بالاضطراب كليًا عندما وقعت عيناي فجأة على ذلك الاسم في القائمة؛ «شاهين سعد الشلبي»، وهمست إلى نفسي بتشكك: «معقول؟!».

وعلى الفور مددتُ إصبعي لأنقر بها على ذلك الاسم. «أوه»، قلتها لنفسي وأنا أعود بظهري إلى مسند المقعد بعدما ظهرت أمامي صورةٌ شابة للسيد شاهين قائد مخفر قريتنا، ومكتوب في خانة الحكم الصادر قبل واحد وثلاثين عامًا: «حرمان الإنجاب للتسبب في قتل ثلاث خلايا

زرقاء في إحدى دور رعاية الخلايا اليتامى في أثناء نوبة حراسته»، وأردفتُ وأنا أتذكر بقاءه وحيدًا طوال سنوات خدمته في قريتنا: «لذلك لم تظهر له أسرة قط!». بحثت عن أي تفاصيل أخرى تخص قضيته، إلا أنني لم أجد؛ فأغلقت الشاشة وحملت دفتري وغادرت عائدة إلى قريتي.

عندما أوت سوزان إلى فراشها ليلًا، ذهبتُ أنا إلى غرفة يونس، سألني على الفور عندما وجدني أدلف إليه:

- هل لديكِ أي جديد؟

قلتُ:

- نعم، صارت لديَّ فكرة شبه مكتملة.

قال متحمسًا:

- ها، ما الذي تنوين فعله؟

قلتُ:

- طرأت على بالي خطة أعمل عليها منذ ثلاثة أسابيع، تحتاج هذه الخطة إلى سائق محترف، وعربة إسعاف مُؤمَّنة جيدًا من الداخل ضد الصدمات، وطبيب يسعف أي إصابة لدينا، ويحقن سوزان بعقار يفقدها وعيها، ثم يكون هو من يعلن للفتاة موتنا فيما بعد.

قال الفتى:

- ظننت حين طرحتُ فكرتي أنَّ الأمر سيتم هنا في بيتنا.

هززتُ رأسي نافية وقلت:

- لا أعتقد أنَّ الأمر سينجح هنا، سيتدخل رجال نوبة الحراسة الذين يقفون في الخارج سريعًا بمجرد أن تشعر سوزان بالقلق وتتسارع علاماتها الحيوية.

وأردفتُ:

- لقد عكفت في الأيام السابقة على البحث عمن نحتاج إليهم، ووجدت طبيبًا بالفعل وخمسة وعشرين سائقًا محترفًا، يمكننا اختيار واحد منهم، لم أجدهم بالمعنى الحرفي، لكنّي سأذهب إليهم من أجل مساعدتنا في إتمام هذا الأمر، وسأعمل على أن يوفر السائق الذي نختاره عربة الإسعاف التي نحتاج إليها ولو كلّفه الأمر أن يسرقها.

تساءل متعجبًا:

- وكيف ستقنعينهم؟

قلت:

- لم أفكر يومًا في اقتنائي خمسةَ أطفال، إن الطبيب والسائق اللذين سنختارهما محروما الإنجاب، أنوي أن أقايض فرصتَي إنجاب مما لديَّ معهما مقابل ما سيقومان به.

نظر إليَّ مستغربًا فاغرًا فاه، ثم قال:

- ماذا؟

هززتُ رأسي وقلت:

- سيكون الأمر خطِرًا، وقد يُعرض أحدهما للمحاكمة إذا فشل، كما أنَّ الغاية التي ننشدها تستحق ذلك المقابل وأكثر، يكفيني راحة الضمير التي سأشعر بها مع ظن الفتاة عدم تخلينا عنها.

وأكملتُ:

- يبقى لديَّ أمران يشغلان تفكيري.

سألني سريعًا:

- ما هما؟

قلتُ:

- الأول: أنّي كراعيةٍ لسوزان سأموت في مخيِّلتها فقط، لا في الأوراق الحكومية أمام البنك، لذلك لا بد أن يتم الأمر قبل موعد رحيلها بيومٍ أو اثنين على الأكثر، أكونُ قد أنهيت أوراق تسليمها وأخليتُ مسؤوليتي عنها، خاصةً أن البنك يتيح إنهاء تلك الأوراق خلال الأسبوع الأخير من فترة الرعاية مع السماح ببقاء الفتاة إلى جانب أسرتها حتى آخر ساعة لها، قبل ذلك الحين ستدرك أنَّ الأمر لعبة ما دام البنك لم يعين راعيًا بديلًا لها، سنجعلها تتلقى صدمة موتنا.. وقبل أن تفيق منها.. يكون السيد شاهين قد سلَّمها إلى البنك، سيتطلب الأمر خداع ذلك الرجل أيضًا، إنَّه آخر شخص ستراه من قريتنا، ولا بد أن يبدو أمامها مقتنعًا تمامًا بأمر موتنا ولو مؤقتًا.

وأخرجتُ زفيري ثم أردفت:

- الأمر الثاني: أنه بمجرد علم السيد شاهين بإنهائي أوراق تسليم سوزان قبل موعد رحيلها الرسمي بيومين أو ثلاثة.. سيشدد رقابته عليها لكونه صار المسؤول الأوحد عنها خلال الأيام المتبقية، لذا يجب أن نفكر في حيلة كبرى نقنعه من خلالها هو ورجال حراسته باصطحاب سوزان معنا إلى الخارج في الموعد الذي نحدده لحادثنا المنتظر.

صمت يونس مفكرًا ثم قال:

- لماذا لا نجعل حرصهم على تسليمها للبنك في أحسن حال سلاحًا لنا؟

وأضاف بعد لحظة أخرى من الصمت:

- لا تقلقي بهذا الشأن، إنّي أعرف شخصًا يثق بي إلى حد الموت، سيساعدنا في ذهاب الفتاة معنا إلى الخارج في ذلك اليوم.

سألته على الفور بترقب:

- من؟

قال:

- سوزان نفسها.

7

سألته بتعجب:

- سوزان؟!

قال:

- نعم، إنَّ الفتاة لا تثق بأحد مثلما تثق بي، وستنفذ ما سأخبرها به دون تفكير، اهتمي أنتِ فقط بأمر الطبيب والسائق واتركي لي هذا الشأن.

أومأتُ برأسي موافقةً.

***

بعد ثلاثة أيام استأجرتُ سيارة أجرة وتوجهت إلى قرية «قِبارة»، كان قلبي يخفق سريعًا وأنا في الطريق دون أن أفهم السبب، حاول السائق أن يختلق بلطفٍ بعض المواضيع للحديث، لكنِّي آثرت الصمت والتحديق إلى دفتري المُدوَّن فيه اسم الطبيب وعمره والجريمة التي ارتكبها قبل اثني عشر عامًا.

بعد أربعين دقيقة من انطلاق السيارة عبر طريق ترابي، أخبرني السائق أننا على وشك الوصول، فأغلقتُ دفتري ووضعته في حقيبتي، وانتبهت إلى القرية التي لاحت في الأفق. عندما انعطفت السيارة إلى

مدخلها الرئيسي سألتُ أحد الصبية المارِّين عن اسم الطبيب، استغرق في التفكير ثواني قبل أن يقول إنَّه لا يعرفه، أكمل السائق المُضي قدمًا بالسيارة ثم توقف مجددًا بعد مئتي متر تقريبًا، وسأل بنفسه سيدة عن اسم الطبيب الذي قلته للتو، فقالت إنَّ منزله يقع في الجانب البعيد من القرية، بجوار مسجد ذي مئذنتين عاليتين، شكرها السائق وتحرك بنا في الاتجاه الذي أشارت نحوه، بعد سؤال رجل آخر.. وصلنا أخيرًا إلى البيت المقصود، هبطتُ من السيارة إلى البيت المكون من طابق واحد يحيطه سور منخفض من الألواح الخشبية، ثم عبرت بوابة ذلك السور وتقدمت إلى باب البيت الرئيسي وطرقته، تفاجأتُ بطفلة صغيرة في السابعة أو الثامنة من عمرها تفتح الباب، سألتها:

- هل السيد ريمون موجود؟

أومأت إيجابًا، صاح صوت يناديها من الداخل:

- مَن الطارق يا چينا؟

تركتني ودلفت جريًا ناحية مصدر الصوت، وبعد ثوانٍ وجدته يظهر أمامي؛ رجل في أواخر الثلاثينيات، أصلع الرأس وأشعث اللحية، تمتلك عيناه حدة غير طبيعية جعلت الاضطراب ينتابني بقوة.. حتى إنِّي لم أجد كلمات للنطق بها، سألني:

- من أنتِ؟

قلت بتوتر:

- السيد ريمون، أليس كذلك؟

قال:

- بلى.

قلت:

- أريدكَ في أمر يخص حرمانك الإنجاب، هل يمكننا التحدث لدقائق؟

حدَّق إليَّ باستغراب لثوانٍ، وألقى نظرة عابرة إلى السيارة التي كانت تنتظرني خارج سور بيته، ثم أشار إليَّ كي أدلف إلى ردهة بيته، وبمجرد أن جلست على أحد المقاعد استأذنني كي يغيب لبعض الدقائق. عندما عاد وجدته قد بدَّل ثيابه، قال وهو يجلس على المقعد المقابل لي:

- هل أنتِ من بنك التخصيب اللعين؟

قلت:

- لا.

وتابعتُ وأنا أشير إلى الطفلة التي كانت تفترش الأرض تلاعب دميتها:

- ظننتُ أنَّكَ حُرمتَ الإنجاب!

قال:

- إنَّها ليست ابنتي، إنَّها ابنة أختي.

تنهدتُ ثم قلت:

- هل ما زلتَ تُمارس الطب؟

سألني في ارتياب:

- ماذا تريدين؟

قلت:

- أريد إجابة منكَ وسأخبرك بكل شيء.

قال بنبرة حادة:

- أخبريني ماذا تريدين وإلَّا فلتعودي إلى حيثما جئتِ.

قلت:

- عثرت على اسمكَ بين أسماء الرجال المحرومين الإنجابَ، كنت أبحث عن طبيب يساعدني في أمر ما بشرط أن يكون عاملًا في أحد المستشفيات الحكومية، لم أجد إلا اسمك بين خمسة آلاف اسم، ولم أستطِع معرفة أي تفاصيل أخرى عنك غير عنوانك، والجامعة المحلية التي تخرجت فيها.

قال:

- أي نوع من المساعدة؟

قلت:

- لديَّ أخت خلية زرقاء، ستغادرنا إلى محمية الخلايا بعد ستة أشهر، نريد أن نخفف عليها وطأة فراقنا.. سنختلق حادثًا كبيرًا تعتقد من خلاله أنَّنا قُتلنا، لن يقتصر الأمر على خداعها فحسب، بل سيشمل أيضًا خداع قائد مخفرنا ليومين لا أكثر، تكون الفتاة قد رحلت.

قال:

- إن المدينة فيها عدد كبير من الأطباء.. يمكن لأي منهم أن يقوم بهذا.

قلت بجدية:

- لا أعتقد أنَّ أحدهم سيريد التورط في أمر يخص خلية زرقاء.

وتابعتُ وأنا أنظر في عينيه:

- خاصةً أننا نفكر في إصابة الفتاة خلال ذلك الحادث بإصابة غير قاتلة تبعدها عن محمية العاصمة.

حدَّق إليَّ بعينيه الحادَّتين، فأكملتُ:

- إنّي أعرف الكثير عن كفاءة خريجي طب مدينتنا، ومن بينهم جميعًا تظل أنت الخيار الأمثل، ليس لديك شيء لتخسره.

واصل تحديقه إليَّ، لا أعلم إن كان قد تذكر الطفلة التي تسبب في قتلها سابقًا وحُرم الإنجابَ في إثر ذلك أم كان يفكر في العقوبة التي تنتظره إن وافق على ما أقوله وأخطأ؟ فسارعت مُتابعةً:

- إنّي أومن تمامًا أنَّه على قدر خطر المهام لا بد أن تكون قيمة المكافآت، إنّي أمتلك خمس فرص للإنجاب، منها ثلاث فرصٍ للإنجاب الفوري، لا أمانع في إعطائك واحدة منها إن ساعدتني في إتمام ذلك الأمر.

شعرتُ بتورد وجهه المفاجئ وكأنَّه لم يتوقع للحظة أن أنطق بما قلته، وسألني بنبرة مغايرة على الفور:

- أتعنين ما قلتِه؟!

قلت:

- نعم، سأعقد معك هذه الصفقة سيدي، تقتنع الفتاة بموتي أنا وأخي وتُصاب إصابة طفيفة، وستنال فرصة الإنجاب الفورية مني، والآن في أي مستشفى تعمل؟

قال بحسرة مترقبًا رد فعلي:

- لقد تركت الطب من منذ أعوام.

صحتُ فيه:

- ماذا؟!

قال مستدركًا بتوتر شديد:

- لكنَّ زوجتي لا تزال تعمل، إنَّها طبيبة طوارئ بارعة في مستشفى جنوب المدينة، يمكنها أن تقوم هي بالأمر بدلًا مني، إنَّها عنيدة

بعض الشيء.. لكن دعي الأمر لي، ستوافق، إنَّها في العمل الآن، وستأتي إلى البيت صباح الغد.

قلتُ بمسحة من خيبة الأمل، وأنا أنهض:

- حسنًا، سأزوركما قريبًا مرة أخرى تكونان قد حسمتما أمركما.

ودوَّنتُ له رقم هاتفي، وأنا أردف:

- أو ربما تهاتفني ما إن تحددا قراركما.

وغادرت.

***

في بعض الأحيان يكون إجبارك على خيار واحد أفضل من وجود عدة خيارات تجعل حيرتك أضعافًا مضاعفة، كان ذلك الأمر ينطبق تمامًا على خطوتي التالية الخاصة باختيار السائق المناسب للمهمة، خمسة وعشرون سائقًا كانت أسماؤهم وعناوينهم مُدوَّنة في دفتري، إن عرضتُ خطتي على كل واحد منهم وانتظرتُ رده لصار الأمر حديث عائلات كثيرة، وربما أجد نفسي سجينة قبل أن أعود إلى بيتي.

في اليوم الذي عدتُ فيه من زيارة الطبيب ريمون، أعدت تدوين أسماء السائقين من جديد على كروت ورقية صغيرة، وأسفل كل اسم كتبت عمره والمكان الذي كان يعمل فيه سابقًا، ثم وضعت الكروت على سطح المكتب أمامي في أربع مجموعات حسب العمر الحالي لهم، ستة منهم في العشرينيات، وتسعة في الثلاثينيات، وأربعة في الأربعينيات، وستة في الخمسينيات، فكرت في أنَّ أصحاب العشرينيات والثلاثينيات ستكون لديهم روح للمغامرة أكثر من أصحاب الأربعينيات والخمسينيات، لكن في الوقت ذاته.. كانت المجموعتان الأخيرتان قد ذاق أفرادهما مرارة حرمان الإنجاب بما فيه الكفاية، وسيسهل إقناعهم بالمقابل الذي أقدِّمه

حتى وإن كانت روح المغامرة أقل لديهم من المجموعتين الأصغر سنًا. بعد تفكير طويل وحيرة كبيرة نحَّيت كروت العشرينيات والثلاثينيات جانبًا، وركزت نظري على العشرة كروت المتبقية، ثم نحَّيت أصحاب الخمسينيات جانبًا وأبقيت على كروت الأربعينيات فحسب؛ ظنًا مني أنَّ ذلك منتصف العصا الذي كان عليَّ الإمساك به، ثم عدت إلى دفتري مرة أخرى وراجعت الأسباب التي حُرِم الأربعة بسببها الإنجابَ؛ الأول: نال حكمًا بالسجن خمسة عشر عامًا وحرمان الإنجاب لإدانته باغتصاب طفلة في العاشرة، أصابني الشعور بالغثيان والاشمئزاز بمجرد التفكير فيما اقترفه، ومزَّقتُ الكارت الخاص به وألقيته جانبًا، الثاني: اشترك مع ثلاثة آخرين سائقًا في جريمة سطو على أحد بنوك الأموال، مات خلالها فرد أمن؛ نال حكمًا بعشر سنوات وحرمان الإنجاب، الثالث: أدَّت قيادته المتهورة إلى قتل زوجته وطفلته الوحيدة، صنَّفها القاضي جريمةَ قتل غير متعمدة، وأعطاه حكمًا بحرمان الإنجاب. تذكرت أبي بمرارة، ربما لو نجا من الحادث وأثبتت التحاليل تعاطيه ذلك المخدر لحُرِم الطفلَ الإضافيَّ الذي نِلته بدلًا منه فيما بعد، الرابع كان أصغرهم سنًا، عمره الآن واحد وأربعون عامًا، نال حكمًا بخمسة عشر عامًا وحرمان الإنجاب، لتسببه في قتل ملاكم كان يصارعه في حلبة الملاكمة الحرة بعدما غشَّ الجميع ووضع قطعةً رقيقةً من الفولاذ في قفازه، واكتُشف الأمر مع سقوط خصمه صاحب السبعة عشر عامًا جثةً هامدةً قبل انتهاء المباراة. في داخلي وضعتُ ترتيبهم كالتالي وفق حدسي؛ الرجل المتورط في سرقة البنك، يليه المتورط في قتل منافسه في حلبة الملاكمة، يليه المتسبب في قتل زوجته وطفلته، وعزمتُ على البدء في الأيام التالية بزيارة الأول منهم، والتأكد مما إن كان يعيش في عنوانه المُدوَّن في ملف قضيته أم لا.

بعد يومين وصل إليَّ اتصال هاتفي من الطبيب ريمون، قال:

- إنَّ زوجتي تود أن تراكِ.

صمتُّ لثانية، ثم قلت:

- لديَّ بعض الأعمال خلال هذا الأسبوع سيدي، سأنتهي منها وسأعاود الاتصال بكَ لنحدد موعدًا للقاء.

كان يونس يقف بجواري، فقلت له فرِحةً بعدما أغلقتُ الخط:

- يبدو أنَّنا حصلنا على طبيب لمساعدتنا.

وحكيت له ما حدث خلال زيارتي الطبيبَ وحديثه عن زوجته، ابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- سأبدأ في إيهام سوزان بأنَّنا نُعِدُّ خطة لتهريبها، عليها أن تظن خلال هذه المدة أنَّنا نحاول بكل طاقتنا الإبقاء عليها مهما كلفنا الأمر، وأريدها أن تبتكر هي الطريقة التي تخرج عبرها من البيت في الموعد المنتظر.

قلتُ بحماس:

- حسنًا.. أرجو لكَ التوفيق، أمَّا أنا فعليَّ الذهاب الآن لإيجاد ذلك السائق الذي نرغب في مساعدته.

وغادرت.

***

كان السائق المُدان في عملية السطو يقيم في الحي الشرقي من المدينة، سألتُ رامي أن يُقلَّني بدراجته النارية إلى ذلك الحي دون أن أخبره بهدفي الحقيقي من وراء تلك الزيارة، أخبرته كاذبةً بأنَّها زيارة كُلِّفتُ بها ضمن التدريب العملي لإحدى مواد دراستي، حتى عندما

وصلنا إلى البناية المُدوَّنة في دفتري عنوانًا لذلك الرجل.. طلبتُ منه أن ينتظرني بجوار دراجته دون أن يصعد معي، فوافق مستغربًا.

دلفتُ إلى بوابة البناية وصعدت السلالم الكئيبة ذات الإضاءة الخافتة إلى الطابق الثالث حيث الشقة رقم خمسة، وطرقت بابها الخشبي ذا الطلاء القديم المقشر وانتظرتُ. مرَّت بعض الدقائق دون أن يجيبني أحد، طرقت الباب مجددًا، لم يجِبني أحد أيضًا، أدركتُ أنَّه لا أحد يوجد في الداخل وعزمت على المجيء في وقت آخر، غير أنَّ باب الشقة المقابلة فُتح فجأة، وعلى الفور سألتني السيدة التي فتحته:

- عمَّن تبحثين؟

مرتبكة قلت:

- السيد سفيان.

قالت:

- إنَّه سجين الآن.

قلت:

- ألم يُطلَق سراحه منذ سبعة أعوام؟

قالت:

- إنَّها قضية أخرى منذ ثلاثة أعوام، أعطاه القاضي حكمًا بالسجن المشدد لخمسة أعوام لا يزال يقضيها إلى الآن.

هززتُ رأسي:

- آه.. حسنًا، شكرًا جزيلًا.

وهبطتُ السلالم سريعًا، سألني رامي الذي كان يجلس على الرصيف بجوار دراجته النارية:

- هل انتهيتِ بهذه السرعة؟

قلت:

- نعم، هيا لدينا رحلة أخرى.

سألني متعجبًا:

- إلى أين؟

فتحت دفتري، وقلت:

- حي الأجانب، البناية رقم تسعة عشر.

ضمَّ شفتيه، وناولني الخوذة، فضربت كتفه مازحة:

- لماذا تتذمر؟ إنَّك تدين لي بالكثير، أم نسيت؟

زمجر بالدراجة النارية، وقال ضاحكًا:

- لا، لم أنسَ.. أرجو فقط أن تنتهي بسرعة من تلك الزيارة مثل هذه.

قلت ضاحكة:

- أرجوك تمنَّ شيئًا آخر.

ضحك، وانطلق بنا.

وصلنا إلى حي الأجانب، وهناك قطعنا شارعًا طويلًا تحمل لافتته الرقم سبعة وثمانين، وبعد تجاوز ستة شوارع جانبية متفرعة منه.. انعطفنا أخيرًا إلى شارع ضيق تقع على ناصيته بناية قديمة على واجهتها لافتة كبرى تحمل اسم «مقهى يونان».. مثلما دُوِّن في العنوان بدفتري تمامًا، ثم توقفنا أمام بوابة ثالث بناية في ذلك الشارع، وكما انتظرني رامي في المرة الأولى بجوار دراجته النارية.. سألته أن ينتظرني هذه المرة أيضًا، ودلفت إلى داخل البناية بدفتري وصعدت

السلالم إلى الطابق الثاني، طرقتُ باب الشقة الوحيدة في ذلك الطابق، لم يأخذ الأمر دقيقتين حتى فُتح الباب، ظهر أمامي الرجل الذي قصدته، لكنّي من الوهلة الأولى أدركت أنَّه غير مناسب لما أخطط له، كان هزيل الجسد غائر الخدين، تبدو على بشرته الشاحبة للغاية إصابته بمرض مزمن، ويتكئ بذراعه اليُمنى على عكاز معدني، سألني متعجبًا عندما وجدني أحملق فيه:

- مَن أنتِ؟!

واصلتُ تحديقي فيه لحظات، ثم قلت معتذرة:

- عفوًا سيدي، لقد أخطأت العنوان.

هزَّ رأسه إيجابًا ثم أغلق الباب، هبطتُ السلالم بخيبة أمل إلى رامي، وسألته أن يعود بي إلى محطة الحافلة، لكن ما إن ركبت خلفه وارتديت الخوذة وكادَ يتحرك بي حتى صحتُ فيه:

- انتظر.

كان ثمة شخص يدلف إلى داخل البناية يشبه كثيرًا الرجل الذي فتح لي الباب، غير أنَّ جسده كان رياضيًا وأكثر صحة وضخامة، هبطت سريعًا، وهرولت خلف ذلك الشخص، ناديته قبل أن يصعد الدرجة الأولى من السلالم:

- سيدي.

التفت، فقلت:

- هل أنتَ السيد «حسان»؟

قال متوجسًا:

- نعم.

تنهدتُ وخلعت الخوذة، ثم قلت:

السلالم إلى الطابق الثاني، طرقتُ باب الشقة الوحيدة في ذلك الطابق، لم يأخذ الأمر دقيقتين حتى فُتح الباب، ظهر أمامي الرجل الذي قصدته، لكنَّني من الوهلة الأولى أدركت أنَّه غير مناسب لما أخطط له، كان هزيل الجسد غائر الخدين، تبدو على بشرته الشاحبة للغاية إصابته بمرض مزمن، ويتكئ بذراعه اليُمنى على عكاز معدني، سألني متعجبًا عندما وجدني أحملق فيه:

- مَن أنتِ؟!

واصلتُ تحديقي فيه لحظات، ثم قلت معتذرة:

- عفوًا سيدي، لقد أخطأت العنوان.

هزَّ رأسه إيجابًا ثم أغلق الباب، هبطتُ السلالم بخيبة أمل إلى رامي، وسألته أن يعود بي إلى محطة الحافلة، لكن ما إن ركبت خلفه وارتديت الخوذة وكادَ يتحرك بي حتى صحتُ فيه:

- انتظر.

كان ثمة شخص يدلف إلى داخل البناية يشبه كثيرًا الرجل الذي فتح لي الباب، غير أنَّ جسده كان رياضيًا وأكثر صحة وضخامة، هبطت سريعًا، وهرولت خلف ذلك الشخص، ناديته قبل أن يصعد الدرجة الأولى من السلالم:

- سيدي.

التفت، فقلت:

- هل أنتَ السيد «حسان»؟

قال متوجسًا:

- نعم.

تنهدتُ وخلعت الخوذة، ثم قلت:

- هل لي أن أتحدث معك بعض الوقت؟

هزَّ كتفيه، وأشار إلى الأعلى، فأومأت برأسي إيجابًا، كان رامي يقف أمام البوابة مباشرةً ينظر إليَّ وأنا أحدثه، فقلتُ له وأنا أناوله الخوذة:

- لن أغيب كثيرًا يا صديقي.

قال وهو يرمق الرجل الضخم بنظره:

- سأرافقكِ.

قلت:

- أرجوك انتظر هنا.

نظر إلى عينيَّ بنوع من الاستغراب، فأردفتُ:

- سأخبرك بكل شيء لاحقًا.

وصعدت السلالم وراء حسان، طرق الباب.. ففتح الرجل الهزيل، نظر نحوي، فقال حسان:

- إنَّه أخي التوءم؛ مراد.

ابتسمتُ، نادرًا ما نرى توءمين في عصرنا، ولطالما قيل إنَّ الأبوين المنجبين لتوءمين هما أكثر الناس حظًّا بعد أبوي الخلايا الزرقاء، يكفي أنَّك ستنال ثلاثة أطفال على الأقل من فرصتي إنجاب فقط. قلت لأخيه:

- مرحبًا مراد.

هزَّ رأسه مُرحِّبًا دون أن يتحدث، ولم يرافقنا إلى غرفة الاستقبال التي دلفنا إليها أنا وحسان. قلتُ وأنا أتفحص بعينيَّ الغرفةَ الفوضوية للغاية، التي تناثر على أرضها وأثاثها كل شيء؛ ثياب وسجائر وأطباق وأتربة:

- يبدو أنَّك لم تتزوج بعدُ.

رفع كتفيه بقلة الحيلة باسمًا، فقلتُ:

- أعلم أنَّكَ حُرمتَ الإنجاب في عامك الرابع والعشرين، وقضيتَ خمسة عشر عامًا في السجن، من المنطقي ألا توافق أي امرأة على الزواج منك، لكنِّي هنا الآن لمد مؤقتك بفرصة فورية للإنجاب.

قال ساخرًا:

- هل يوزعون فرص الإنجاب هذه الأيام؟

قلت:

- لستُ جمعية خيرية، إنِّي أريد منك عملًا، إن تمَّ على أكمل وجه فسأمنحك هذه الفرصة.

تحوَّلت نبرته إلى جدية واضحة، وسألني:

- ما هو؟

حكيت له ما تحدثتُ به إلى الطبيب من قبل، وعندما ذكرتُ أمر إصابة سوزان.. لاحظتُ تبدل ملامح وجهه إلى درجة كانت أكبر من تغيُّر وجهه عند حديثي بشأن سرقة سيارة الإسعاف، واختتمت حديثي قائلة:

- فكر في الأمر، سأنتظر منك جوابًا بالقبول أو الرفض خلال الأسبوعين القادمين.

ونهضتُ لأغادر، فقال وهو يمد يده ليصافحني:

- إنّي أوافق.

ابتسمتُ، فأردف:

- لكنّي سأحتاج إلى شخص معي.

ونظر إلى أخيه الجالس في الردهة بعيدًا عنّا، وقال:

- كان مراد أمهر حذّادي المدينة قبل مرضه، إنّه مَن صاغ لي القطعة الفولاذية التي وضعتُها في قفازي الجلدي قديمًا، وفزت بها في ثلاث بطولات محلية قبل اعتقالي، أعتقد أنّه أنسب من يؤمّن لنا سيارة الإسعاف من الداخل ضد الصدمات. إنّي أثق بقدراته.

قلت:

- جيد.

قال:

- ستمنحينه أيضًا فرصة فورية من فرص إنجابك.

نظرتُ نحو أخيه، وقلتُ بتهكم:

- هل حُرم الإنجابَ هو الآخر؟

قال بهدوء:

- لا، لكنّه يستحق الكثير، لقد عانى في حياته مع مرضه، إنّه لا يزال يمتلك فرصتيه للإنجاب ولم يتزوج بعد، ربما مع منحك إياه الفرصة الثالثة يصبح مَطمَعًا لعروس يرغب فيها.

هززتُ رأسي نافية وقلت:

- لا لا.. لا أوافق.

ابتسم وقال:

- فكري في الأمر، إمّا كلانا معًا، وإما لا أحد.

حدجت في عينيه وأنا أعض على شفتي كي أخفي الاضطراب الكبير الذي أصابني، وغادرتُ بغضب دون أن أعطيه جوابًا.

***

مشوشةً إلى أقصى حد.. كنتُ أستلقي في سريري تلك الليلة أنظر إلى شاشة مؤقتي الذي أمسكه بيدي وعقلي يضج بأسئلته: هل يستحق الأمر فعلًا كل هذه التضحيات؟ هل كانت أمي لتفعل الأمر ذاته إن كانت مكاني؟ هل كانت صادقة مع سوزان عندما أخبرتها بأنَّها لن تسلمها إلى البنك؟ هل أرضخ لحسان وأخيه أم أواصل بحثي عن سائق آخر يكتفي بفرصة إنجاب واحدة؟ وهل ستكفيني فرصتان للإنجاب إن وافقت أم سأعود وأندم على تلك الفرص التي سأضيِّعها من يدي؟ وظلَّ عقلي مشتعلًا بتلك الأسئلة وغيرها إلى أن غلبني النعاس مع حلول الفجر.

في اليوم التالي والأيام التي تلته لم أغادر البيت، وكلما خطرت في بالي فكرة مهاتفة الطبيب وزوجته أو السائق.. أغلقت الخط سريعًا قبل أن يأتي الرد من الجانب الآخر، لاحظ يونس توتري فسألني:

- هل طرأ أمر ما؟

أخبرته كاذبة بأنَّه لا جديد لديَّ، وعدتُ سريعًا إلى غرفتي، أخرجتُ كروت السائقين مجددًا وحدقت إلى الأسماء المكتوبة عليها، دلف إليَّ يونس دون أن يطرق الباب، قال مُصِرًا وهو يجلس على السرير في مواجهتي:

- لا أشعر أنَّكِ بخير، ما الأمر؟

قلتُ وأنا أحدق إلى الكروت:

- لقد وجدت السائق بالفعل، لكنَّه يريد فرصتَي إنجاب له ولأخيه الحدَّاد.. يقول إنَّ أخيه سيساعدنا بقدر مهم في إتمام تلك المهمة، وإمَّا الاثنان معًا وإما لا أحد منهما.

ضمَّ شفتيه مفكرًا، ثم قال:

- هل تثقين بكفاءة هذا السائق؟

هززتُ رأسي نافية:

- لا.. لا أعرف، إنّي مشوشة، يخبرني حدسي بأنّ ذلك السائق هو الشخص المناسب، ويلح جزء في داخلي أن أبحث عن شخص آخر يكتفي بفرصة إنجاب واحدة، وفي الوقت نفسه لا أريد توسعة دائرة من أعرض عليهم طلبنا كي لا يفتضح أمرنا.

أخرج زفيره، ثم قال بهدوء:

- حسنًا.. يمكننا التفاوض معه هو وأخيه، ينال أحدهما فرصةً منكِ بعد إتمام المهمة، وبعد عام سيصل إليَّ مؤقتي، سيكون لديَّ أربع فرص للإنجاب، فرصتين من الدولة وفرصتين فوريتين، لكوني أخ سوزان.. يمكنني منحه إحدى تَيْنِك الفرصتين حينها.

وجهتُ نظري إليه مستغربة مما قال، وقلتُ:

- إنّي لا أقول لك هذا كي تُضحّي أنتَ بفرصة إنجاب من فرصك.

قال:

- سيتبقى لي ثلاث فرص أكثر من أي مواطن آخر.. لا أريد غيرهم، كما أنّي لا أريدكِ أن تفقدي فرصًا أكثر، يكفيكِ فرصة الطبيب والسائق نفسه، عليَّ أن أساعد ولو بجزء ضئيل، وأنا أصرُّ على ذلك.

ومدَّ ذراعه إلى سطح المكتب وأزاح الكروت المبعثرة أمامي بساعده لتتساقط إلى أرضية الغرفة، وقال:

- لنفكر الآن في الخطوة التالية ما دمنا حسمنا اختياراتنا، علينا أن نعقد اجتماعًا مع الطبيب وزوجته أولًا ثم مع السائق وأخيه للاتفاق على كل شيء.

أومأتُ برأسي إيجابًا، وقلت:

- ماذا عن سوزان، هل لمَّحتَ لها بشيء؟

هزَّ رأسه وقال:

- نعم، أخبرتها صراحةً بأنَّنا سنعوق تسليمها للبنك وسنهرِّبها إلى مدينة أخرى بعد إفساد شريحتها وإيهام الكل بوفاتها على أن نلحق بها بعد بضعة أشهر.. ألا تلاحظين الفرحة التي تعتري وجهها هذه الأيام؟

قلت:

- ليس فيَّ عقل هذه الأيام لألاحظ أي شيء.

وتابعتُ وأنا أُخرج ورقة بيضاء إلى سطح المكتب أمامي:

- حسنًا، هذا ملخص ما سنقوم به؛ قبل موعد تسليم سوزان بثلاثة أيام سأذهب إلى بنك تخصيب المدينة برفقة السيد شاهين لإنهاء إجراءات التسليم، سيشدد الرجل رقابته على بيتنا منذ ذلك الحين، سنتحدث مع الطبيب وزوجته في لقائنا القادم عن كيفية جعل سوزان في حاجة سريعة إلى مستشفى المدينة.. وإلا هُدِّدت حياتها، مع جُبن السيد شاهين سيستدعي سيارة إسعاف لنقلها، تظهر سيارة الإسعاف يقودها حسان ومعه الطبيبة؛ زوجة السيد ريمون، يرافقها ثلاثتنا، تحقن الطبيبة الفتاة بدواءٍ يُغيِّب وعيها، ثم يفتعل حسَّان الحادث بمعرفته، تنقلنا سيارة إسعاف أخرى حقيقية إلى المستشفى، تكمل الطبيبة هناك دورها بإيهام الكل بوفاتنا؛ سوزان، والسيد شاهين، وأقاربنا، تُضمّد إصابة سوزان وتخرج مع السيد شاهين في سيارة إسعاف إلى بنك التخصيب، لن نهمه نحن وقتها في شيء ما دمتُ أنهيت أوراق تسليمي سوزان. بعد ذلك تتدبر الطبيبة أمرها بمعرفتها، تُعلن خطأ

تشخيصها أو تبرر إعلانها وفاتنا بأي شيء، حتى إن عُوقبت إداريًا لن يكون ذلك شيئًا مقابل فرصة الإنجاب التي ستحصل عليها هي وزوجها، وكذلك السائق سيختفي كي لا يُدان بسرقة سيارة الإسعاف، وليكن الله في عون الفتاة لافتقادها إيانا، وليكن الله في عوننا نحن أيضًا. هل لديك أي تعقيب على الأمر؟

هزَّ رأسه نافيًا ثم قال:

- سأرافقكِ في اجتماعكِ القادم مع الطبيب وزوجته، والسائق وأخيه.

قلت:

- حسنًا، سأهاتفهم للقاء هذا الأسبوع.

***

بعد ستة أيام كان لقاؤنا مع الطبيب ريمون وزوجته «مريم» -كما عرفنا اسمها في ذلك اليوم- في بيتهما، وجدتها امرأةً في منتصف الثلاثينيات رشيقة القوام تضع قرطًا صغيرًا في أنفها، شعرها أسود قصير تتخلله بعض الخصلات المصبوغة بلون قرمزي، شعرتُ في بداية جلستنا أنَّ تلك المرأة التي لا تشبه الطبيبات في شيء تجلس معنا مجبرة، وفي أثناء حديثي مع زوجها بشأن تصوُّرِنا ما نريد حدوثه ذلك اليوم.. التقت عيناي بعينيها أكثر من مرة؛ فأصابتني نظراتها الحادة بالتوتر، خاصةً مع بقائها صامتة طوال الوقت، إلى أن انتهيتُ من الحديث، فنطقتْ دون مقدمات بصوت هادئ واثق:

- سيفيد «الأكسيدوفرين» فيما تخططين له.

وأضافت بعدما بدت البلاهة على وجهي أنا ويونس:

- إنّه عقار غير شائع الاستخدام، اكتُشِف قبل خمسين عامًا فقط، نستخدمه أحيانًا في حالات توقف القلب المفاجئ، حقنها بجرامين منه سيزيد دقات قلبها ومعدل تنفسها إلى حد يجعل صافرات الإنذار تدوي على شاشات المخفر وبنك التخصيب، وإن لم تُحقَن أختكم بالمادة المضادة له خلال ساعة فستلقى حتفها.

صرخ يونس:

- ماذا؟! لا.. لا نريد أن نغامر إلى هذا الحد.

قالت بهدوء:

- على طبيب القرية أن يُدرك خطر الحالة، وأن يعطي أمرًا حاسمًا باستقطاب أقرب سيارة إسعاف مجهزة للقرية، ستجعله أعراض ذلك العقار يفقد تركيزه تمامًا.

وبالنبرة الهادئة نفسها أضافت:

- لا تقلق بشأن الفتاة، سأكون في تلك السيارة التي توفرانها، وسأحقنها بالمادة المضادة، ستُبطِل تأثير الأكسيدوفرين في أقل من دقيقة، ويبقى أمر تخدير الفتاة للمدة التي نريدها بعد ذلك أمرًا سهلًا.

سألها يونس:

- لكن ماذا لو أصرَّ الطبيب على مرافقة سوزان في سيارة الإسعاف؟

هزّت رأسها نفيًا وقالت:

- ربما يرافق قائد مخفركم في سيارته التي ستتبعنا، أمّا داخل سيارة الإسعاف فأنا الملكة، سأرفض؛ إنّ لدى طبيب الطوارئ سُلطة على أي طبيب آخر.

تحول الشعور فجأة في داخلي من الريبة من تلك المرأة إلى الإعجاب بها، ويبدو أنَّ الشعور نفسه قد انتقل إليها تجاهنا، فقالت:

- يعجبني ما تنويان فعله من أجل أختكما، لذلك سأحرص على إتمامه في أبهى صورة.

وأضافت متباهيةً:

- لديَّ عقار آخر سيبطئ وظائفكما الحيوية إلى حد يشبه الموت، مع قليل من المساحيق وشيء من التمثيل المتقن منكما سيفيد إن أرادت الفتاة أو قائد المخفر إلقاء نظرة أخيرة على وجهيكما.

صاحَ يونس منبهرًا:

- يا للروعة!

قالت:

- متى يمكننا الحصول على فرصة الإنجاب الفورية؟

قلت:

- سأضبط إعدادات المؤقت لنقلها إلى مؤقتك تلقائيًا بعد ستة أشهر من اليوم.

امتقع وجه زوجها وكاد ينطق، فقبضَتِ المرأة على يده، وقالت:

- حسنًا، إنَّه وقت مناسب فعلًا.

انتهت المقابلة بعد ذلك وغادرنا إلى المحطة التالية؛ لقاء حسان وأخيه في شقتهما بحي الأجانب، أعلن يونس لهما موافقتنا على إعطائهما الفرصتين، فرصة بعد ستة أشهر مثل الطبيبة، وأخرى بعد عام ونصف مع وصول مؤقته، بعد كثير من الجدل رفض حسان انتظار فرصة يونس بعد عام ونصف وتمسك بالحصول على فرصتيه معًا مع

إتمام المهمة، وتركنا أنا ويونس في غرفة استقباله لحسم أمرنا، قلتُ ليونس مُصِرَّةً:

- لنبحث عن شخص آخر.

قال بأسف:

- لقد عرف سرنا وسيهددنا بالأمر إن اخترنا سائقًا آخر.

زممتُ شفتيَّ، فقال بنبرة حائرة تحمل مسحة من الحرج:

- ربما تعطينه فرصتين من مؤقتك بعد ستة أشهر كما يريد، وسأعطيكِ فرصة فورية من فرصي مع وصول مؤقتي بعد عام ونصف.

قلت:

- ماذا تقول؟!

قال:

- لن يختلف الأمر كثيرًا، سنفترض في أنفسنا أنَّنا قمنا بما كنا ننويه، بعد عام ونصف سيكون لديكِ ثلاث فرص، ولديَّ مثلهم، أرجوكِ اقبلي بالأمر.

صمتُّ مفكرةً لبعض الوقت، ثم هززتُ رأسي موافقةً في تجهُّم، فنهض وقبَّل رأسي، ثم نادى حسان وأخيه فعادا إلينا، أخبرتهما بموافقتنا، ثم تحدثنا عن اتفاقنا مع الطبيبة، قال:

- لا أنوي سرقة سيارة إسعاف كما أخبرتِني المرة السابقة، سأجعل الأمر قانونيًّا أكثر.

وتابع عندما نظرنا نحوه مستغربين:

- إنَّ لديَّ ترخيص قيادة هو الأعلى في المدينة، سأحاول الالتحاق خلال المدة القادمة بالعمل سائقًا للإسعاف في أحد المستشفيات

الخاصة، لا يزال لدينا أكثر من خمسة أشهر، أعتقد أنّي سأجد خلالها فرصة واحدة على الأقل، وأعدكما أنّي سأتمسك بها مهما صار حتى بلوغ يوم المهمة.

قال يونس:

- وإن لم تنجح في الحصول على هذه الوظيفة؟

قال:

- وقتها سأسرق السيارة، لا تشغل بالك بهذا الشأن، في الموعد المحدد ستكون لدينا سيارة مُجهّزة ومؤمّنة كليًا من الداخل.

ونظر إلى أخيه وقال باسمًا:

- سنفعل كل شيء ممكن من أجل فرصتَي الإنجاب.

ابتسم يونس ابتسامة خفيفة، أمّا أنا فلم أستطِع الابتسام على الإطلاق، وغادرنا عائدين إلى بيتنا يحمل وجهي وجوم الكون كله، كانت سوزان تنتظرنا، ركضتْ نحونا وسألتنا على الفور:

- هل تمّت الأمور على ما يُرام؟

أجابها يونس:

- نعم، لا أعلم سر ذلك التيسير الكبير الذي يحدث في هذا الأمر، كل شيء يسير تمامًا كما نود وأكثر.

احتضنتني الفتاة، وقالت لي:

- أحبكِ.

غمز لي يونس بعينه كي أظهِر ابتسامتي، لم أستطع، قبّلتُ رأسها فحسب وأنا أنظر إلى شاشة عارض التقويم الميلادي الموضوع على الطاولة، التي كانت تشير إلى تاريخ ذلك اليوم؛ العاشر من يوليو. يتبقى خمسة أشهر وواحد وعشرون يومًا على الموعد الذي ربما تأخذ حياتنا فيه منعطفًا لم يخضه أحد من قبل.

8

خلال الخمسة أشهر المتبقية.. واصل كل منّا حياته ظاهريًا مواصلةً طبيعيةً، بالنسبة إليَّ فقد انتظمتُ في محاضراتي وحضوري جلسات المحاكمات، وواصل يونس انتظامه بالمدرسة الثانوية، وبدأتْ سوزان تدَّعي تجاوبها مع طبيب البنك النفسي الذي كان يزورنا في ذلك العام كل أسبوعين لتهيئتها للمرحلة الجديدة من عمرها، هاتفني حسان بعد خمسة وعشرين يومًا من آخر لقاء بيننا.. وأخبرني أنَّه حصل على وظيفة سائق الإسعاف بالفعل، فأخبرته فرِحةً بامتناني لما فعله، وعلى الفور هاتفتُ الطبيبة مريم من أجل إخبارها بذلك التحديث.. فهنأتني وأخبرتني باستعدادها التام لليوم المنتظر، زارنا السيد شاهين مرتين أو ثلاثًا خلال تلك المدة، قال لي في آخر مرة.. إنه يشعر بمدى الحزن الذي ينتابني مع اقتراب يوم فراق سوزان، ووعدني بأنَّه سيهتم بأمري أنا وأخي بعد رحيل الفتاة، شكرته على ذلك، وحددنا موعدًا لإنهاء إجراءات التسليم في الشهر الأخير.

مع بداية ذلك الشهر صار الأرق رفيقي، وعادت الأسئلة ذاتها تطاردني في فراشي كل ليلة، وعندما أخبرت الطبيبة مريم بذلك الأمر.. وصفتْ لي أقراصًا مهدئة ساعدتني كثيرًا في تجاوز ذلك الأرق، وفي اليوم الحادي والعشرين من الشهر.. عقدت أنا ويونس اجتماعنا الأخير

مع حسان وأخيه مراد والطبيبة مريم وزوجها في شقة التوءمين بحي الأجانب لتأكيد جاهزية كل شيء، قال مراد -وهو يرينا مخططًا هندسيًا لسيارة إسعاف من الداخل- إنَّه انتهى من إعداد هيكل داخلي معدني وأنظمة أمان للراكبين ستُثبَّت في عربة الإسعاف، وأردف:

- قُبيل اليوم المُنتظَر بيومين ستكون السيارة على أهبة الاستعداد لأي حادث.

قال حسان بعدها:

- ستساعدنا شاحنة نقل كبرى في افتعال الحادث عند الجسر الأول من جهة قريتكم، إنَّ سائق تلك الشاحنة محترف وسيعرف جيدًا كيف يصدم سيارتنا.

نظرت مريم إلى حسان بنوع من القلق، فقال:

- سأكون بينكم ولن أغامر بحياتي دون أن يكون كل شيء مدروسًا بمثالية.

وأشار إلى أخيه:

- عليكم أن تثقوا بهذا الرجل، إنَّه عبقري.

فنظرتْ نحو زوجها، فمد يده وربَّت على فخذها.. فأومأتْ برأسها إيجابًا، بعدها ضبطتُ إعدادات مؤقتي كي يُحوِّل للثلاثةِ فرصَ إنجابهم بعد عشرة أيام، لا أنكر أنَّ يدي كانت ترتعش وقتها وأنا أفكر أنَّ هذه العملية نهائية لا رجعة فيها، لكنِّي قمتُ بالأمر بالفعل. وعندما انتهيتُ نظرتُ إليهم فوجدت عيونهم متَّقدةً حماسًا وأسارير وجوههم منفرجة بصورة لا تُنسَى، على عكس القلق الذي ارتسم على وجهي أنا ويونس، حينها أعطتني مريم زجاجة الأكسيدوفرين وقالت:

- بعد تأكيد اقترابنا بالسيارة من قريتكم.. ستحقنين الفتاة في وريدها ببطء شديد، وتخلّصي من الزجاجة بعدها.

شعرتُ بيدي ترتجف وأنا أتناولها منها، لكنّها سرعان ما أعطتني زجاجة أخرى وتابعت:

- وهذه هي المادة المضادة.. لربما حدث أمر طارئ يعوقنا، احقني الفتاة وقتها بنصف هذه الزجاجة، سيعيد الأمور إلى طبيعتها وكأن شيئًا لم يحدث.

هززتُ رأسي دون أن أنطق، في حين كان يونس ينظر إليَّ وإلى العقارين في يدي بقلقٍ لا يقل عن القلق الذي يغمرني.

***

في مساء تلك الليلة دلفتْ سوزان إلى غرفتي، قالت بعد ثوانٍ من التحديق إليَّ:

- لقد أخبرني يونس بأنَّ كل شيء صار على أتم الاستعداد.

قلت باسمة:

- نعم، إنَّ السائق والطبيبة جاهزان للموعد المحدد، سأرافق السيد شاهين إلى بنك التخصيب نهاية هذا الأسبوع كي أنهي أوراق تسليمك، وسننفذ خطتنا بعدها بثلاثة أيام.

سألتني:

- ألستِ خائفة؟!

ابتسمت وقلت:

- إنّي أموت خوفًا، لا أعتقد أنَّ أحدًا تحدى بنك التخصيب من قبل، لكن من أجلكِ سأفعل كل شيء.

قالت وهي تنظر إلى صورة معلقة على الحائط كانت لأبي وأمي وثلاثتنا:

- حين أخبرتني أمنا للمرة الأولى بحتمية فراقي الأسرةَ مع بلوغي السادسة عشرة، لكوني فتاة مميزة تحمل في داخلها رحمًا تُكمِل هذه الحياة على الأرض.. ظللت أبكي في حضنها وأغمغم بأنّي لا أريد هذه المزية، وإنْ كانت في الحياة نعمة أريدها فهي بقائي معكم، قبَّلتْ رأسي وقتها وقالت إنَّ أسرتنا ستظل مترابطة إلى آخر العمر.. وإن كلَّف الأمر حياة كل فرد فينا.

ونظرتْ إلى صورة أخرى معلقة على الحائط كانت لأمي فقط، وأردفتْ وهي ترتشف دموعها التي تساقطت سريعًا:

- وعندما ماتت، شعرتُ في داخلي أنَّها فعلت ذلك عمدًا كي تفِرَّ من وعدها لي، وأنَّ الدنيا قد أغلقت كل أبوابها أمامي، لم أكن أعرف أنَّ نجاتكِ من ذلك الحادث وبقائي مسؤولة منكِ قُدِّر كي تكوني أنتِ باب الدنيا الكبير الذي تُرِكَ مفتوحًا ليمرر لي كل دفء هذا العالم.

ثم صمتت لحظة وأضافت:

- أعلم كم سيكون هذا الأمر خطِرًا يا ليلى، وأنا أحبكِ كثيرًا أنتِ ويونس، وسأحبكما إلى آخر الزمان مهما حدث، لذا إن كان لديكِ ذرة شك أو تردد مما تنوين فعله، فأرجوكِ لا تفعلي، ربما ننجح في إبقائي معكما إن سار على ما يرام الذي حكاه لي يونس، لكنّي لن أسامح نفسي أبدًا على ما سيحدث لكما إن فشل.

قلت وأنا أربت على يديها:

- سيجري كل شيء على ما يرام يا صغيرتي، كما قالت لكِ أُمنا؛ إنَّنا أُسْرة مترابطة وسنضحي بكل شيء لبقائنا معًا.

***

في نهاية ذلك الأسبوع، ذهبتُ مع السيد شاهين إلى بنك تخصيب المدينة بسيارة الشرطة التابعة للمخفر، عند بوابة ذلك البنك فُتِّشنا تفتيشًا دقيقًا، وسلَّم كلٌّ منَّا هاتفه إضافة إلى جهاز إرسال السيد شاهين، ثم قابلنا السيدة مادلين، التي رحبت بي للغاية، بعدها لم يأخذ الأمر أكثر من نصف ساعة لأوقِّع أنا والسيد شاهين كل الأوراق، شكرتني السيدة وهي تتناول مني الأوراق الموقعة، وقالت بنبرة حانية:

- عليكِ أن تظلي بجوار الفتاة خلال الأيام المتبقية، أعلم مدى صعوبة هذا الفراق.

هززتُ رأسي باسمةً، غير أنَّ السيد شاهين بادر قائلًا:

- أعتذر للمقاطعة، لكنَّ غرفة الضيوف في المخفر لن تتسع إلا لسوزان فقط.

تساءلت المرأة في حين اضطرب جسدي وأنا أفكر فيما يقصده:

- ألن تتركها تُمضي الأيام المتبقية من هذا الأسبوع في بيتها؟

قال بغير اكتراث:

- لقد عاشت هناك بما فيه الكفاية، لن تزيدها الساعات المتبقية في شيء، لقد أصبحت منذ هذه اللحظة مسؤولة مني.. ولن أدعها تغيب عن عينيَّ إلا لحظة تسليمها بيدي إلى موظفي البنك.

بحدقتين متسعتين، ووجه محتقِن بالدماء، صرختُ داخل نفسي وأنا أنظر إليه: «ماذا؟!»، في حين قالت السيدة ضامَّةً شفتيها وهي توقِّع الأوراق:

- كما ترى، لن ألومك في شيء، إنَّها مسؤولية كبرى.

نظر نحوي وقال ساخرًا:

- أمْ لكِ رأي آخر أيتها الفتاة؟

قلت بصوت مرتبك تخنقه الدموع:

- ظننتُ أنَّك ستهتم بمشاعرنا كما أخبرتني سابقًا.

هزَّ رأسه نافيًا، وقال:

- سأوفر عليكم مشقَّة الوداع، عليكما أن تشكراني أنتِ وأخوكِ بأنّني سأبقى الرجل السيئ في مخيلة الفتاة لا أنتما.

وأردف بنبرة من التعالي:

- بمجرد أن أنتهي من لقاء السيدة وأتسلَّم جهاز إرسالي، سأعطي أمرًا لأحد ضباطي هناك بنقل الفتاة إلى المخفر.

تسارعت دقات قلبي توترًا، صار كل شيء في مهب الريح، وبأنفاس لاهثة اشتعلَت الأسئلة في داخلي؛ ما هذا الغباء الذي بنيت عليه كل شيء؟! كيف ظننتُ لوهلة أنَّه سيرأف بنا ويترك لنا الفتاة حتى موعد تسليمها الرسمي؟!

سألتني السيدة مادلين:

- هل أنتِ على ما يرام يا ليلى؟

نظرت إليها، ثم نظرت إلى السيد شاهين، ولم أفعل شيئًا سوى أنَّ دموعي تساقطت إلى وجنتيَّ، فنهضتْ من مقعدها وتحركت إليَّ واحتضنتني وهي تقول:

- ستعتادين مع الوقت هذا الشعور، لأجل هذا يمنح البنك امتيازاته لعائلات الخلايا الزرقاء.

ثم مدّت يدها إلى السيد شاهين معطيةً له بعض الأوراق، وقالت:

- انتهى دوري بخصوص سوزان مع توقيع هذه الأوراق، سيهتم قسم الخلايا النشطة في الطابق الثالث والعشرين بتسلُّم الفتاة منكَ يوم الخميس القادم في العاشرة صباحًا تمامًا.

صافحها وقال:

- نعم، أعرف ذلك جيدًا.

ونظر إليَّ:

- هيا يا ليلى.

خرجنا إلى رواق طويل تصطفُّ على جانبيه مكاتب متجاورة ذات حوائط زجاجية، لا تسمع أذنيَّ شيئًا سوى ذلك الصوت الذي كان يصرخ في داخلي قائلًا:

- انتهى كل شيء.

هبطنا بالمصعد إلى الطابق الأرضي ومنه خرجنا إلى غرفة التفتيش التي سلَّمْنا بها أغراضنا، عندما تسلَّمتُ هاتفي فكرت في الركض بعيدًا عن السيد شاهين والاتصال بيونس والطبيبة وحسان لفعل أي شيء، إلا أنّي كنت أدرك أنَّ مراد لم ينتهِ من تجهيز السيارة بعد، كذلك لم أكن أعرف إن كانت مريم أو حسان متاحين من الأساس في ذلك التوقيت أم لا، وحتى إن فعلت ذلك.. فسيدرك السيد شاهين أنَّ الأمر به خدعة ما، وبخلاف كل هذا وذاك.. كان من المستحيل أن أصل إلى البيت قبل نقل رجال السيد شاهين سوزان إلى المخفر، كانت كل الطرق مغلقة في رأسي، فأغمضتُ عينيَّ والدموع تنسال منها وأنا أسير برفقة الرجل، للأسف كان الاستسلام للأمر هو الخيار الأوحد.

عندما ركبنا السيارة وتحركت عدة أمتار، تحدث السيد شاهين عبر جهاز إرساله معطيًا أمره لأحد مساعديه بنقل الفتاة إلى المخفر، في حين أشحت بوجهي عبر النافذة بشرود كبير، تدور في رأسي السنوات الستَ عشرة الماضية تباعًا، السنوات الأولى لسوزان بيننا، ارتباطها الكبير بيونس، ارتباطها بي بعد رحيل أبي وأمي، كلماتها لي بأنَّها تحبني ولا تريد لي الإيذاء، وعندما تخيَّلتُ أنّي لن أراها مجددًا انفجرتُ فجأة بالبكاء، لم يهتم السيد شاهين بنشيجي، ولم يواسِني حتى، ظلَّ صامتًا منشغلًا بمراجعة بعض الأوراق معه فحسب، لم يرفع عينه عنها إلا بعد عشرين دقيقة تقريبًا.. عندما جاء ذلك الصوت المرتعش عبر جهاز الإرسال:

- سيدي، يوجد أمر طارئ، إنَّ الفتاة الزرقاء تمر بأزمة قلبية حادة.

تساءل السيد شاهين فورًا:

- ماذا؟!

اندفعت الدماء إلى عروق جسدي غير مصدقة وأنا أفكر في زجاجة الأكسيدوفرين الموضوعة في خزانة ثيابي، في حين كان الصوت يصرخ بتوتر كبير:

- إنَّ العلامات الحيوية على شاشة المراقبة تشير إلى وصول معدل دقات قلبها إلى مئتين وأربعين دقةً في الدقيقة.

قلتُ لنفسي لاهثة:

- معقول؟! أفعَلها يونس؟!

تابع الصوت:

- سيحدثك الطبيب سيدي.

تغير الصوت الصادر من جهاز الإرسال إلى صوتٍ أكثر توترًا:

- سيدي، لم تفلح مثبطات خفقان القلب المُتعارف عليها مع الفتاة.. ولا أعرف التشخيص بعد، إنَّ الفتاة في حاجة ماسَّة إلى دخول رعاية القلب، وقريتنا ليست مجهزة لمثل هذه الحالات، استمرار معدل خفقان القلب بهذه السرعة قد يسبب توقفه في أي لحظة.

وصرخ مُلِحًّا:

- إنَّنا في حاجة ماسَّة إلى سيارة إسعاف مُجهَّزة أو طائرة تنقلها إلى المدينة.

شعرتُ بالرعشة التي تسري في جسد السيد شاهين بجواري، وبتوتر شديد صاح في الرجل:

- لا تفعل شيئًا، إنَّ أمامي أقل من ساعة للوصول إليك.

رد الطبيب على الفور:

- إنّي أخلي مسؤوليتي سيدي، إنَّ لكل ثانية ثمنها، لقد طلبت إسعافًا مُجهزًا بالفعل.

صرخ السيد شاهين فيه مجددًا:

- حسنًا، لكن لا تدع سيارة الإسعاف تتحرك إلا عند وصولي.

قال الصوت:

- حسنًا.

وانتهى الاتصال، فصاح السيد شاهين في السائق آمرًا:

- أسرِع.

زاد السائق من سرعة السيارة على الفور إلى السرعة القصوى، وفي حين كان جسدي يهتز مع ركض السيارة.. كان ذهني يضج بأسئلته اللانهائية وأنا أحدّق إلى الطريق أمامنا بتوتر شديد؛ ماذا تخال نفسك

فاعلًا يا يونس؟ ما الجدوى مما تفعله الآن ما دام حسان والطبيبة ليسا جاهزين؟ ولماذا أقحمتَ نفسك بمفردك؟ أتريد أن تُبرِّئ نفسك وحدك أمام الفتاة أم تسعى لشيء أكثر حماقة؟!

نادى السيد شاهين عبر جهاز إرساله بعد دقائق:

- ما الوضع الآن يا سرور؟

رد الصوت بقلة حيلة واضحة:

- إنَّ الوضع يزداد سوءًا سيدي، يقف الطبيب عاجزًا والفتاة تحتضر، إنَّ الفتاة تحتضر، ولم يصل الإسعاف بعد.

وجدت نفسي أخطف جهاز الإرسال من يد السيد شاهين وأصرخ فيه:

- أين يونس؟!

سكت الصوت الآتي من الجانب الآخر لثوانٍ كأنَّه تفاجأ بصوتي، ثم قال:

- إنَّ الفتى يجلس بجوار الفتاة.

بتوتر كبير صرخت فيه:

- أعطِه جهاز الإرسال.

سمعت وقع أقدام ذلك الضابط تأتي عبر الجهاز.. فأدركتُ أنَّه يتحرك نحو يونس، لم يكن في بالي قرار سوى كشف الأمر.. وإلا فقدت الفتاة حياتها، سمعت صوته من الجانب الآخر باكيًا:

- ليلى، إنَّهم يريدون أن يأخذوها.

ارتشفتُ دموعي وقلت:

- لا تقلق يا فتى، إنَّ سوزان ستسامحنا رغم كل شيء.

وكدت أنطق إليه بأن يُنهي معاناة الفتاة ويحقنها بالمادة المضادة لولا أنّي سمعت فجأة صافرات إسعاف تدوّي من ورائنا بعيدًا بتتابع مستمر لنفسح لها الطريق، نظرت خلفي، كانت السيارة تنطلق نحونا بسرعة رهيبة لا تناسب طريقنا على الإطلاق، صاح السيد شاهين في السائق على الفور كي ينحرف جانبًا ليمررها، لأُحدِّق إلى حجرة قيادتها ذاهلةً وهي تمر بجوارنا بعدما رأيت الطبيبة مريم تجلس بجوار السائق، وخلال ثوانٍ قليلة كانت السيارة قد ابتعدت عنّا مُخلِّفة وراءها غبارًا كثيفًا، فقلت بالنبرة الباكية ذاتها:

- إنَّ سيارة الإسعاف في طريقها إليكم، أخبر الفتاة أنَّنا نحبها.. سيصبح كل شيء على ما يرام.

التقط السيد شاهين مني جهاز الإرسال، وصاح إلى الضابط:

- سرور، إنَّ سيارة الإسعاف ستصل إليكم خلال دقائق، انقلوا الفتاة على الفور.

ثم أمر السائق كي يتوقف جانبًا، فسألته مندهشة:

- ألن تكمل الطريق إلى هناك؟!

قال:

- ما من داعٍ لذلك، ستعود السيارة بها بعد دقائق، سنلحق بها ما إن تمر أمامنا.

فهززت رأسي إيجابًا وعدت بظهري إلى مسند المقعد، صرت خارج اللعبة منذ اللحظة التي قرر فيها يونس إكمال الأمر بمعرفته.

***

خلال الدقائق التالية.. تابع السيد شاهين لحظة بلحظة ما يحدث عبر الجمل المقتضبة الآتية عبر جهاز الإرسال؛ ركبت الفتاة وأخوها

سيارة الإسعاف، تحركت السيارة بعد أن رفضت الطبيبة المرافقة ركوب أي شخص آخر معهم، تحركت سيارة الشرطة وراء سيارة الإسعاف.

عندما سمعنا صوت صافرات الإسعاف من جديد.. شغَّل السائق محرك السيارة على الفور، تساءل السيد شاهين متعجبًا وقتما مرَّت سيارة الإسعاف بجوارنا ورأى سائقها يضع خوذة كبرى فوق رأسه:

- منذ متى يرتدي سائقو الإسعاف خوذاتٍ؟

قلت وأنا أحدق إلى السيارة المنطلقة بسرعة رهيبة:

- لا أعرف.

تحركنا وراء سيارة الإسعاف مباشرةً، وتبعتنا سيارة الشرطة الآتية من القرية، بعد دقائق جاء صوت مختلف عبر جهاز الإرسال:

- سيدي، لقد بدأ معدل خفقان القلب في التباطؤ على الشاشة أمامي، وصل الآن إلى مئة وخمسة، مئة وثلاثة، ثمانية وتسعين.

أدركت أنَّه ضابط آخر كان يتحدث إلينا من أمام شاشة المراقبة الموجودة في مكتب السيد شاهين، ومع كلماته تنفس الرجل بجواري الصعداء، وغمغم:

- طبيب القرية الأحمق، من أين يأتون بهم؟!

أما أنا فواصلت تحديقي إلى مؤخرة سيارة الإسعاف دون أن يرمش لي جفن، وعندما اقتربنا من الجسر الأول.. بدأ قلبي يخفق بقوة وأنا أترقب، لم يعد سوى أقل من ميل على افتعال حسان الحادث الذي خططنا له، قال السيد شاهين حين شعر بتوتري:

- يبدو أنَّ مرحلة الخطر قد مرَّت يا ليلى، ستكون الأمور بخير.

واصلت تحديقي إلى الطريق أمامنا وأنا أتمتم داخل نفسي بأدعية أرجو الله من خلالها أن يخفف وطأة ما سيحدث بعد أقل من دقيقة، ثم

ظهر الجسر أمامي فبدأت الرعشة تسري بقوة في جسدي، وأخذ الصوت في داخلي يتساءل: «ماذا ستفعلون يا رفاق؟ هل ستكملون ما اتفقنا عليه أم ستتوقفون عند هذا الحد؟». غير أنّي وجدت سيارة الإسعاف تتجاوز الجسر دون ظهور أي شاحنة أو حدوث أي شيء، حدّثتُ نفسي من جديد: «هل تغير أمر ما؟ أم أنّ السيارة لم تُجهّز للحادث حقًا -كما توقعت- وفضّلوا عدم المجازفة؟!».

ثم فوجئت بمجرد ظهور الجسر الثاني في الأفق بزيادة سرعة سيارة الإسعاف إلى درجة تجاوزت السرعة التي كانت تسير بها وهي تتجه نحو القرية للحاق بسوزان، تعجب السيد شاهين بجواري بعدما صارت بيننا وبين سيارة الإسعاف مسافة كبرى، ونادى عبر جهاز إرساله:

- هل طرأ أي تغير في معدل دقات قلب الفتاة؟

جاءت الإجابة:

- لا، سيدي، إنّ الوضع مستقر تمامًا الآن.

تساءل في نفسه بصوت سمعته:

- لماذا يُسرع ذلك الأحمق إلى هذا الحد إذن؟!

وسأل سائقه أن يزيد من سرعته، في حين واصلتُ تحديقي نحو سيارة الإسعاف التي كادت تختفي عن بصري دون أن أفهم شيئًا مما يحدث.

عندما بدأت سيارة الإسعاف في صعود الجسر الثاني شعرت بأطرافي ترتجف، كان ذلك هو الجسر نفسه الذي فقدتُ عليه أبي وأمي، ووجدت نفسي أقول للسائق:

- أرجوكَ أسرع.

وكأنّي كنت أشعر بما سيحدث خلال ثوانٍ أمام أعيننا عندما سمعت صوت مكابح سيارة الإسعاف تصرخ مدويةً فجأة.. ووجدتها تنحرف أعلى الجسر لتصطدم بسوره الحديدي، وبحدقتيَّ المتسعتين ذهولًا رأيت السيارة تُحلّق من فوق الجسر الفولاذي الشاهق لتسقط إلى الأرض المنخفضة على جانبه؛ شهق السيد شاهين بجواري، في حين تجمَّد جسدي ذهولًا مما أبصرته للتو، صرخ الرجل بجواري مرتعبًا في جهاز إرساله:

- لقد سقطت سيارة الإسعاف من فوق الجسر، أسرعوا إلى السيارة وأبلغوا حالة الطوارئ لسيارات الإسعاف القريبة كافةً.

وصلنا إلى المكان الذي قفزتْ من فوقه السيارة، فأوقف السائق سيارتنا، هبطتُ وركضتُ إلى السور الحديدي، ونظرت من أعلى، كانت السيارة محطمة بالكامل تشتعل فيها النيران، رأيت حسان ومريم يجُرّان سوزان الغائبة عن الوعي بعيدًا، بحثت بعيني في كل الأرجاء عن يونس عندما كانت سيارة الشرطة التابعة للمخفر تقترب من السيارة المشتعلة، التي بدأت نيرانها تزداد أكثر فأكثر، رأيت حسان يحاول الاقتراب مرة ثانية من سيارة الإسعاف، صرخت في نفسي بصدمة كبرى: «لا يزال يونس عالقًا في داخلها!»، فجأة عاد حسان راكضًا بعيدًا عن السيارة ورقد على الأرض مغطيًا رأسه بذراعيه، في حين زحفت مريم بجسدها وغطّت جسد سوزان المستلقية بلا حراك، حينذاك تجمَّد جسدي وتيبَّستُ مكاني مما فكر فيه عقلي وتوقعت حدوثه. بعد ثوانٍ انفجرت سيارة الإسعاف.

- يونس!

9

في لحظة من لحظات توقف الزمن هُرعت سيارات الإسعاف والإطفاء بصافراتها إلى مكان الحادث. مُجمَّدة وقفتُ في مكاني أنظر ذاهلةً إلى السيارة التي يحاولون إطفاءها، وإلى سوزان التي كان رجال الإسعاف ينقلونها سريعًا إلى إحدى سياراتهم قبل أن تنطلق تلك السيارة تاركةً بقية السيارات، في حين كانت مريم ما تزال مستلقيةً على الأرض تحدق في صدمة كبرى نحو الجثة المحترقة التي كان ينتشلها رجال الإطفاء. لا أتذكر شيئًا بعد تلك اللحظة بعدما فقدتُ وعيي ووجدت نفسي فيما بعد راقدةً على سرير طبي في المستشفى ذاته الذي نُقل إليه سوزان والطبيبة وحسان. عندما فتحت عينيَّ كانت سوزان تنظر إليَّ من وراء نافذة زجاجية وبجوارها السيد شاهين، نزعت من ذراعي الإبرة الطبية الموصولة بالسائل المغذي وهرولت إلى باب الغرفة، وجدته مغلقًا من الخارج، لا أعلم إن كان الرجل قد أعطى أمرًا بحبسي مؤقتًا في تلك الغرفة أم ماذا؟! فعدت إلى النافذة الزجاجية ومددت يدي إلى الزجاج ناحية سوزان، وصرخت إليها:

- أين يونس؟!

بكت وهي تمد يدها نحوي لتلامس جانب الزجاج الآخر، قبل أن يقبض السيد شاهين على يدها ويجذبها لتتحرك معه وهي تنظر إليَّ

محاولةً التملص منه، ركضتُ نحو باب الغرفة من جديد وجاهدتُ صارخةً كي أفتحه، لم أستطع. ركضتُ إلى نافذة الغرفة المُطِلّة على الشارع أمام المستشفى؛ كانت ثلاثٌ من سيارات الشرطة تصطفُّ في صف واحد أمام البوابة الرئيسية يقف أمامها ضباطها، بعد أقل من دقيقتين خرج السيد شاهين من المستشفى ومعه سوزان، ركبا في إحدى تلك السيارات، وتحركت بهما في الحال، أدركتُ لحظتها، وأنا أرى السيارة تختفي من أمام بصري مع انعطافها إلى شارع آخر، أنَّها المرة الأخيرة التي أرى فيها الفتاة. جلستُ منهارةً على الأرض مسندةً ظهري إلى الحائط، ترتعش قدماي لا إراديًا وأنا أضمُّ ركبتيَّ إلى صدري، وأنشج عاليًا وأغمغم بشفاهٍ مرتجفة: «ماذا دهاني كي أوافق على ما حدث؟! ظننتُ أنَّها مجرد لعبة! لماذا فعلتَ هذا بي يا يونس؟ لماذا فعلتَ هذا بي؟!».

وبدأتُ أصرخ عاليًا صراخًا هستيريًّا، دلف إليَّ طبيب وممرضتان، صرختُ فيهم كي يبتعدوا عنّي، أمسكتِ الممرضتان بذراعي وقيدتاني بقوة، وسرعان ما حقنني الطبيب بحقنة مهدئة وهو يقول بنبرة آسفة:

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

نظرت نحوه باكيةً، قبل أن يصيب رأسي دوار شديد وأفقد وعيي من جديد.

***

فقدتِ الحياة معناها بالنسبة إليَّ بعد ذلك اليوم، صارت الأسرة المميزة المُكوَّنة من خمسة أفراد.. فردًا واحدًا تعيسًا لا يرغب في العيش؛ هو أنا. وفَّرتْ لي المستشفى طبيبًا نفسيًّا مع اليوم السابع من

احتجازي، لكنَّه فشل في إخراجي من قاع الظلام الذي كنت أقبع فيه، وأصررت على عودتي إلى المنزل، قابلتُ مريم للمرة الأولى بعد الحادث يوم خروجي من المستشفى، احتضنتني وقالت إنها آسفة، لم أنطق بشيء، وأكملتُ طريقي إلى الخارج؛ حيث كان رامي ينتظرني داخل سيارة أجرة، سألني عندما ركبتُ بجواره:

- كيف حالكِ اليوم؟

هززت رأسي وقلت كاذبةً:

- بخير.

وأردفتُ:

- شكرًا لأنكَ جئت، أريد العودة إلى المنزل.

عندما وصلنا إلى بيتي.. كان كل شيء كئيبًا، قال رامي وهو يودِّعني عند باب البيت:

- ربما أغيب عنكِ هذه الأيام لظروف الاختبارات النهائية، لكن إن احتجتِ إلى شيء هاتفيني على الفور.

هززتُ رأسي إيجابًا، وودَّعته.

لم أغادر البيت طوال تلك المدة مطلقًا، وتولت خالتي ثريا إمدادي باحتياجات البيت والطعام المطهو، صار ليلي نهارًا ونهاري ليلًا، واحتلَّت الكوابيس كل لحظة أنامها، بالساعات كنت أجلس محدقة إلى صورة أسرتنا، وكلَّما جال في خاطري صوت أي منهم تساقطت دموعي دون توقف، فقدت الرغبة في كل شيء، وفكرت أكثر من مرة في إنهاء حياتي كي أضع حدًّا لمعاناتي النفسية، لكنِّي كنت أتراجع في اللحظات الأخيرة؛ جُبنًا مني لا لسبب آخر، خسر جسدي أكثر من

خمسة عشر كيلو جرامًا من وزنه في شهر واحد، وعندما فقدت وعيي ذات مرة في وجود خالتي.. أصرَّت على الإقامة معي رغمًا عني، حاولتِ المسكينة بشتى الطرق إخراجي مما كنت فيه.. لكنَّها لم تستطع، كان شعوري بالذنب فيما حدث ليونس وشعوري بالبؤس والأسى لفقدانه هو وسوزان يغمران كل خلية من خلايا جسدي. جاءني رامي بعد شهر ونصف من آخر مرة أوصلني فيها إلى البيت، قال وهو يجلس بجواري على أريكة الردهة:

- لقد ظهرت النتائج النهائية اليوم، لقد حصلتُ عليها، سألتحق بالوظيفة الخاصة بالمحميات، ما زلت عند وعدي، إن وجدت سوزان في المحمية التي ألتحق بها سأعمل على إعادة اتصالكما.

قلت باكيةً:

- إنَّ صورتها هي ويونس لا تفارق خيالي، لم أشعر بهذا الشعور القاسي حتى عندما فقدت أبي وأمي.

قال بنبرة حانية:

- لقد كانا بمنزلة أبنائكِ منذ اللحظة التي تولَّيتِ فيها رعايتهما، ستمر هذه الأوقات.

غمغمتُ باكيةً:

- أنا السبب.. أنا من وافقتُ على خطته.

تساءل مندهشًا:

- أي خطة؟!

حكيت له ما حدث، وما خططت له أنا ويونس من أجل إيهام الفتاة بموتنا ومحاولتنا إصابتها؛ لعلها تبتعد عن محمية العاصمة إذا فشلنا

في الجانب الأول من الخطة، وأخبرته عن هوية حسان الذي قابلناه في مدخل تلك البناية بحي الأجانب، وعن ذلك الدواء الذي أعطته لنا الطبيبة، وعمّا حدث يوم توقيع أوراق تسليم سوزان. عضّ على شفتيه ونظر إليّ بطرف عينه في صمت، ثم تنهّد وقال:

- كما تعلمين، إنّي كثير الكلام بطبعي، لكنّي في الوقت نفسه لا أجيد كلمات المواساة، إنّ شعورك بالذنب لن يفيد بشيء، ما مرّ قد مر، كان يونس صاحب قراره ولستِ أنتِ، كان الفتى يعرف بخطر الأمر، وأظن أنّه كان يعلم تمامًا أنّه لو هاتفكِ قبل أن يحقن الفتاة بذلك العقار لرفضتِ ما أراد فعله مع عدم تجهيزات السائق لسيارته.

وأردف:

- من نعم الله علينا أنّنا نعتاد الألم مع الوقت، ستنهضين من هذه الكبوة يومًا بعد يوم لتعودي إلى حياتك، ومَن يدري.. لعلّ نجاتكِ من هذا الحادث أيضًا بعدم وجودك معهم كان لحكمة ما.

وتابع ساخرًا:

- وإن كانْ هذا لا ينفي أنّكِ أكثر الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي سذاجةً، تارةً توافقين على تعريض حياتكِ أنتِ وإخوتك للخطر، وتارةً تحرقين معمل المعهد وتُعرضين نفسكِ لدخول السجن من أجل اختباراتي.

ابتسمتُ ابتسامة حزينة للمرة الأولى منذ يوم الحادث، فنظر إلى صورة سوزان الموضوعة داخل إطارها على الطاولة، وقال:

- ما زلت عند وعدي، إن قابلتها سأحرص على بقائي حلقة وصل بينكما، إن كان فضلٌ لأحد عليَّ في الوصول إلى تلك الوظيفة فهو لكِ.. وأنا لن أنسى ذلك أبدًا.

أومأتُ برأسي إيجابًا، وشكرته كثيرًا. يكفي أنَّها المرة الأولى منذ عودتي للبيت التي أتحدث فيها وأبوح بكل هذا القدر من الحديث، ووعدته بأن أحاول الخروج من الحيز الضيق الذي أسكنه منذ وفاة يونس ورحيل سوزان.

بعد أسبوعين من ذلك اللقاء.. اتخذتُ أولى الخطوات للتعافي، وأجبرت نفسي على الذهاب إلى عيادة أحد الأطباء النفسيين المشهورين في المدينة للمتابعة معه، وبمزيد من البوح الأسبوعي وبعض الأدوية النفسية على مدار أربعة أشهر أخرى. بدأتُ أخطو كطفل صغير خطوة وراء أخرى للتزحزح صعودًا من ذلك القاع المظلم.

لم أعرف شيئًا عن مريم وزوجها وحسان ومراد بعد ذلك، ولم أحاول أن أعرف، كان يكفيني ما حدث، نعم كانوا هم الرابحين أولًا وأخيرًا مما صار، لكنِّي كنت في قرارة نفسي أومن بأنَّني أستحق تلك الخسارة، عرفت من خالتي أيضًا في تلك الآونة أنَّ السيد شاهين رحل عن القرية قبل شهور، بعد أيام من تسليمه سوزانَ، لم أعطِ أيَّ انطباع، كانت أولى خطوات تعافيَّ أن أترك كل ما مضى وراء ظهري مثلما كان ينصحني طبيبي النفسي، والذي نصحني أيضًا بالانتقال للعيش في مكان آخر، رفضت تلك الفكرة في البداية، لكنِّي عاودت التفكير فيها بعد أقل من شهرين، وقد كان؛ انتقلتُ إلى العيش في شقة صغيرة في المنصورة الساحلية على مقربة من كلية الحقوق بعدما بعتُ بيتنا بكل ما فيه لمشترٍ من القرية، لم آخذ منه سوى ثيابي والصور القديمة التي جمعت عائلتنا، وبمبلغ صغير اشتريت سيارة خاصة مستعملة، لتنتهي بذلك

مرحلة في حياتي اسمها قرية الخالدية، وتبدأ مرحلة جديدة كنتُ أنا بطلتها الوحيدة، لا أُسرة، ولا أقارب، ولا أصدقاء حتى، فقد اختفى رامي من حياتي فجأةً هو الآخر دون سابق إنذار، لكنِّي وضعت له عذرًا في داخلي يتعلق بوظيفته الجديدة الحساسة. فاتتني امتحانات ذلك العام فلم أؤنب نفسي كثيرًا، وعزمت على المُضي قدمًا خلال الأعوام التالية، وواصلت حضوري جلسات المحاكمات مع العام الدراسي الجديد، وإن لم أهتم بتدوين ما يحدث فيها مثلما اعتدت أن أفعل سابقًا، كنت أحضر فحسب من أجل استهلاك أكبر قدر من ساعات النهار الطويلة قبل أن أعود إلى شقتي وأستذكر موادي الدراسية إلى أن يغلبني النعاس بفعل الأدوية المهدئة. أحيانًا كنت أفوِّت تلك الأدوية فتدور في بالي خيالات كثيرة تتعلق بحياة سوزان الحالية، فأترك لمخيلتي العنان لتُكوِّن قصصًا حالمة تنتهي بلقائنا مجددًا، أو قصصًا أخرى تدور عن طفليَّ القادمين مستقبلًا عندما يُزرعان في رحم إحدى الخلايا الزرقاء تكون هي سوزان صدفةً. أخبرت طبيبي النفسي بذلك الأمر، خيَّرني بأن يعطيني دواءً آخر يحفز نومي ليلًا أو يتركني ورغبتي إن أردت إكمال تلك الخيالات ما دامت لا تزعجني، فآثرتُ أن أكملها.

بعد أحد عشر شهرًا تقريبًا من الحادث، عثرت صدفةً على إعلان لمجموعة دعم تنظم اجتماعًا نصف شهري لأُسر الخلايا الزرقاء في مقر يتبع وزارة الإنجاب، تجاهلت ذلك الإعلان أكثر من مرة في البداية، لكنَّ الفراغ والشيطان اللذين يقبعان في داخلي دفعاني إلى الرغبة في تجربة حضور إحدى تلك الجلسات، ووجدت قدميَّ تأخذانني إلى مقر تلك المجموعة الواقع في الطابق الأرضي لإحدى بنايات وسط المدينة، طلبتْ مني موظفة الاستقبال هناك اسم الخلية الزرقاء التي أتبعها، قلت:

- سوزان حلمي نوح.

نقرت بإصبعها على الشاشة أمامها، وسألتني وهي تنظر إلى الشاشة:

- سُلِّمتْ شهر ديسمبر الماضي؟

قلت:

- نعم.. في آخر أيامه.

فابتسمتْ وأشارت إليَّ كي أدلف إلى الداخل. لم يكن الحضور كبيرًا كما تصورت، ثماني حاضرات فقط، جميعهن نساء تماثل أعمارهن عمر أمي إن كانت لا تزال على قيد الحياة، ظننت أنّي حضرت باكرةً مع ذلك العدد الضئيل، لكن الجلسة بدأت ولم ينضم إلينا أحد آخر، قادت الجلسة أكبرهن سنًّا؛ سيدة ستينية العمر ينتشر الشيب في شعرها، وتُغطي وجهها تجاعيد عميقة حزينة، رحَّبت بي بحرارة وقالت إنَّ اسمها السيدة «زهراء»، وسألتني أن أُعرِّف بنفسي، فقلت:

- اسمي ليلى حلمي نوح، أخت الخلية الزرقاء سوزان حلمي نوح.

سألتني إن كنت أريد التحدث، فأومأتُ برأسي نافية في خجل، وآثرتُ البقاء صامتةً لأستمع إليهن.

تحدثتْ كل واحدة عن قصة ابنتها عدا امرأة خمسينية صهباء الشَّعر، ذات عينين رماديتين، قالت اسمها فحسب؛ السيدة «فريدة»، وظلَّت صامتة مثلي. تأثَّرتُ كثيرًا مع قصة كل امرأة منهن، وإن لاحظتُ -في الوقت نفسه- عدم تأثر البقية مُطلقًا من حديث أي متحدثة أخرى، وكأنهنَّ اعتدن تكرار ذلك الحديث في كل جلسة إلى أن فقد معناه. مع انتهاء المتحدثة السادسة من سرد قصتها شعرتُ أنَّ حضوري إلى ذلك المكان لن يجلب لي إلا مزيدًا من البؤس والتعب النفسي، وعندما اختتمتْ السيدة زهراء النقاش قائلةً بفخر إنها تواظب على حضور هذه الجلسات

منذ خمسة عشر عامًا.. أيقنتُ مع ذلك الحزن الباقي على وجهها أنَّ آخر مكانٍ لتجاوز أزمة فقدان ابنتك أو أختك ذات الياقة الزرقاء هو ذلك المكان، وقررتُ داخل نفسي أن تكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أحضر فيها تلك الجلسات.

في الأيام التالية واصلتُ حياتي الروتينية كما هي دون جديد، الغريب أنّي وجدتُ نفسي بعد أسبوعين أعاود الذهاب إلى مقر مجموعة الدعم، لم أتحدث في تلك المرة أيضًا وجلستُ أستمع إلى القصص ذاتها التي حَكَيْنَها في المرة الأولى، وظلت السيدة فريدة صامتة هي الأخرى في تلك الجلسة أيضًا.

في تلك المرة تجولت في أرجاء المكان بعد انتهاء الجلسة، كانت هناك قاعة جانبية صغيرة مواربة الباب، تُغطّي مجموعةٌ من الصور أحدَ حوائطها بالكامل، دلفتُ في فضول إلى داخلها واقتربت من ذلك الحائط ووقفت أمام تلك الصور، وجدتها صورًا متجاورة لأمهاتٍ، وأسفل كل صورة أمٍ صورة ابنتها ذات الرحم، كانت أعمار جميع الفتيات في تلك الصور تتراوح بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة تقريبًا، عدا صورة الفتاة المُعلقة أسفل صورة السيدة الصامتة فريدة، لم يكن يتجاوز عمرها سبعة أو ثمانية أعوام على أقصى تقدير، أثار ذلك تعجبي بعض الشيء، ثم أجفلتُ عندما دلفتْ موظفة الاستقبال إلى الغرفة فجأة، فاعتذرتْ قائلةً:

- آسفة، لم أعرف أنكِ هنا.

قلت باسمةً:

- لا يهمك.

قالت وهي ترص بعض الكتب في مكتبة زجاجية تلاصق حائطًا آخر:

- إن واصلتِ حضور الجلسات فسأطلب منكِ صورة لكِ ولأختكِ لتُعلَّق مع هذه الصور.

قلت وأنا أنظر إلى صورة ابنة السيدة فريدة:

- سأفكر في هذا الأمر.

وتابعتُ متسائلةً في فضول:

- لماذا لم تضع السيدة فريدة صورة أكبر سنًا لابنتها؟

قالت:

- إنَّها تواظب على حضور الجلسات قبل التحاقي بالوظيفة هنا، وأثارت الصورة نفسها فضولي سابقًا مثلكِ تمامًا، حتى عرفتُ أنَّ ابنتها ماتت باعتلال في القلب في سن مبكرة، واستثنتها الجمعية هنا لحضور الجلسات.

ضممت شفتيَّ إشفاقًا عليها وهززت رأسي آسفةً على مصابها، ثم أكملتُ تجوالي في المكان.

بعد أسبوعين كانت المرة الأولى التي أتحدث فيها خلال الجلسة، قلت بخجل:

- اسمي ليلى كما تعرفن، كانت أختي الصغرى خلية زرقاء، وانضمت إلى محميات بنك التخصيب قبل عام تقريبًا، توليتُ رعايتها أربعة أعوام بعد وفاة أبويَّ في حادث أليم.

كانت النساء ينظرن إليَّ مترقبات كل كلمة أقولها، وسرعان ما ارتسمت ملامح التعاطف على وجوههن جميعًا عندما تحدثتُ عمَّا جرى يوم تسليم الفتاة، وعن فقدي أخي وأختي في يوم واحد، إلى أن انتهيتُ فرفعت كتفيَّ وقلت والدموع في عينيَّ:

- ما زلتُ أفتقد الفتاة كثيرًا، وكذلك الفتى بالطبع.

بدأنَ في مواساتي فشكرتهن، ثم أخذن يحكين قصصهن المكررة من بعدي.

عندما انتهينا، وكنت في طريقي للمغادرة، أوقفتني السيدة فريدة وسألتني دون مقدمات بصوت هادئ للغاية:

- هل كانت أختكِ مريضة بمرض قلبي مزمن أم ما الذي سبَّب لها تلك الأزمة القلبية التي تحدثتِ عنها؟

أجبت بتوجس من سؤالها المفاجئ:

- لا أعرف، حدث كل شيء فجأةً، واضطر الطبيب المعالج إلى نقلها للمستشفى، ومع وقوع ذلك الحادث وفقداني وعيي بعد موت أخي.. لم أعرف شيئًا عن الفحوصات التي أجرتها هناك.

وأردفتُ كأني أتذكر:

- لكنَّها لم تشتكِ من قبل بشيء مماثل.

وهممتُ بالمغادرة، فقالت:

- الأكسيدوفرين.

توقفتُ مكاني بصدمة، خاصةً أنّي لم أذكر الجزء المتعلق بذلك العقار عند سردي قصتي، وبوجه مضطرب سألتُها:

- ماذا؟!

قالت:

- إنَّها أعراض عقار الأكسيدوفرين.

قلت:

- عفوًا.. لا أفهمكِ سيدتي.

تجاهلتْ قولي وسألتني:

- منذ متى سُلِّمتْ أختكِ تحديدًا؟

حسبت التاريخ في رأسي، وقلت:

- منذ عام وبضعة أيام.

هزَّت رأسها كأنَّها تذكرت أنّي ذكرت موعد تسليمها في أثناء حديثي خلال الجلسة، ثم قالت:

- لا بد أنَّها مُحتجزة الآن في محمية جنوب سيناء.

سألتُها بتعجب على الفور:

- كيف عرفتِ؟

قالت:

- لقد عملتُ في تلك المحمية مدة عامٍ ونصف، وتعودت استقبال الخلايا ذات القلوب المريضة هناك، ستقضي في ذلك المكان عامين كاملين قبل أن ترحل عنه.

وسكتت فجأة كأنها ابتلعت كلامها، فاحمرَّ وجهي سريعًا، وسألتها بلهفة:

- هل ما تقولينه سيدتي شيء مؤكد أم مجرد توقع؟

صمتت لوهلة ثم قالت:

- ما دامت شريحة العلامات الحيوية المزروعة في جسدها قد سجَّلت ذلك الاضطراب الذي أصاب قلبها فستُرسل إلى محمية جنوب سيناء في أثناء فرز الخلايا في محمية العاصمة، مثلما تنص اتفاقية الخلايا الزرقاء على عدم خضوع أي فتاة مشكوك في كفاءة قلبها للحمل قبل بقائها عامين تحت الإشراف الطبي وإعادة تقييم حالتها من جديد.

أصابني الارتباك كليًا وأنا أفكر أننا نجحنا في الجزء الخاص بإبعاد سوزان عن محمية العاصمة، وسألت السيدة من جديد:

- منذ متى تركتِ العمل في المحميات سيدتي؟

قالت بنبرة حزينة:

- منذ وفاة ابنتي، قبل ثلاثة عشر عامًا.

زممتُ شفتيَّ وقلت بمسحة من خيبة الأمل:

- لا بد أنَّ هناك أمورًا كثيرة قد تغيرت خلال هذه المدة الطويلة.

قالت باقتضاب:

- لا أعتقد، خاصَّة في ذلك الأمر.

فسألتُها:

- هل كانت ابنتكِ مريضة قلبٍ حقًّا؟

أشاحت لي بيدها كي تُنهي حديثنا، وتركتني ومضت مُغادرةً، فقلتُ مستدركةً:

- أعتذر سيدتي، أشكركِ على كل حال.

حينما عدتُ إلى شقتي.. لم يغادر ذهني ما قالته تلك المرأة، وددت لو كان رامي معي فأخبره بما عرفته، ووجدت نفسي أهاتفه، لكن كما هو الحال منذ أشهر، جاءتني الرسالة الصوتية التي تؤكد أنَّ هاتفه مغلق، فكرت للمرة الأولى في الذهاب إلى بيته بعد أسبوع من ذلك الحوار مع السيدة فريدة، كنت أعرف أنَّه يسكن في الحي الغربي من المدينة، لكنِّي لم أكن أعرف عنوانه فيه تفصيلًا، فذهبت إلى معهد العلوم، وسألت موظف الخريجين هناك عن عنوانه مُدَّعيةً رغبتي في إيصال شيء مهم له، رفض الرجل رفضًا قاطعًا بحجة عدم وجود أمر رسمي له بذلك، حاولت إيهامه بأهمية الأمر فلم يُجْدِ رجائي معه، خرجت مُستاءةً من

أصابني الارتباك كليًا وأنا أفكر أننا نجحنا في الجزء الخاص بإبعاد سوزان عن محمية العاصمة، وسألت السيدة من جديد:

- منذ متى تركتِ العمل في المحميات سيدتي؟

قالت بنبرة حزينة:

- منذ وفاة ابنتي، قبل ثلاثة عشر عامًا.

زممتُ شفتيَّ وقلت بمسحة من خيبة الأمل:

- لا بد أنَّ هناك أمورًا كثيرة قد تغيرت خلال هذه المدة الطويلة.

قالت باقتضاب:

- لا أعتقد، خاصّة في ذلك الأمر.

فسألتُها:

- هل كانت ابنتكِ مريضة قلب حقًّا؟

أشاحت لي بيدها كي تُنهي حديثنا، وتركتني ومضت مُغادرةً، فقلتُ مستدركةً:

- أعتذر سيدتي، أشكركِ على كل حال.

حينما عدتُ إلى شقتي.. لم يغادر ذهني ما قالته تلك المرأة، وددت لو كان رامي معي فأخبره بما عرفته، ووجدت نفسي أهاتفه، لكن كما هو الحال منذ أشهر، جاءتني الرسالة الصوتية التي تؤكد أنَّ هاتفه مغلق، فكرت للمرة الأولى في الذهاب إلى بيته بعد أسبوع من ذلك الحوار مع السيدة فريدة، كنت أعرف أنَّه يسكن في الحي الغربي من المدينة، لكنَّي لم أكن أعرف عنوانه فيه تفصيلًا، فذهبت إلى معهد العلوم، وسألت موظف الخريجين هناك عن عنوانه مُدَّعيةً رغبتي في إيصال شيء مهم له، رفض الرجل رفضًا قاطعًا بحجة عدم وجود أمر رسمي له بذلك، حاولت إيهامه بأهمية الأمر فلم يُجْدِ رجائي معه، خرجت مُستاءةً من

مكتبه، وبينما كنت في طريقي إلى الخارج إذ لمحت «سمر»، زميلة الصف القديمة التي تحدثتْ للمرة الأولى أمامي في قاعة المحاضرات عن رامي، وقالت إنَّها تعرفه قبل التحاقهما بالمعهد، فأسرعت إليها، تعجبتْ من وجودي، أخبرتها عن حاجتي إلى معرفة عنوان رامي لأمر مهم، قالت:

- الحي الغربي، منطقة مساكن القضاة، شارع الأئمة، البناية الثالثة.

وأردفتْ:

- لكن على حد علمي، فالفتى انتقل من المدينة هو وأسرته منذ صدور قرار تعيينه رسميًا.

شكرتها وغادرت، كانت الفتاة مُحقة، كان البيت موصدًا بباب حديدي عندما ذهبت إلى هناك، حتى جيرانهم لم يعرفوا المدينة التي رحلوا إليها، وقالت إحداهن:

- استيقظنا ذات صباح فلم نجدهم.

عدت إلى البيت وذهني فاقدٌ تركيزه تمامًا، وعندما حاولت أن أنام أبى النوم أن ينصاع إليَّ مطلقًا، وبدأ عقلي يُكوِّن قصصه الحالمة من جديد بعدما تركتني طوال الأيام السابقة، وصار نومي منتظمًا دون مهدئات، فلُمتُ نفسي لمواصلة الذهاب إلى جلسات مجموعة الدعم والنبش فيما مضى، لا سيَّما أنَّ تلك الخيالات ظلَّت تعمل في رأسي كالمحركات الدائرة دون توقف.. حتى أصبحت الساعة التاسعة صباحًا، فنهضت مستسلمة من سريري وأمسكت بعلبة الأقراص المهدئة كي أتناول قرصًا منها، إلا أنَّني ما إن أخرجت ذلك القرص حتى سمعت مؤقتي يطلق صافرة إشعار قصيرة، تعجبت من إطلاقه تلك الصافرة في ذلك التوقيت غير المعتاد، وتقدمت إليه وأمسكته بيدي لأرى ذلك الإشعار، فجمدَ جسدي

واتسعت حدقتا عيني استغرابًا؛ منحني مؤقت آخر فرصة إنجاب فورية،
لتصبح عدد فرصي ثلاث فرص!

نظرت إلى تاريخ اليوم؛ الرابع عشر من يناير 2337م، ومعه شعرت
أنَّ تفكيري قد شُلَّ تمامًا مما جالَ فيه، أكمل يونس عامه السادس عشر
قبل ساعات!

10

لا أتذكر المدة التي قضيتها متسمِّرةً في مكاني وأنا أحدِّق إلى شاشة المؤقت كي أستوعب أنِّي غير عالقةٍ في حلم ما، كيف حدث ذلك؟! وهل جاءت هذه الفرصة عن طريق الخطأ أم ماذا؟ ولماذا جاءت في هذا التوقيت بالذات؟ وإن لم يكن في الأمر خطأ ما.. فكيف وصلت إليَّ ويونسُ في عداد الأموات؟! من ذا الذي يعرف بأمر تلك الفرصة غيري وغيره؟! هل أوصى أحدًا بإكمال ما تعهَّد لي به قبل عام؟! ومن هو ذلك الشخص الذي يفي بوعد ثمين إلى هذا الحد؟!

ومع تلك الأسئلة المتخبطة في رأسي وجدت نفسي أختطف هاتفي وأهاتف خالتي ثريا. حين سمعتْ صوتي المرتبك سألتني في قلق:

- ليلى! هل أنتِ بخير؟!

أجبتها:

- نعم خالتي، أعتذر عن الاتصال في هذا التوقيت المبكر، لكني أريد أن أسألكِ عن شيء ما.

سألتني بقلق أكبر:

- أي شيء؟!

قلت:

- هل تحدَّث إليكِ الرجل الذي اشترى بيتنا عن وصول مؤقت يونس عبر البريد؟

صمتت لثوانٍ كأنَّها تستوعب سؤالي، ثم قالت:

- تعرفين أنَّ الموتى لا يمتلكون مؤقتات أبدًا يا ليلى.

قلت:

- نعم أعرف، لكن هل تحدث إليكِ الرجل بشأن وصول أي مؤقت إلى بيتنا؟

قالت:

- لا.

وتابعتْ متسائلةً:

- ما الأمر؟

قلت:

- لا شيء، سأخبركِ لاحقًا.

دمدمتْ مستغربةً:

- كما تريدين.

أنهيت المكالمة والمؤقت في يدي، وواصلت تحديقي إلى الرقم الكبير المُكوَّن من أحد عشر رقمًا، الذي حوَّل فرصة الإنجاب لي، كنت أعرف أنَّه من المستحيل معرفة صاحبه ما لم يخبرني هو بنفسه، لا سيما أن بنك التخصيب يحافظ بشدة على سرية بياناته ولا يطلِّع نظامه على المعاملات بين المؤقتات تاركًا لكل شخص حرية التصرف في فرص إنجابه. بعدها نهضت وبدَّلت ثيابي واستقللت سيارتي إلى قريتنا

متجهةً إلى بيتنا القديم، وهنالك اعتذرت لمالكه الجديد الذي اندهش من زيارتي المفاجئة، قبل أن أقول له:

- سيدي، يوجد أمر طارئ أود سؤالك بشأنه.

هزَّ رأسه مستفهمًا، فسألته على الفور:

- هل وصل أي مؤقت إلى البيت خلال الساعات الماضية؟

قال:

- لا، لم أغادر البيت منذ أمس، ولم يأتِ أحد من البريد.

هززتُ رأسي وأنا ضامّة شفتيَّ، وسألته أن يهاتفني إن جدَّ جديد، فوعدني بذلك.

وأنا عائدة إلى المدينة.. وثبتْ في عقلي تفصيلة صغرى تخص شهادة وفاة يونس، ومعها أسرعتُ بالسيارة إلى المستشفى التي انتقلنا إليها يوم حادثنا الأليم، سألتُ هناك موظف الاستقبال عن قسم تدوين حالات الوفاة، دلّني إلى أحد مكاتب الطابق الثاني. عندما سألتني موظفة ذلك القسم عن طلبي الذي جئتُ من أجله ادّعيتُ فقداني شهادة وفاة أخي، وحاجتي الماسّة إليها في أمر عائلي طارئ، كنت أعرف تمامًا أنَّ مثل هذه الشهادات توثّق بموثِق المستشفى فحسب دون ذكر اسم الطبيب صاحب تشخيص الوفاة، وهذا بالضبط ما أردتُ معرفته، بحثتِ السيدة على شاشتها عن اسم «يونس حلمي نوح»، وقالت:

- نعم إنَّ بياناته لديَّ هنا، سيستغرق الأمر أقل من نصف ساعة لإصدار شهادة جديدة.

ثم همهمتْ فجأة مستغربةً، وغمغمتْ حائرةً بصوت مسموع:

- كيف حدث هذا الخطأ؟!

نهضتُ من مقعدي ووقفت بجوارها ونظرت أنا الأخرى إلى الشاشة دون أن أفهم الخطأ الذي تقصده، وسألتُها:

- ما الأمر؟

قالت:

- لا أعرف كيف لم تُرسَل بيانات هذه الشهادة إلى وزارة الداخلية حتى الآن!

ونظرتْ إليَّ وسألتني بتشكك:

- أكنتِ تمتلكين شهادة وفاة لذلك الشخص حقًّا؟

قلت بارتباك وأنا أفكر في الشهادة التي وصلت إليَّ عبر البريد بعد أيام من خروجي من المستشفى:

- نعم.. أكيد.

لكنِّي أصررت على كذبتي بأنِّي فقدتها، ضمَّت المرأة شفتيها بحَيرة أقل ثم أطلقت تنهيدة وهزَّت رأسها قائلة:

- أحمد الله أنَّها وصلت إليكِ، ربما حدث خطأ ما في النظام الرقمي للمستشفى.. وإلَّا عوقبنا جميعًا، على كل حال سأعيد إرسال البيانات من جديد.

وبدأتْ تُدوِّن بعض التواريخ في الخانات الخاوية أمامها وأنا أقف بجوارها، ثم هبطت لأسفل الصفحة الظاهرة أمامها، فطلبتُ منها أن تتوقف عندما رأيتُ اسم الطبيبة التي وقَّعت تشخيص الوفاة، وكما شعر حدسي الداخلي وأنا في طريقي إلى المستشفى؛ كانت الطبيبة المشخِّصة للوفاة هي نفسها الطبيبة «مريم مجدي نبيل»، وسألتُها بحَيرة كبرى:

- ألا تعمل الطبيبة مريم في مستشفى جنوب المدينة؟!

قالت:

- ما أعرفه أنها كانت تقضي أيام عملها بين هنا وهناك.

كانت المرة الأولى التي أعرف فيها ذلك الأمر، فسألتُها على الفور:

- أين يمكنني أن أراها؟

قالت:

- لقد انتقلت من المستشفى قبل عام تقريبًا.

وأردفتْ:

- ولا أعرف المكان الذي تعمل فيه الآن.

هززتُ رأسي وخرجتُ سريعًا مغادرةً، فصاحت إليَّ السيدة:

- ربما يأخذ الأمر أيامًا لتوثيق شهادة الوفاة.

قلت:

- لا عليكِ سيدتي، سآتي لاحقًا لأخذها، شكرًا لكِ.

وبتشتت كبير ويدٍ مرتعشة وعقلٍ يضج بأسئلة يخشى أن يجيبها.. حاولتُ مهاتفة الطبيبة مريم أكثر من مرة، بَيْد أنَّ هاتفها لم يكن متاحًا قط، فهرولتُ إلى سيارتي للذهاب إلى قرية «قِبارة»، حيث تعيش هي وزوجها.

***

وصلت إلى القرية في تمام الثانية ظهرًا، طرقت الباب وانتظرت وقلبي يخفق بقوة، فتحت الباب بعد دقائق سيدة لا أعرفها، سألتُها مستغربةً عن الطبيب ريمون وزوجته، قالت إنها أتت إلى القرية قبل عام واحد فقط، واشترت ذلك البيت من السيد ريمون، ولا تعرف عنه أي شيء آخر، عدت سريعًا إلى سيارتي وكل خلية من خلايا عقلي

قالت:

- ما أعرفه أنَّها كانت تقضي أيام عملها بين هنا وهناك.

كانت المرة الأولى التي أعرف فيها ذلك الأمر، فسألتُها على الفور:

- أين يمكنني أن أراها؟

قالت:

- لقد انتقلت من المستشفى قبل عام تقريبًا.

وأردفتْ:

- ولا أعرف المكان الذي تعمل فيه الآن.

هززتُ رأسي وخرجتُ سريعًا مغادرةً، فصاحت إليَّ السيدة:

- ربما يأخذ الأمر أيامًا لتوثيق شهادة الوفاة.

قلت:

- لا عليكِ سيدتي، سآتي لاحقًا لأخذها، شكرًا لكِ.

وبتشتت كبير ويدٍ مرتعشة وعقلٍ يضج بأسئلة يخشى أن يجيبها.. حاولتُ مهاتفة الطبيبة مريم أكثر من مرة، بَيْدَ أنَّ هاتفها لم يكن متاحًا قط، فهرولتُ إلى سيارتي للذهاب إلى قرية «قِبارة»، حيث تعيش هي وزوجها.

***

وصلت إلى القرية في تمام الثانية ظهرًا، طرقت الباب وانتظرت وقلبي يخفق بقوة، فتحت الباب بعد دقائق سيدة لا أعرفها، سألتُها مستغربةً عن الطبيب ريمون وزوجته، قالت إنها أتت إلى القرية قبل عام واحد فقط، واشترت ذلك البيت من السيد ريمون، ولا تعرف عنه أي شيء آخر، عدت سريعًا إلى سيارتي وكل خلية من خلايا عقلي

صارت توقن أنّه يوجد أمرٌ ما يخص وفاة يونس غير منطقي، وبدأتُ أسترجع أحداث يوم الحادث تباعًا في رأسي، جاهزية سيارة الإسعاف، وثقة يونس للحظة الأخيرة بقدوم مريم وحسان، وتبديل الخطة المُتفَق عليها، ووجدت نفسي أوقف السيارة فجأة لأسأل نفسي: «أيعقل أن يكون الفتى ما زال على قيد الحياة؟ أيعقل أن يكون كل ما حدث من تدبيره؟ أيعقل أن يكون قد استخدمني واستخدم معرفتي بأمر محرومي الإنجاب لتسيير الأمور نحو نقطة معينة أرادها؟ أيعقل أن تكون مريم شريكته في ذلك الأمر؟ وإلا لماذا كانت هي التي وقّعت شهادة وفاته دون غيرها؟ ولماذا لم تُرسَل شهادة الوفاة إلى وزارة الداخلية؟ ولماذا لم تخبرني عن عملها في ذلك المستشفى؟ ولماذا اختفت هي وزوجها؟ ولماذا افتعل حسان تلك الطريقة في الحادث بعد الابتعاد بسيارته عنًا لأكثر من مِيل؟».

وفي تلك اللحظة همست إلى نفسي: «حسان!»، وانطلقت بالسيارة من جديد إلى المدينة، إذ اتجهتُ بسرعة لم أبلغها من قبل إلى حي الأجانب، وهناك طرقتُ باب شقة التوءمين، بعد الانتظار طويلًا أمام الباب وتسلُّل الشعور إليَّ بأنّهما قد غادرا الشقة أيضًا، فتح مراد الباب أخيرًا، كان المرض يظهر عليه أكثر من المرة الأخيرة التي رأيتُه فيها، ازدردتُ ريقي بتوتر، ثم سألته:

- أين حسان؟

أدخلني إلى الردهة، ثم قال:

- لم أرَه منذ وقت حادثكم.

قلتُ مستغربةً:

- أنالَ عقابًا نتيجة سقوط سيارة الإسعاف؟

قال:

- لا، برَّأه القاضي بعدما شهد قائد مخفركم بأنَّه لم يُخطئ، وبعدها بأيام اختفى.

سألتُه بنبرة أكثر استغرابًا:

- السيد شاهين؟!

قال:

- نعم، أظن أنَّ اسمه كان كذلك.

اندفعتْ كل دماء جسدي إلى وجهي، وقلت:

- كيف؟!

رفع مراد كتفيه كأنَّه لا يعرف الإجابة هو الآخر، ثم أشار نحو مؤقته الموضوع على طاولة صغيرة في ركن الردهة:

- لقد وصلت إليَّ فرصة إنجاب إضافية صباح اليوم.

نظرتُ إلى المؤقت، ونهضت واقتربت منه، وقلت لمراد:

- هل لكَ أن تريني الرقم الذي حوَّل لك تلك الفرصة؟

هزَّ رأسه إيجابًا، فأحضرتُ له مؤقته دون أن ينهض من موضعه، وضع بصمة إبهامه موضع البصمة على الشاشة الأمامية فأنارت، وأخذ يحرك إصبعه عليها حتى أراني الرقم، كان الرقم نفسه الذي حوَّل فرصة الإنجاب إليَّ، فسألته على الفور:

- هل هذا هو رقم أخيك؟

قال:

- لا.

أخرجتُ زفيري حيرةً، كانت الأمور تتعقد في رأسي أكثر فأكثر، ثم سألته:

- هل تعرف شيئًا عمّا حدث يوم الحادث؟

صمت لثوانٍ متذكرًا، ثم قال:

- طلب منّي حسان، بعد زيارتكم الأخيرة لنا بثلاثة أيام، أن أعيد مخطط تأمين السيارة كي تصبح مؤهلةً من الداخل لتحمل السقوط من ارتفاع خمسة عشر مترًا على أرض صلبة.

كاد قلبي يتوقف من شدة خفقانه وأنا أستمع إلى مراد، وهمستُ إلى نفسي: «كان ينوي القيام بذلك!».

أردف مراد:

- حذّرته كثيرًا من ذلك، لكنّه أصرّ بقوة، ووعدني بهذه الفرصة الإضافية، رفضتُ بالطبع، لكنّه واصل إلحاحه، فوافقت في النهاية على إجراء ذلك التعديل، لطالما شعر حسان أنّه قصّر في حقي عندما تركني مريضًا ودخل السجن، ولطالما عمل في كل لحظة بعد خروجه من السجن كي يعوضني بأكثر مما أستحق لعلّي أعيش حياة أفضل مما عشتها سابقًا، لم أكن أعرف أنّه في سبيل تلك الفرصة اللعينة سيختفي بهذه الطريقة.

وتابع وعيناه تلتمعان بدموعهما:

- ظننتُ أنّه مات في مكان ما، لكن مع تلك الفرصة التي أتت اليوم.. أدركتُ أنّه يعيش في مكانٍ آخر لا يريدني معرفته.

ثم سكتَ، جلستُ على مقعد في مواجهته وسألته وأنا أنظر إلى عينيه:

- إن كان قد برّأه القاضي، فلماذا يختفي الآن؟

قال:

- هذا ما لا أستطيع فهمه أيضًا.

كنت أشعر بالصدق في حديثه، فنهضت وربَّتُّ على يديه مواسيةً له، كان واضحًا أنَّ الأمر الذي حدث ولم أفهمه قد أُخفي عنه هو الآخر لسبب لا يعرفه كلانا، ثم تركتُه وأنا أحاول أن أضع في رأسي مبررات منطقية لشهادة السيد شاهين في المحكمة لصالح حسان، لكنّي فشلت في إيجاد مبررٍ واحد، لقد كنت حاضرة معه ثانية بثانية يوم الحادث، وكنت أكثر من شعر بمدى التوتر الذي كان يصيبه وقتها، فجأةً تذكرتُ أنَّه ترك العمل بقريتنا هو الآخر في التوقيت نفسه الذي اختفى فيه حسان ومريم وزوجها، لأسأل نفسي غير مصدقةً: «كان مشاركًا في الأمر هو الآخر؟! ما هذا الذي يحدث؟ وما الهدف من ورائه؟ الآن صرت على يقين أنَّ عدم إرسال بيانات شهادة وفاة يونس إلى وزارة الداخلية لم يكن سهوًا قط، لكن إن كان الفتى قد خدعني وخدع الجميع بموته، فأين هو الآن؟ وإلامَ يخطط؟».

صارت الحَيْرة هي العنوان الوحيد لأشهري التالية، بعدما قضيت أيامها جميعًا أواصل الذهاب إلى بيتنا القديم وإلى بيت الطبيبة مريم وإلى شقة حي الأجانب وإلى مخفر الشرطة؛ من أجل البحث عن بداية خيط يقودني إلى معرفة ما حدث، إلا أنني لم أصل إلى نتيجة، هاتفني مشتري بيتنا وأخبرني أنَّ شهادة وفاة جديدة ليونس وصلت إليه عبر البريد، عرفتُ حينها على الأقل لماذا اختفت مريم، لا بد أنَّها كانت ستتعرض للعقاب، وأنَّ كثيرًا من التحقيقات ستُجرَى إن كان المؤقت الذي أرسَل إليَّ وإلى مراد فرصتَي الإنجاب يخص يونس حقًّا. غير ذلك لم يحدث أي جديد، ومرَّت الأيام والأشهر تباعًا، ومع كل ساعة فيها كان التيه والضياع ينهشان خليةً جديدة في جسدي، إلى أن جاء ذلك اليوم بعد تسعة أشهر تقريبًا من

وصول تلك الفرصة، وكنت جالسةً في قاعة المحكمة أستمع إلى مرافعة أحد المحامين عن موكّله، وإذ بهاتفي يشير إلى وصول رسالة نصية من رقم ما، التقطتُ هاتفي بتكاسل في البداية، لكنّي سرعان ما أعدتُ قراءة الرسالة بقلب مضطرب، كانت الرسالة تقول:

«كان لا بد من فعل ذلك يا ليلى، لم أُرِد أن أورطكِ في أمر بهذا الخطر، لكنّي لم أكن لأترك سوزان أبدًا مهما كلفني ذلك الأمر، سامحيني.. ستسمعين أخبارًا سعيدة قريبًا».

بقلب يدق بقوة خرجتُ من القاعة أهرول، حاولت الاتصال بالرقم الذي أرسل الرسالة.. لكن الاتصال لم يكتمل قط، عدت إلى شقتي وجلستُ على سريري أحدق إلى هاتفي، وتهتز قدماي دون أن أستطيع السيطرة عليهما وأنا أتمتم لاهثةً: «لا يزال على قيد الحياة، لا يزال على قيد الحياة». وحاولت الاتصال بالرقم ذاته مئات المرات.. لكن دون جدوى.

بعد ساعات ألقيت الهاتف على السرير بجواري، وأحنيت جسدي واضعةً رأسي بين كفّيَّ من الإرهاق العصبي الذي أصابني، قبل أن أثب من موضعي عندما رنَّ جرس الباب، لمحت بعيني الساعة الرقمية الموضوعة على رف مُعلّق على الحائط، كانت تشير إلى التاسعة والثلاثين دقيقة مساءً، لم أعتَد أن يزورني أحد في ذلك التوقيت قط، بمشاعر متخبطة همستُ إلى نفسي وأنا أنظر إلى الهاتف: «أيعقل؟!».

وأسرعتُ إلى باب الشقة لأفتحه، هنالك تسمَّرتُ مكاني وأنا أحدق إلى الواقف أمامي، لم يكن يونس كما تمنيت، كان رامي إسماعيل. قال باقتضاب دون مقدمات:

- لديَّ رسالة من سوزان.

لم أشعر بنفسي، وفقدتُ الوعي في الحال.

11

- لقد أخفتني حقًا.

قالها رامي وهو يناولني كوب الماء بعدما حملني إلى أريكة الردهة وأفاقني، قلت له بإعياء شديد:

- أشعر كأنني في حلم ما، إن ما يحدث لي كثير جدًا بالنسبة إلى شخص واحد.

قال باسمًا وهو يتناول كوب الماء مني:

- يبدو أن كثيرًا من الأحداث قد فاتتني، ماذا حدث؟

لم أُرِد التحدث عما مررتُ به خلال الأشهر الماضية، أو عما اكتشفته بخصوص يونس، وسألته متجاهلةً سؤاله:

- لماذا اختفيت فجأة؟ وهل التقيت بسوزان حقًا؟

قال:

- لقد انتقلتُ أنا وأسرتي إلى العاصمة بأمر من بنك التخصيب المركزي، وهناك خضعت لتدريبات مكثفة على العمل في المحميات، ولم أستطع أن أغادر إلى أي مكان آخر طوال تلك المدة، وكذلك قصدت ألا أهاتفكِ، إنهم يُخضِعوننا لمراقبة صارمة، وخشيت أن نتحدث هاتفيًا ذات مرة فتأتي بذكر سوزان فيُظَن

أني خائن من نوع ما، وأُستبعَد أو أُعاقب بأي طريقة أخرى، إلى أن التقيت بالفتاة.

قاطعتُه بترقب:

- محمية جنوب سيناء؟!

سألني مندهشًا:

- كيف عرفتِ أنها هناك؟

اتسعت حدقتا عينيَّ غير مصدقةً، وتابعتُ على الفور:

- أهي هناك حقًّا؟!

قال:

- نعم.

قلتُ:

- صدقتِ السيدة فريدة إذن.

وأردفتُ إليه بلهفة:

- وكيف هي الآن؟

أجابني:

- لم أتبادل معها الحديث إلا للحظات، عثرت على اسمها صدفةً في أثناء إجرائي بعض التحاليل لعينات دماء الخلايا هناك، لم أصدق أنها هي إلا عندما تسللتُ ذات مرة لقاعة تناول الطعام هناك من أجل التأكد من ذلك، ورأيتها.

وأضاف:

- كمختصٍّ بالتحاليل الطبية، لا يُسمح لنا بالاقتراب من الخلايا إلا في نطاق محدود للغاية، غير أني لم أنسَ وعدي لكِ قط، انتظرتُ

كثيرًا حتى سنحت فرصة وحيدة للقائها في أثناء أخذ عينة دماء منها، لم تعرفني الفتاة، قلت لها وأنا أضع الإبرة الطبية في ذراعها: «إن ليلى بخير». نظرتْ إلى عينيَّ وكأنها لا تصدق، وكادت تتحدث، فأشرتُ إليها كي تصمت. إن المكان هناك مراقب مراقبة تامة بالكاميرات. هزَّت رأسها لي وصمتت، إنها فتاة ذكية للغاية. في تلك المرة قصدتُ إفساد العينة لنلتقي مجددًا بعد يومين، وخلال ذلك اللقاء أعطتني هذه الرسالة خفيةً.

وأخرج ورقة صغيرة مطوية وهو يقول:

- ظننت أن الخلايا لا يُجِدن الكتابة.

انفرجت أسارير وجهي وأنا أقول:

- علَّمها يونس كل شيء.

وفتحتُ الورقة سريعًا وهو يتابع:

- لم أقرأ ما كتبته الفتاة، إن هذا شيء خاص بينكما وأنا أحترم ذلك.

احتقن وجهي على الفور مع قراءتي كلماتها المكتوبة، فسألني:

- ما الأمر؟

طويت الورقة في راحة يدي، وقلت:

- إنها تفتقدني للغاية.

واستأذنته للغياب بعض الوقت، ودلفت سريعًا إلى غرفتي وقلبي يدق بقوة، كانت رسالة الفتاة مؤلفة من سبع كلمات: «أخبري الموتى أني أتمسك بالحياة في انتظارهم».

بجسد مضطرب وأنفاس لاهثة سألتُ نفسي وأنا أعيد قراءة الرسالة: «هل تعرف الفتاة أن يونس لا يزال على قيد الحياة؟!». ونظرتُ إلى

صورتي في المرآة، وسألت نفسي مجددًا: «وهل كان يونس يعرف بأمر محمية جنوب سيناء؟ هل دبّرا ذلك الأمر معًا؟».

ناداني رامي من الخارج وسألني إن كنت على ما يرام، خرجت له مرة أخرى، قال محذرًا:

- لا تخبري أحدًا مهما يكن أمر هذه الرسالة، إن الأمر قد يكلّفني وظيفتي وربما سجني.

قلت:

- لا تقلق يا صديقي، أعرف مدى خطر هذا الأمر، إني أشكرك من كل قلبي لتحمُّلكَ هذه المجازفة من أجلي.

رسم ابتسامة خفيفة على وجهه ثم قال:

- ما عرفته أن الفتاة ستمضي معنا ثلاثة أشهر أخرى قبل أن تغادر إلى محمية العاصمة من جديد.. ما لم يوجد سبب يمنعها من ذلك، أعتقد أني لن أستطيع إيجاد وسيلة للتواصل بينكما بعدها.

هززت رأسي في تقبل وقلت:

- تكفيني طمأنتكَ لي هذه المرة، لم أتوقع أن تلتقيا من الأساس.

قال باسمًا:

- في الحقيقة ولا أنا، إنها صدفة عجيبة.

ثم تابع بجدية:

- ماذا تريدين أن تخبري الفتاة؟

فاجأني ذلك السؤال، وكأنني نسيت أنه كان عليَّ الرد حقًّا، وصمتُّ لوهلة ثم قلتُ:

- هل لي أن أدوِّن رسالتي إلى الفتاة على ورقة أم أخبرك بها شفهيًا؟

قال:

- كما تريدين.

فكرتُ قليلًا في رسالتها، ثم قلت:

- قل لها إن الموتى باقون على العهد.

سألني مستغربًا:

- وماذا يعني ذلك؟

قلت:

- هي ستفهم، قل لها هذا فحسب.

رفع كتفيه وقال:

- حسنًا كما تريدين.

ثم نظر إلى ساعته كي يغادر، فقلت:

- هل سأراك مرة أخرى؟

قال وهو ينهض:

- سأعمل على ذلك، سأحاول زيارتكِ قريبًا لطمأنتكِ على الفتاة قبل مغادرتها محميتنا.

شكرته، ثم غادر، فعدت إلى الهاتف وحاولت الاتصال عشرات المرات بالرقم الذي أرسل منه يونس رسالته، لكن للأسف لم يعطِ الجانب الآخر من الخط أي رنين قط.

***

بعد ذلك اليوم.. لم يكن عليَّ سوى الانتظار، الفتاة كانت تعرف أن يونس على قيد الحياة.. كيف؟! لا أعرف. لكن مع تورط السيد شاهين في الأمر وكذلك حسان ومريم.. لم يعد لديَّ أي مسحة من الاستغراب تجاه أي جديد، بدا الأمر وكأني الوحيدة التي خالت عليها اللعبة، لا أعرف إن كانوا قد قرروا استبعادي من ذلك الأمر الذي يسعون إليه لسذاجتي في أعينهم جميعًا، أم أراد يونس وسوزان إبعادي عن أي خطر قد ينتج عما ينويان فعله؟! الفتى وقد أعلنها لي صريحة في رسالته بأنه لن يترك الفتاة مهما كلفه الأمر.. والفتاة تنتظر بثقة ذلك المتمرد الذي بدا وأنه وعدها بالأمر ذاته، والآن تريدني أن أكون حلقة الوصل التي تخبره بأنها تنتظره! ولولا أني أعرف رامي جيدًا لظننتُ أنه الآخر أحد أطراف هذه اللعبة الغامضة.

هاتفتُ مراد كثيرًا في الأيام التالية، رجوته أن يخبرني إن كان قد استطاع الوصول لحسان.. لكنه في كل مرة كان يقسم لي أن أخيه لا يزال مختفيًا. في إحدى المرات فلت لساني مني وقلت له إنني تلقيت رسالة من سوزان، شعرت بالقلق الشديد في صوته وخشيته مما إن كان أخوه يسعى للتورط في شيء خطِر، ووعدني بإخباري بأي مستجد قد يصل إليه.

بعد أيام قليلة من تلك المكالمة.. خطرت في بالي، وأنا في قاعة المحاضرات، العقوبةُ التي صادفتها سابقًا في حاسوب المحكمة العليا بشأن السيد شاهين، وهمستُ إلى نفسي وأنا أخطط بالقلم في دفتري خطوطًا عشوائيةً: «لا بد أن عنوانه القديم كان مُدوَّنًا في ملفه الرقمي هناك»، وبمجرد انتهاء المحاضرة ذهبت مباشرة إلى القاعة نفسها والموظف نفسه، الذي لم يتغير مع مرور قرابة عامين على زيارتي الأخيرة لها، وجلست إلى إحدى شاشات حواسيب القاعة، وبحثت على

الفور عن اسم «شاهين سعد الشلبي»، ظهرت لي صورته الشابة بجوار اسمه، ولجتُ إلى ملف قضيته، كان عنوانه المدوَّن يقع في قريةٍ اسمها «المحمدية»، تجاور مدينة المنيا القديمة. أخرجت زفيري ثم ضممت شفتيَّ ضيقًا، كان ذلك يعني سفري بالسيارة مدة ست ساعات على الأقل إن أردت الذهاب إلى ذلك العنوان، فسجَّلته في دفتري إلى إشعار آخر.

في نهاية ذلك الأسبوع هاتفني الرجل الذي اشترى بيتنا، قال إن محقق شرطة غريب الأطوار جاء إلى البيت وسأل عن عنواني الجديد، سألته:

- ماذا يريد؟!

قال:

- لا أعرف.. ظن أنكِ لا تزالين تعيشين هنا، سألني بعض الأسئلة عنكِ وعن أخيكِ المتوفى، لكنّي لم أستطع الإجابة عن شيء، فأعطيته رقم هاتفك، أظن أنه سيهاتفك في أقرب وقت.

قلت:

- حسنًا.

أنهى المكالمة، وكأني لم أعد أتأثر بأي حدث جديد.. لم يأخذ الأمر ذرة تفكير مني، وكل ما قلته لنفسي: «عندما يهاتفني سأفهم منه الأمر».. وخلدت إلى النوم.

هاتفني ذلك المحقق بالفعل في الصباح التالي، قال لي إنه يريد مقابلتي للاستفسار عن عدة أمورٍ تخص وفاة يونس، حاولتُ إخفاء أي ارتباك في نبرة صوتي، وادَّعيتُ تعجبي من ذكره أخي، فقال إن خطأً ما قد حدث ويوجد تحقيق يُجرى على نطاق واسع بعد اكتشاف تاريخ

وفاة الفتى الحقيقي، فأخبرته أنه لا مانع لديَّ من اللقاء والإجابة عن كل ما يحتاج إليه.

تقابلنا في الظهيرة في أحد المقاهي القريبة من شقتي.. وجدته شابًا في الثلاثينيات ممتلئ الوجه يرتدي بذلة سوداء بدا مقاسها غير مناسبٍ له، خاصةً مع بطنه الكبيرة، عرَّفني بنفسه أولًا:

- «شريف بهجت»، محقق في هيئة أمن المؤقتات، وهي هيئة تشرف عليها وزارتا الداخلية والإنجاب معًا.

وتابع بتعرقٍ زائد ولعثمة ملحوظة:

- حدث خطأ كبير.. تسلَّم أحد الأشخاص مؤقتَ أخيكِ قبل تسعة أشهر، ثم اكتشفنا، منذ شهرين في أثناء المراجعة السنوية لشهادات وفيات العام، وفاة أخيكِ قبل تسلُّم ذلك المؤقت بعام كامل.

بنوع من الاستغراب المصطنع قلت:

- نعم.. مات أخي في إثر حادث أليم يصعب نسيانه.

قال:

- نعم.. لقد اطَّلعتُ على تقرير وفاته في المستشفى بالفعل، وإن كنّا لا نستطيع حتى الآن الوصول إلى الطبيبة صاحبة تشخيص الوفاة.

قلت وأنا أفكر في سرية المعاملات بين المؤقتات، التي لن تجعله يعرف أني تلقيت فرصة إنجاب من مؤقت يونس بالفعل:

- لقد تفاجأتُ بالأمر منك.. لقد تركت البيت بعد وفاة أخي، ولم يُحدِّثني المشتري عن وصول أي مؤقت هناك بعد رحيلي.

قال:

- في الحقيقة لستِ أنتِ أو أخوكِ طرفًا في القضية، إننا نبحث الآن عن الشخص الذي تسلَّم المؤقت نيابة عن يونس، وخاصةً أنه أدخل بصمة مماثلة وبيانات سليمة تخصه قبل إرسال المؤقت بأيام، وطلب تغيير العنوان الذي يُرسل إليه المؤقت.

وأردف بعدما تنهد:

- لقد تسلَّم المؤقت في أحد مكاتب البريد الرئيسية في مدينة المنيا القديمة.. لا أعلم إن كان من سوء حظنا أن الكهرباء كانت معطلة في التوقيت نفسه ولم تستطع الكاميرات هناك تسجيل الدقائق التي سُلِّم فيها المؤقت أم كان الأمر مُخططًا له، وزاد الأمر صعوبةً خروج المؤقت عن نظام التتبع في اليوم نفسه كأن آخِذه أتلف شريحته.

وأضاف بنبرة التلعثم نفسها:

- أرجوكِ إن عرفتِ شيئًا عن الأمر هاتفيني على الفور، إن مديري يكرهني للغاية ويتهمني بالتكاسل وعدم الكفاءة، ولقد انتهز الفرصة وأقسم أنه سيوقفني عن العمل إن لم أجد حلًّا لهذه القضية قبل بداية العام، إن مستقبلي متوقف على معرفة آخذ ذلك المؤقت.

تجاهلتُ ما قاله، وابتلعتُ ريقي اضطرابًا وأنا أتذكر عنوان السيد شاهين في القرية التابعة للمنيا القديمة، ثم قلت بنبرة حاولت بقدر المستطاع أن تمتاز بالثبات:

- أعدك بأنني سأقدم لك كل ما في وسعي سيدي.

هزَّ رأسه إيجابًا وهو يقول منهيًا المقابلة:

- أتمنى ذلك، وسيكون لنا لقاء قريب.

واصلتُ تعابير وجهي المصطنعة، وقلت باسمةً:

- بالطبع.. إن لديَّ فضول كبير لمعرفة كيف حدث ذلك الخطأ.

رسم ابتسامة على وجهه ثم غادر.. أما أنا فواصلت جلوسي مكاني يعلو صدري ويهبط بأنفاس عميقة وساقاي تهتزان توترًا.. ثم نهضتُ مغادرةً المقهى، وقبل أن يحل الظلام كنت قد حجزت مقعدًا في الحافلة المتجهة إلى مدينة المنيا القديمة.

***

وصلت إلى تلك المدينة الساعة الثانية صباحًا تقريبًا، وهناك أقلَّتني سيارة أجرة إلى فندق قريب من محطة الحافلة كنت قد حجزت إحدى غرفه قُبيل سفري، عندما صارت الساعة السابعة صباحًا.. لم أُطِق الانتظار، وخرجتُ متجهةً إلى العنوان المدوَّن في دفتري؛ قرية «المحمدية» التي تبعد عن جنوب المدينة سبعة عشر ميلًا، قرية صغيرة ظهر الجبل من وراء مبانيها متلألئًا مع شمس ذلك الصباح، هبطت عند أول بيوتها وسألت عابرًا عن السيد «شاهين» ضابط الشرطة المتقاعد، أجابني بنبرة جنوبية وهو يشير بيده ناحية الجهة البعيدة من القرية:

- إنه يعيش هناك.

سألته بترقب:

- متى آخر مرة رأيته فيها؟

قال:

- يوم أمس.

التقطت أنفاسي ارتياحًا، صرت أخيرًا على وشك الإمساك بأول الخيوط، وسألتُ سائق السيارة أن يعود إلى المدينة على أن أهاتفه عند انتهائي من العمل الذي أريد القيام به، وأكملت الطريق إلى الناحية التي

أشار إليها الرجل سيرًا على قدميّ، وبمزيد من الأسئلة لرجال القرية عن المسكن الذي أقصده.. وصلت أخيرًا إلى هناك، بيت طوبي كبير من طابقين، كان يقع بعيدًا بعض الشيء عن أقرب تجمع من البيوت، تقدمت إليه، كان باب الطابق السفلي مواربًا، دفعته دون أن أطرقه، فأصدر صريرًا صاخبًا وأنا أدلف إلى الداخل، كان الصمت القاتل يُخيِّم على الردهة شبه المظلمة وأنا أواصل تقدمي نحوها رويدًا رويدًا، لا يقطعه سوى صوت وقع أقدامي وأنفاسي الصاخبة، حتى فُتح باب إحدى الغرف الجانبية فجأة، وظهر أمامي جسد امرأةٍ لم أتبين ملامحها مع خفوت الإضاءة، ثم تقدمت نحوي فظهرت ملامحها؛ لأتوقف مكاني مُتَّسعة الحدقتين والدماء مجمدةً في عروقي:

- أمي؟!



12

شهقت من الصدمة قبل أن أسقط على ركبتي ممسكة رأسي في ذهول، وبأنفاس لاهثة ووجه شاحب فرَّت الدماء منه أخذتُ أغمغم:

- ماذا يحدث؟! ماذا يحدث؟!

هبطت أمي على ركبتيها وضمتني بين ذراعيها وقبَّلت رأسي وقالت:

- ستفهمين كل شيء بعد قليل يا ليلى.

كان قلبي يدق بعنف شديد وجسدي يرتجف بقوة، أردت أن أصرخ لكني بدلًا من ذلك شرعت في البكاء بهستيرية، ثم حاولت أن أنهض كي أركض خارجًا.. إلا أن قواي الخائرة حالت دون ذلك، فلبثتُ مكاني أحدق إليها وإلى البقية الذين ظهروا تباعًا من خلفها؛ يونس، وحسان، والطبيبة مريم، وثلاثة شبانٍ آخرين لا أعرفهم، وأخيرًا السيد شاهين.

- ماذا يحدث؟! ماذا يحدث؟!

واصلتُ غمغمتي بخوف. اقترب مني يونس وجثا على ركبتيه هو الآخر وقال لي:

- لم نُرِد إشراككِ في الأمر خوفًا عليكِ.

واصلتُ تحديقي إليه وإلى أمي دون أن أنبس بكلمة، في حين استمرت دموعي الصامتة في سقوطها إلى وجنتيَّ.

***

لا أتذكر المدة التي قضيتها وأنا أشعر أن خلايا عقلي قد أصيبت بشلل تام، أدخلتني أمي ويونس إلى إحدى الغرف وظلّا بجواري، في حين تركنا البقية وغادروا البيت دون أن يقول أحدهم أي كلمة. في تلك الغرفة خيَّم الصمت الطويل على ثلاثتنا، إلى أن قالت أمي:

- كان لابد أن أقوم بما فعلته من أجل سوزان، لقد وعدني السيد شاهين أن يحميكم إلى أن يُجمَع شملنا مرة أخرى.

وصمتتْ هنيهة.. ثم أكملت:

- إني أعرف السيد شاهين قبل مجيئه إلى قريتنا.. عرفته من خلال عملي القديم في أحد مستشفيات الشرطة عندما جاءنا في صدمة نفسية حادة احتاجت إلى أشهر من العلاج النفسي لتجاوزها.

وتنهدتْ ثم أردفت:

- كان للرجل ذات يوم طفلة خلية زرقاء، وكانت زوجته إحدى الناشطات الحقوقيات اللاتي شرعن في المطالبة بحق بقاء الخلايا مع أسرِهنَّ والقيام بدورهن المتعلق بحمل الأجِنَّة دون الرحيل إلى المحميات، هُدِّد هو وزوجته أكثر من مرة لإثنائها عن ذلك الأمر.. لكنها لم تكل ولم تمل، وواصلت تمسكها بالسعي وراء ذلك المطلب، إلى أن استيقظ ذات صباح على انهيار حياته بالكامل؛ أُصيبت زوجته بطلق ناري في منتصف جبهتها، ودوِّنت التحقيقات أنها قُتلت بالخطأ في أثناء وجودها في مكان كانت قوات الشرطة تطارد فيه بعض اللصوص، وفي مساء اليوم نفسه اتُّهِم هو زورًا بالتسبب في قتل ثلاث خلايا زرقاء كُن يعشن في النطاق الذي يشرف عليه، وخلال أيام صدر حكم عاجل بحرمانه الإنجابَ مرة أخرى، وإرسال ابنته التي لم تكُن تكمل عامين وقتها إلى إحدى دور الرعاية التابعة لبنك التخصيب، ومنعه رؤيتَها.

كنت أنا الممرضة التي أُشرف على علاجه في تلك الأثناء.. وكنت الوحيدة بين أقراني التي استطاعت أن تخرجه من صمته وتبادله الحديث.. حتى صرتُ حلقة الوصل بينه وبين الطبيب النفسي المشرف على حالته. شيئًا فشيئًا صار يبوح لي بكل شيء عن حياته لأصبح خير حافظٍ لأسراره، وأدرك في الوقت نفسه حجم المرارة التي توطنت في داخله، ومدى رغبة الانتقام التي سكنت كل خلية من خلاياه.

استمرت أحاديثنا بعد خروجه من المستشفى مدةً، إلى أن انقطعتْ مع زواجي من أبيكِ، ثم عرفت صدفةً بعد ذلك أنه عاد إلى العمل من جديد بعد ثلاث سنوات من عزلته.. وإن تجنب العمل في المدن الكبرى والأماكن المهمة واقتصر عمله على المدن البعيدة والقرى الصغيرة فقط مثل قريتنا.

عندما رُزقتُ بسوزان أدركتُ مدى التشوش والاضطراب اللذين أصاباه هو وزوجته عندما رُزقا بخلية زرقاء، وانتابني ذلك الشعور القاسي النابع من إدراكك أنك ستُحرم ابنتَك يومًا ما، وفي ذروة ذلك الاضطراب وجدتُ نفسي أهاتف رقمه القديم وأنا أوقن تمام اليقين أنه لن يجيبني، لكن صوته جاءني من الجانب الآخر، قلت باكيةً: «لقد رُزقتُ خليةً زرقاء، ولا أريد أن أفقدها ذات يوم». تنهد وكأني ذكّرته بما حاول أن ينساه سنوات طويلة، ثم قال بعدما صمت دقائقَ سمعت خلالها أنفاسه فقط: «لا يزال الوقت باكرًا جدًّا على ذلك الحين، استمتعي بكل لحظة مع الفتاة الآن فحسب»، وأنهى المحادثة.

لم أهاتفه مرة أخرى بعد ذلك، وندمتُ في داخلي أني أجريت تلك المكالمة من الأساس دون علم أبيكِ، لكني فوجئت بعد خمسة



أعوام من ولادة سوزان بانتقاله إلى مخفر قريتنا. هاتفني هو في يوم وصوله، قال وقتها: «سأبقى هنا لحمايتكِ أنتِ وأسرتكِ».
اجتاحني الاضطراب، حتى إنه عندما استدعى أباكِ للذهاب إلى مكتبه.. لم أذهب معكما، خفت أن تفضحني تعابير وجهي. وعلى مدار سبع سنوات لاحقة لم يُظهر كلانا أننا نعرف بعضنا بعضًا.. وإن تحدثنا خفيةً في أثناء زياراته المتكررة للاطمئنان على سوزان. وفي كل مرة كنتُ أرجوه أن يجد طريقةً لإبعاد سوزان عن المحميات كان يسألني الانتظار فحسب، ويقسم لي أن ثمّة شيئًا ما يخطط له.. لكنه يحتاج إلى مزيد من الوقت، من غير أن يخبرني عن ماهيته.

ثم نظرتْ بعيدًا وضمت شفتيها وقالت:

- إلى أن وقع ذلك الحادث الذي لم يكن في حسباننا. عندما أفقتُ كان شاهين بجواري، أبلغني بوفاة أبيكِ، وبقائكِ على قيد الحياة. دخلتُ في نوبة انهيار عاتية، لكنه تجاهل كل ذلك وحدثني عن خطته الطارئة التي تقوم على تزييف موتي إن أردتُ الاحتفاظ بسوزان.

لقد درس الرجل، خلال المدة التي تلت تعافيه، محميات بنك التخصيب الثماني جيدًا، وأيقن أن الحلقة الأضعف فيها هي محمية جنوب سيناء، حيث المسافة الكبرى التي يقطعها قطار الخلايا هناك، إضافةً إلى الطبيعة الجبلية التي تحيط السكة الحديدية من الجانبين، لكنه في الوقت نفسه كان يدرك مدى صعوبة خداع أطباء فرز الخلايا كي يقرروا حاجة خلية زرقاء سليمة إلى الخضوع لإشراف طبي في تلك المحمية قبل انضمامها للمحميات النشطة.. لذلك أعدّ خطةً تقوم على تزييف تاريخي

المرضي أولًا ثم إصابة سوزان باعتلالٍ قلبي يبدو وراثيًا لكي يكفل لها الانتقال إلى تلك المحمية والبقاء فيها عامين كما عُهد عن الخلايا المنضمات إلى ذلك المكان.

ونظرتْ إلى عينيَّ وتابعت:

- ما لا تعرفينه أن سبب الوفاة المُدوَّن في شهادة وفاتي هو إصابتي بأزمة قلبية مفاجئة نتجت عن ارتعابي في أثناء انقلاب السيارة، لا بسبب أي إصابة جسدية نتجت عن الحادث. أشرف السيد شاهين بنفسه على ذلك التقرير، وأرفق تقاريرَ أخرى مزيفة عن إصابتي بأزمات قلبية مشابهة بالماضي في خطوة أولى للخطوات التالية التي خطط لها لتتم فيما بعد يوم إخلاء مسؤوليته عن الفتاة.

وزمَّتْ شفتيها حزنًا قبل أن تقول:

- ضحيت حينها بالبقاء معكم مؤقتًا من أجل فرصة للاجتماع بسوزان وبكِ وبأخيكِ بقية العمر.

صرختُ فيها غير مصدقة:

- لكنكِ حرمتِنا جميعًا منكِ في وقت كنّا فيه بأشد الحاجة إليكِ.

قالت دون أن تنظر إليَّ:

- لا تدركين مدى العذاب النفسي الذي عشته في تلك الآونة، وعدد المرات التي كدت أتراجع فيها لأعلن عن بقائي على قيد الحياة وأعود إليكم مرة أخرى مهما كلَّفني الأمر من عقاب، لكن السيد شاهين وعدني بأن يحافظ عليكم وسألني الصبر مرة أخرى.

عندما حصلتِ على امتيازات بنك التخصيب لتحملك رعاية سوزان.. ارتاح قلبي قليلًا، شعرت أن ذلك خير تعويض لكِ عن ابتعادي

عنكِ تلك السنوات، وعزمت على إكمالي ما بدأه السيد شاهين من أجل المسكينة التي ينتظرها مستقبل موحش لن تكون فيه إلا آلة تفريخ للأجِنَّة حتى وفاتها في إثر تهالك جسدها صحيًا.

ونظرت إلى يونس وهي تقول:

- كنتِ تشغلينني أكثر من أخيكِ.. كنت أعرف تمامًا أن هذا الفتى مهما أُصيب من حزن على فراقي فسيسامحني عندما يدرك أني فعلت ذلك من أجل أخته التي يحبها أكثر من نفسه.

أخرجتُ زفيري ثم قلت ليونس:

- وماذا أفاد موتك في هذا الأمر الذي لا أفهمه؟! وكيف أعدَّ السيد شاهين لتزييف اعتلال قلب سوزان قبل سنوات وكانت مريم هي صاحبة فكرة الأكسيدوفرين؟!

أجابني يونس:

- هو من دبَّر كل شيء بدءًا من مجيئي إليكِ لإقناعك بأمر الحادث الذي نوهم من خلاله سوزان بموتنا راحةً لضمائرنا.. إلى تزامن كل الأحداث معًا يوم توقيعكِ أوراق تسليم سوزان.

عندما رفضتِ فكرة إشراكه معنا، التي اقترحتُها أكثر من مرة، أمرني أن أتركِكِ لنرى ما ستصلين إليه ما دمنا نمتلك الوقت الكافي، وعندما وصلتِ إلى فكرتكِ بحاجتنا إلى سائق محترف طبيب يساعدنا في إتمام الأمر وأخبرتِني بأنكِ قد وجدتِ الطبيب بالفعل وتفاضلين بين أكثر من سائق وجميعهم محرومو الإنجاب، سارعتُ إلى السيد شاهين وأخبرته بما تنوين فعله، وقبل مساء ذلك اليوم.. كان قد وصل إلى اسم الطبيب محروم الإنجاب السيد «ريمون نشأت»، وتوجه إليه قبلكِ، وجده طبيبًا

فقيرًا يعيش وحيدًا في حالة مزرية بعدما هجرته زوجته في إثر حرمانه الإنجاب، ويعمل في وحدة صحية متطرفة بالكاد يكفي راتبها قوت يومه، لم يجد السيد شاهين مع تلك الحالة التي وجده عليها صعوبة في إقناعه بأن يخبركِ حين تذهبين إليه أنه ترك وظيفته بالعمل الحكومي وأن زوجته هي من تعمل طبيبة للطوارئ، وقد توافقكِ فيما تخططين له، وبالفعل نجح الرجل في إقناعكِ بكل ما أراد السيد شاهين أن يدفعكِ نحوه، ونال مبلغًا جيدًا من المال مقابل ذلك، إضافة إلى فرصة الإنجاب الفورية التي منحتِها له فيما بعد.

وابتسم وهو يتابع:

- أما مريم فهي طبيبة بالفعل.. لكنها لا تمت لريمون بصلة، كانت أمها هي الأخرى ناشطةً حقوقيةً مثل زوجة السيد شاهين، ولطالما آمنتْ بفكر أمها المتعلق بحق الخلايا في إكمال معيشتهن مع أسرهن دون إجبارهن على العمل في المحميات حتي وفاتهن، تعرف إليها السيد شاهين قبل أعوام ولجأ إليها لتساعده في الخطة التي أراد تنفيذها، لم تكن مريم تعرف عن الأكسيدوفرين، كان الأمر برمته من تدبير الرجل، قال لنا في اجتماعنا وهو يرينا قنينته إن تلك المادة النادرة قد استُخدمت قبل عقود في الاغتيالات السرية بدول شرق أوروبا من غير أن تترك أي أثر، لم يخبرنا كيف تمكّن من الحصول عليها.. لكنه حدثنا عن احتفاظه بتلك الزجاجة ومضادها سنوات طويلة، وعن تفكيره في وقت ما في أثناء كبوته النفسية بأن يُنهي حياته عن طريقها.

في ذلك الاجتماع لم تعطِنا مريم موافقتها على خطته بحقن سوزان بذلك العقار إلا بعدما غابت عنّا ساعتين كاملتين بحثت



خلالهما عن آثاره وتأكدت من مدى سرعة مضاده في إبطال مفعوله، وفي الاجتماع الذي جمعنا أنا وأنتِ معها ومع ريمون، أعلنتْ لكِ بكل ثقة نيتها استخدامه، وبدوري هلَّلتُ بحماس شديد لفكرتها وكأني أسمعها للمرة الأولى، وبقية الأحداث تعرفينها كلها.

أما حسان فكان من المستحيل أن يعرف السيد شاهين على أي سائق ستستقرين، فانتظرنا وحسب دون أن نتدخل من قريب أو بعيد، ثم قام الأمر كله بعد ذلك على المصلحة المتبادلة. حصل الرجل أولًا على فرصتَي إنجاب له ولأخيه لمشاركتهما معنا، ثم حصل على وعد مني بفرصة ثالثة بعد استبدالنا خطة شاحنة النقل بخطة السقوط من أعلى الجسر، التي لجأنا إليها قبل يوم التنفيذ بثلاثة أيام فقط، بعدما طرأ أمرٌ لم يكن في الحسبان، لكن دعيني أخبركِ أولًا إجابة السؤال الذي يشغل عقلك، لماذا وجب عليَّ تزييف موتي أنا الآخر؟!

والتقط أنفاسه، وهدأت نبرته بعض الشيء، وأكمل:

- كان الهدف الرئيسي من افتعال حادث بتلك القوة، هو إثبات شيء لاحظته مريم في أثناء عملها طبيبةً، وأخبرتْ به السيد شاهين في وقت سابق؛ لا تُجري الخلايا الزرقاء فحصًا مصورًا بالموجات المغناطيسية أبدًا حتى وإن كان الفحص الوحيد الذي يحدد حجم إصابات الخلية.. فأراد القائد أن يتأكد من ذلك الأمر قبل تسليم الفتاة؛ تيقنًا منه أن الأمر يتعلق بسلامة شريحة المراقبة المزروعة داخل أجساد الخلايا. لذلك رأى ضرورة افتعال حادث ضخم يجبر العاملين في أي مستشفى تقودنا إليه سيارات الإسعاف على إخضاع سوزان لذلك الفحص تشخيصًا لحالتها،

خاصةً مع وجود حالات وفاة تتداولها نداءات أجهزة الاتصال بين سيارات الإسعاف والممثلة في حالتي، وفقدانها الوعي في إثر حقن مريم لها بمادة مخدرة قُبيل وقوع الحادث.

في البداية كانت النية تتجه إلى استغلال وظيفة مريم بصفتها مديرة قسم الطوارئ في مستشفى جنوب المدينة؛ كي تسجل حالة وفاتي في المستشفى بالطريقة التي أخبرتنا بها في اجتماعنا الأول معها؛ ذلك العقار الذي يُثبِّط دقات القلب إلى حد يشبه القلب المتوقف، لتدوِّن أمام الجميع حالة الوفاة. لكننا فوجئنا قبل الحادث بأسبوع واحد بتغيير خط سير سيارات الإسعاف رسميًا في حالات الحوادث الكبرى إلى مستشفى آخر تعمل فيه مريم أيضًا، لكنها ليست المسؤولة الأولى هناك عن تشخيص حالات الوفاة، إذ يوجد طبيب آخر معروف بحرصه الشديد ووسوسته الغريبة بتشخيص حالات الحوادث بنفسه، ومع ذلك التغيير الطارئ أعلنت لنا مريمُ الفشلَ المؤكد لخطة ادعاء الموت في وجوده.

مع ضيق الوقت المتبقي لم يكن أمامنا سوى الحل الآخر؛ جثة حقيقية محترقة ومشوهة المعالم تتناثر عليها بعض خُصَل شعري، تكون كافية لإثبات حامضي النووي، حلٌّ مثاليٌّ تولَّت مريم الجزء الأكبر فيه بتدبير أمر تلك الجثة، وأخذ عينات الشعر المزيفة منها فيما بعد، وتولّى حسان مع أخيه أمر تأمين السيارة لتناسب سقوطها من ذلك الارتفاع الشاهق واشتعالها في الحال بعد خروجنا جميعًا منها، وتولى السيد شاهين ضبط المواعيد كلها معًا، إضافة إلى إبعادكِ عن الأمر برمته.

سألته:

- لماذا أخفيتم عني كل ذلك؟!

قال:

- كان لا بد أن يبدو الأمر طبيعيًا تمامًا، وأن تكون ردة فعلكِ وحالة الصدمة، اللتين تصيبانكِ أمام بقية رجال الشرطة والعاملين في المستشفى غير مشكوك فيهما.

وأخرج زفيره، وأردف:

- بالفعل لم يُجْرَ الفحص المغناطيسي لسوزان رغم وصولها هناك فاقدة الوعي وبرأسها إصابة حادة -كنا قد تعمدناها-، قالت مريم إن مدير المستشفى أعطى أمرًا حاسمًا عبر الهاتف بعدم إجراء ذلك الفحص مهما كان حجم الإصابة مع تسليمها للشرطي المسؤول عنها بمجرد إفاقتها، كان الإصرار بعدم استخدام الموجات المغناطيسية هو كل ما نريد إثباته ورؤيته بأعيننا من أجل خطوتنا التالية الحاسمة.

سألته بترقب:

- أي خطوة؟!

قال:

- تحرير الفتاة إلى آخر العمر، وجمع شملنا مرة أخرى.

وصمت هنيهةً، قبل أن يضيف:

- وإن كنتُ أرى أن السيد شاهين يسعى إلى ما هو أكثر من ذلك.

13

نظرتُ إلى يونس مترقبة في انتظار ما سيضيفه، فتابع:

- إنَّ الرجل لم ينسَ قط ما حلَّ به وزوجته وابنته الوحيدة، ولا أعتقد أنَّه سيتوقف حتى يوجِّه لبنك التخصيب صفعة قوية تطفئ تلك النار التي ما زالت تشتعل في كل جوارحه، وإن لم يُصرِّح لنا بشيء حتى الآن.

وتنهَّد ثم أردف:

- هذا ما كان يخفى عليكِ يا ليلى، أعلم كمَّ الغضب الذي يسيطر عليكِ الآن، لكنَّنا إن أردنا شيئًا واحدًا لكِ، فهو أن تبقي آمنةً بعيدة كل البعد عن أي خطر مُحتملة مواجهته في أقرب وقت.

هزَّت أمي رأسها موافقةً كلامه دون أن تتكلم، فقلتُ:

- كنت أعرف منذ سنواتكَ الأولى أنَّكَ لن تكون ذلك الطفل العادي أبدًا، لا أنكر أنّي تعجبت كثيرًا عندما أخبرتَني عن استسلامك المفاجئ لواقع الأمر بتسليم سوزان مع علمي بحبك الشديد لها، لكن لم يُخيَّل إليَّ أبدًا أن يأتي يومٌ تقف فيه أمام القطار الغاشم المتمثل في بنك التخصيب حتى وإن كان يساعدك رجل ذو خبرة ونفوذ مثل السيد شاهين.. ومن معه.

ونظرتُ إلى أمي، وقلت ساخرةً:

- كنت أظن أنَّ لفظ «الموتى» الذي ذكرته سوزان في رسالتها بصيغة الجمع مجرد لفظٍ عابر كنايةً عن يونس، لم أكن أعرف أنَّها قصدت تمامًا ما تقوله.

فتساءل يونس مدهوشًا:

- هل وصلت إليكِ رسالة من سوزان؟!

أومأت برأسي إيجابًا، وتابعتُ وأنا أُخرِج رسالة سوزان الورقية:

- نعم.

خطف الرسالة منِّي سريعًا، وصرخ إلى أمي غير مصدق وهو يتفحصها بعينيه:

- إنَّه خط الفتاة بالفعل، أستطيع أن أميِّزه بين ألف خط.

وسألني بانفعالٍ شديد:

- كيف وصلت إليكِ هذه الرسالة؟

قلت:

- لديَّ صديق هناك، قادته الصدفة ليعمل في المحمية ذاتها التي توجد فيها سوزان.

اتسعت حدقتا عينيه أكثر، وسألني مجددًا:

- أهذا صحيح؟! أتثقين بذلك الصديق؟

قلت:

- إنَّه يُعد صديقي الأوحد، أعلم ما يخطر في بالك الآن، لكن لا تفكر في الأمر، لقد عمل ذلك الشاب طوال حياته من أجل الوصول إلى حلمه بالعمل في المحميات، إنَّ آخر ما يستطيع فعله هو توصيل

رسائل عابرة بيننا وبين الفتاة لا أكثر، ولقد سألته بالفعل أن يخبر الفتاة أنَّ الموتى باقون على العهد.. وإن كنتُ أقصدكَ أنتَ فقط، لم أكن أعرف أنَّ أمي لا تزال على قيد الحياة هي الأخرى.

هزَّ رأسه بحماس، ثم خرج راكضًا إلى الخارج، وعاد بعد دقائق ومعه السيد شاهين ومريم وحسان، ابتسمتُ ساخرةً بمجرد أن رأيتهم مجددًا، وقلت:

- مرحبًا أيها الأوغاد، إنَّكم أفضل أداءً من ممثلي مسرح وسط المدينة.

ابتسم حسان ومريم، أما السيد شاهين فعاد وجهه إلى الاحتقان الذي عهدته دائمًا في أثناء لحظات توتره، وسألني بنبرة جادة وهو يمسك بالرسالة بين إصبعيه:

- متى وصلت إليكِ هذه الرسالة تحديدًا؟

قلت وأنا أشعر أنَّ داخلي صار أكثر رهبة منه عن أي وقت مضى:

- منذ أيام.

قال:

- هل تستطيعين أن تدبري لي موعدًا مع من نقلها إليكِ؟

هززتُ رأسي نفيًا، وقلت:

- لقد غيَّر رقم هاتفه ولم يعطِني رقمه الجديد؛ خشية أن أهاتفه وآتي بسيرة سوزان، إنَّه يعلم تمامًا خطر ما قام به وما قد يحدث له إن عرف أحد بتسريبه أخبار إحدى الخلايا الزرقاء إلى الخارج، لكنَّه وعدني أن يأتي إليَّ مرة أخرى قُبيل رحيل الفتاة إلى محمية العاصمة.

جلس على مقعد أمامي وصمت مفكرًا، ثم قال بنبرة أكثر هدوءًا:

- وفق حساباتي.. ستغادر سوزان محمية جنوب سيناء مطلع يناير القادم، إن استطاع ذلك الشاب تقديم مساعدة بسيطة من الداخل.. فقد يوفر لنا ذلك حلولًا حاسمة لبعض الأمور المعقدة.

قلت متيقنةً دون أن أساله عن المساعدة التي يقصدها:

- كما قلتُ ليونس، إنّي أعرفه جيدًا، لن يغامر بشيء قد يضيع حلمه الذي عمل عليه سنوات، كانت مجازفته السابقة بتوصيل تلك الرسالة ردًا لجميل قدمته له في الماضي، وقد يكمل الأمر بطمأنته لنا على سوزان قريبًا، لكنّه لن يفعل شيئًا غير ذلك.

قال:

- حسنًا، لكن إن حدث أي تواصل بينكما قريبًا فأخبريه أنّي أريد لقاءه فحسب، واتركي الباقي عليَّ.

رفعتُ كتفيَّ وقلت:

- حسنًا.

ثم أكملتُ:

- لديَّ شيء آخر أود إخباركم بشأنه، لقد كنت سببًا في لفت انتباه موظفة تدوين الوفيات في المستشفى إلى عدم إرسال تقرير وفاة يونس إلى وزارة الداخلية، أرسلَتْه هي عندما ذهبتُ إليها لأعرف الطبيب صاحب تشخيص الوفاة، ويبدو أنَّ الأمر قد أثار ضجة كبرى في أروقة وزارة الإنجاب بعدما اكتُشف تسلُّم مؤقت يونس بعد تاريخ وفاته. لقد استجوبني أحد المحققين يوم أمس، وهم الآن على علمٍ أنَّ المؤقت قد سُلِّم في أحد مكاتب بريد المنيا القديمة، ودُمِّرت شريحته هنا أيضًا.

نظروا إليَّ جميعًا بوجوه متجهمة يكسوها القلق وخاصةً مريم، فتابعتُ:

- من حسن الحظ أنَّ القضية يتولاها محققٌ أحمق، قد تمنحكم قلة حيلته مزيدًا من الوقت، لكن ذلك قد يتغير في أي لحظة.

ونظرت إلى السيد شاهين وأنا أُكمل:

- قادتني فكرة عابرة لفحص ملفكَ مرة أخرى في سجلات المحكمة العليا وعثرت على عنوانك هنا، وربطت الأمور في رأسي فاستطعت الوصول إليكم وأنا الذي لا أحسب نفسي ذكيةً على الإطلاق، إنْ تولى القضية محققٌ آخر غير ذلك الرجل فأعتقد أنكم ستكونون في ورطة إن بقيتم هنا.

قال:

- لا نستطيع ترك هذا المكان في الوقت الحالي، لا يزال أمامنا الكثير من التجهيزات.

سألته:

- أي تجهيزات قد تضحي من أجلها بفرصة الهرب من اعتقال مُحتمل؟

قال:

- ارتاحي لبعض الوقت وبعد ساعات قليلة سأجيب عن أسئلتكِ الكثيرة، لدينا بعض الأعمال سننجزها الآن، وسنعود إليكِ قبل غروب الشمس.

وبنبرة جادة أضاف:

- إن أردتِ البقاء فمرحبًا بكِ بيننا، وإن أردتِ الرحيل فلن نلومك في شيء، إنَّ الجميع هنا مقتنع تمامًا بما ننوي فعله، أعتقد أنَّ الساعات القليلة القادمة ستكون كافية لكِ لحسم قرارك.

وأشار إلى البقية بالمغادرة، فغادروني جميعًا معه حتى أمي ويونس، تعجبتُ في داخلي من الامتثال الكبير الذي ظهر منهم لأمره، لكن بعد ما رُوي لي منهم خلال الساعتين الماضيتين.. صرتُ على يقين بأنَّ نظرتي السابقة لذلك الشرطي المتقاعد كانت خاطئة تمامًا.

بعد نصف ساعة من بقائي وحيدة.. رنَّ جرس هاتفي وظهر على شاشته اسم السائق الذي أقلَّني صباحًا إلى القرية، فكرتُ، وأنا أنظر إلى اسمه، أن أعود مجددًا إلى الفندق.. لكنِّي آثرت البقاء، وأغلقت الهاتف دون أن أجيب على الرجل، ثم نهضت من موضعي إلى خارج الغرفة، كان البيت خاويًا تمامًا، وأبواب الغرف جميعها مفتوحة على مصراعيها، كأنَّهم أرادوا أن يكشفوا أوراقهم لي دون أي ستار، ترددتُ كثيرًا قبل أن أدلف إلى الغرفة المقابلة للغرفة التي كنتُ أجلس فيها، حيث كانت بدلة السيد شاهين العسكرية مُعلقة على حامل خشبي في أحد أركانها، ثم وجدتُ نفسي أخطو إلى داخلها، لفت انتباهي صورة مُثبتة داخل إطار قديم كانت موضوعة على طاولة صغيرة بجوار سريره، تجمعه في شبابه بزوجته الرشيقة ذات النظارة الطبية والشعر الأسود المتدلي إلى جبهتها مع طفلتهما الرضيعة، جلستُ على السرير وأنا أمسك بتلك الصورة، كان وجه الرجل يحمل ابتسامة عريضة لم أرَها على وجهه منذ عرفته في قريتنا، وكأنَّها ماتت هي الأُخرى مع رحيل زوجته وطفلته، شعرت في داخلي بالأسف تجاهه ثم وضعت الصورة مكانها، لم يكن في الغرفة شيء آخر مثير للاهتمام.. فعدتُ من جديد إلى غرفة أمي دون أن أذهب إلى أي مكان آخر بعدها.

بعد قرابة أربع ساعات من التفكير وحيدةً فيما يحدث، سمعت وقع أقدام في الخارج، كان حسان أول العائدين، لوَّح لي بيده وهو يكمل طريقه إلى السلالم المؤدية إلى الطابق الثاني، فقلتُ له:

- إنَّ أخاكَ يفتقدكَ كثيرًا.

توقف عن التقدم وعاد إليَّ، فتابعتُ:

- لقد زرته قريبًا وهاتفته أكثر من مرة لأسأله عنك، لا يستحق أخوك أن تتركه فجأة هكذا.

قال بنبرة آسفة:

- لقد انضممت إلى السيد شاهين من أجل فرصة إضافية أخرى له، ولا أريد أن أضيِّع عليه تلك الفرص التي نالها في لحظة، إنَّ الأمر سيكون خطِرًا للغاية هذه المرة، وأي خطأ فيه سيودي بنا إلى عقوبة قاصمة، لقد اشترطتُ على السيد شاهين أن يكون أخي بعيدًا كل البعد عن هذا الأمر، تكفيه المشكلات التي ورطته فيها مسبقًا، لديه حياة تنتظره، عليه أن يخطو إليها بالثروة التي يمتلكها الآن، ربما تسنح فرصة للقاء به مجددًا، وقتها سأشرح له وجهة نظري كاملة، إن عدتِ إلى هناك فأخبريه أنّي بخير فحسب.

هززتُ رأسي إيجابًا، فكاد يتركني، فقلت:

- يوجد أمر أود سؤالك بشأنه.

سألني:

- أي أمر؟

قلت:

- نعرف جميعًا أنَّ محميات الخلايا تشبه في تأمينها الحصون العسكرية شديدة الحراسة، كيف ستُهرِّبون سوزان من إحداها؟

قال:

- لم يخبرنا السيد شاهين بالخطة بعد، لكنَّنا نتدرب يوميًا على الركض بالدراجات النارية في الظهير الجبلي لهذه القرية، قال الرجل إنَّ طبيعة الأرض هنا تشبه طبيعة الأرض في جنوب سيناء، يقطع قطار الخلايا قرابة خمس وأربعين دقيقة بين الجبال هناك، يمكننا أن نفعلها قبل انتهاء تلك المدة.

أطلقتُ إيماءة ساخرة، وقلت:

- بكَ ويونس ومريم وأولئك الثلاثة الذين لا أعرفهم؟!

هز رأسه إيجابًا متجاهلًا سخريتي، فأكملتُ بنبرة جادة:

- لقد تابعتُ قطار الخلايا الآتي إلى مدينتنا مرات عديدة، إنَّه مؤمَّن بأعداد غفيرة من الجنود المدججين بالأسلحة الحديثة، من المستحيل أن ينجح أي شخص في اختراقهم، إن كان الرجل ينوي حقًّا أن تقتحموا ذلك القطار من أجل استرداد سوزان.. فإنَّه لا يقودكم إلا للانتحار المؤكد.

وتابعتُ:

- لقد فكرتُ كثيرًا فيما سمعته من أمي ويونس خلال الساعات الماضية، وكل ما أراه الآن أنَّ السيد شاهين يستغل حب كل واحد فيكم لعائلته من أجل تحقيق هدفٍ ما يخفيه عن الجميع.

ابتسم ابتسامة خفيفة، ونظر إلى السيد شاهين الذي كان يدلف من باب البيت، وقال ساخرًا وهو يصعد السلالم إلى الطابق العلوي:

- إنِّي أثق بهذا الرجل، إن كان لديكِ أي سؤال إليه فاسأليه بنفسك.

أخرجتُ زفيري ضيقًا، نظر إليَّ السيد شاهين بشيء من الترقب بعدما سمع كلمات حسان، فقلتُ وأنا أنظر إلى أمي ويونس اللذين كانا قد وصلا أيضًا:

- أريد أن أتحدث إليكَ بمفردنا سيدي.

قال:

- حسنًا.

دخلنا معًا إلى غرفته، قلت سريعًا:

- لستَ الوحيد الذي يعرف عن الأكسيدوفرين، لقد صادفتُ امرأة تعرف هي الأخرى عنه، وكانت تعمل في المحمية نفسها ذات يوم.

قال بنبرة هادئة واثقة وهو يحرك صورة أسرته إلى موضعها في منتصف الطاولة الخشبية:

- وأين هي الآن؟

قلت:

- تركت العمل في المحمية بعد وفاة ابنتها بمرض قلبي.

قال:

- أخطأت استخدامه إذن فقتلت ابنتها.

وتابع:

- عليكِ أن تسأليها لماذا حقنت ابنتها بالأكسيدوفرين.

قلت:

- لم تخبرني بشيء عن قيامها بذلك الفعل، ولكن إن كانت قد فعلت ذلك حقًا فربما أرادت أن تنعم بعامين إضافيين مع ابنتها من خلال بقائها في المحمية التي تعمل بها.

التفت إليَّ أخيرًا وقال وهو ينظر إليَّ:

- لم يكن ليسمحوا لها قطُّ بالبقاء في المحمية نفسها مع وجود ابنتها، إنَّها قوانين خاصة بالمحميات، مثلما كان سيحدث معكِ إن استطعتِ اقتناص فرصة العمل في المحميات من زملائكِ في معهد العلوم.

ثم صمت هنيهةً، وتابع:

- لقد عرَّضَتِ ابنتها لخطر الأكسيدوفرين من أجل فرصة أخرى للاجتماع بها مجددًا إلى آخر العمر.

قلت:

- كيف؟

قال وهو ينظر إلى صورة أسرته من جديد:

- لم يقتل بنك التخصيب زوجتي من أجل مناهضتها له لإبقاء الخلايا مع أسرهن فحسب، فلطالما كان يوجد الكثيرون من النشطاء الذين سعوا في ذلك الأمر ولم يمسهم البنك بأي سوء، لكننا اكتشفنا الوجه القبيح لبنك التخصيب، وفي إثر ذلك الاكتشاف أصدر أحد مسؤوليه أمره بالتخلص منها.. ومنِّي أيضًا، بعزلي عن العمل وحرماني الإنجابَ وابنتي.

سألته بترقب:

- ماذا اكتشفتما؟!

قال:

- هل فكرتِ يومًا ما مصير الخلايا المشكوك في قدرتهن على إتمام الحمل؟!

قلت:

- البقاء في محمية جنوب سيناء أو العودة إلى محمية العاصمة في حال شفائهن وثبوت كفاءتهن تمامًا.

قال:

- مَن تذهب إلى محمية جنوب سيناء لا تعود إلى العاصمة أبدًا حتى لو ثبتت كفاءتها تمامًا.

سألته مستغربةً:

- وأين تذهب؟!

قال:

- إنَّ دخول تلك المحمية هي تذكرة وفاة مزيفة لأي خلية زرقاء، تُدوَّن أسماؤهن كفاقدٍ في عدد الخلايا قبل أن يُبَعن في مزادات سرية تُقام كل عامين، وهذا ما سعيت له منذ اللحظة الأولى التي أخبرتُ فيها أمك أنَّ لديَّ خطة سأعيد بها الفتاة.

وأخرج زفيره بهدوء، قبل أن ينظر إليَّ ويتابع:

- لطالما كان هدفي الأساسي هو وصول سوزان إلى أحد تلك المزادات.

14

انطبعت كل علامات الحيرة والترقب والدهشة على وجهي في آن واحد، وسألت السيد شاهين على الفور بصدمة كبرى:

- أيعقل؟!

قال:

- إنَّه السر الأعظم الذي يخفى عن الجميع، إنَّ القطار الخارج من محمية جنوب سيناء بداية كل عامٍ زوجيٍّ لا يعود بالخلايا إلى محمية العاصمة، هناك محطة وقوف سرية في طريقه تُنقل فيها الخلايا إلى حافلاتٍ تقطع الطريق شرقًا نحو حدودنا الشرقية.

وتابع:

- ربما لو عُيِّن صديقكِ قبل وقت أطول في تلك المحمية لأخبركِ عن ملاحظته بأنَّ جميع الخلايا المريضات هناك تمتثل للشفاء وتغادر مع إكمالها العامين دون أن تبقى خلية واحدة.

وأخرج زفيره قبل أن يقول:

- يُوهَم العاملون هناك أنَّ الخلايا البِكر قد أصبحت جاهزة لتحمل الحمل مع تقارير الأطباء المزيفة التي توصي بإعادتهن إلى محمية العاصمة من أجل توزيعهن من جديد على بقية المحميات،

ولا يعرفون أنَّ شهادات وفاتهن قد صدرت رسميًا مع ركوبهن القطار المغادر.

سألتُه بترقبٍ بالغ:

- أين تُقام تلك المزادات؟! ولمن تُباع الخلايا؟!

قال:

- تُقام عبر موقع إلكتروني عالي السرية، أحد المواقع المنتمية لشبكة الاتصالات الدولية السرية، التحديث العصري للإنترنت المظلم الذي ظهر قبل ثلاثة قرون. من الصعب جدًّا تتبع المشاركين في تلك المزادات؛ دولٌ تقل فيها أعداد الخلايا الزرقاء إلى حد يهدد بقاءها، ومنظمات إرهابية دولية حُرم أعضاؤها الإنجاب في بلدانهم ضمن القيود الدولية الخاصة بمحاربة الإرهاب، وأثرياءُ لديهم الرغبة في امتلاك محمياتٍ شخصية تحتوي على خلايا زرقاء خاصة بهم وبأسرِهم دون غيرهم.

قلت:

- اتّجار صريح في البشر!

قال:

- بل اتّجار في منبع البشر.

تساءلتُ غير مصدقة:

- ويشارك البنك المسؤول عن إنجابنا في ذلك؟!

هز رأسه ضامًّا شفتيه، وقال:

- إنَّ الأموال التي تُجنَى من وراء تلك المزادات لا حصر لها، إنَّ الخلية الواحدة قد تباع بعشرات الآلاف من أواقي الذهب وفق الحالة الصحية لها.

سألته:

- كيف اكتشفت ذلك الأمر؟!

نظر إليَّ ثواني دون أن يُبدي وجهه أي تعبير، ثم نظر إلى سريره واقترب منه، وفجأةً دفعه بقدمه مزحزحًا إياه، فتحرك قرابة متر عن موضعه وظهرت الأرضية المتربة من أسفله، هبط على ركبتيه وأزاح التراب بيده عن رقعة مربعة من الأرضية وبدأ يخلخل غطاءها الأسمنتي إلى أن انتزعه. تحركتُ مقتربةً منه بترقب، وجدتُ حفرةً صغيرة قد ظهرت أمامه، مد يده إليها وأخرج صندوقًا زجاجيًا صغيرًا يمتلئ بسائلٍ شفاف تسبح فيه يد إنسان مقطوعة، ثم نهض ممسكًا بذلك الصندوق وهو يزيح الغبار عن سرواله موضع ركبتيه، في حين كانت عيناي مثبتتين برعب على تلك اليد العائمة، وأعاد السرير إلى مكانه القديم دون أن يغلق الحفرة الأرضية بغطائها، وقال:

- كشف الأمرَ طبيبٌ كان يعمل خُفْية في محميةٍ سرية يمتلكها رجل أعمال فاحش الثراء كان قد استولى على خلية زرقاء بالغة من خلال مزادٍ سري، كانت تلك الخلية في حالة مَرَضِية متأخرة جدًّا، ومع ذلك أصرَّ ذلك الرجل على حقن رحمها بِستِّ أجنَّة دفعة واحدة دون مراعاة لحالتها الصحية، لتموت الخلية صاحبة العشرين عامًا في الشهر الخامس من الحمل، لم يتحمل ذلك الطبيبُ العذابَ النفسي الذي أصابه لمشاركته في موت الفتاة وانتحر في إثر ذلك بعد أن أرسل رسالةً من عشر أوراق كاملة إلى حقوقية تمُتُّ له بصلة قرابة، سرد فيها كل شيء عن ذلك الرجل وعن معاناة الفتاة، أرسلتْ تلك الحقوقية نسخة من الرسالة إلى زوجتي، كانت ابنتنا في ذلك الوقت في عامها الثاني، تخيَّلنا أن تكون يومًا ما موضع الفتاة التي ماتت في محمية ذلك النذل، سعت زوجتي كثيرًا لكشف

أمر تلك المحمية الخاصة، وسعيتُ أنا الآخر كرجل شرطة لإصدار أمر باقتحام ذلك المكان، لكنَّ طلبي قُوبل برفض قاطع دون إبداء أي سبب مقنع، وهنالك قررتُ اقتحام المحمية بطريقتي الخاصة، لأجدها بنايةً صغرى تحتوي أجهزة طبية وغرفة عمليات مجهزة بالكامل، أعدت طلبي لاقتحام المكان رسميًا واعتقال الرجل للتحقيق معه مقدِّمًا ما يثبت صحة ادعاءاتي، إلا أن التماطل حدث من جديد، قررت زوجتي نشر رسالة الطبيب عبر شبكة الاتصالات المحلية من أجل الضغط على وزارة الإنجاب للتحقيق في الأمر، لسبب لم نفهمه كانت تلك الرسالة تُحجَب خلال ثوانٍ من أي موقع يقبل نشرها، بعدها اختفى الرجل فجأة، وفي الأسبوع ذاته قُتلت زوجتي برصاصة في رأسها، وحُوكمتُ أنا ظلمًا بتهمة التسبب في قتل ثلاث خلايا زرقاء، واقتيدت ابنتنا صاحبة العامين إلى دار رعاية تتبع بنك التخصيب، ثم أُودِعتُ في مصحة نفسية لمدة ستة أشهر تعرفت خلالها إلى أمك.

وصمتَ هنيهةً ثم أضاف:

- عندما خرجتُ من المصحَّة كان كل ما يشغلني هو الوصول إلى ذلك الرجل؛ ظنًّا منّي أنّه من تسبب في كل ذلك، فكرَّستُ حياتي كلها للبحث عنه، حتى وجدته بعد عامين ونصف.

وأشار برأسه نحو اليد العائمة في السائل الشفاف داخل الصندوق الذي وضعه بجوار صورة أسرته على سطح الطاولة الخشبية، فسألته بذهول:

- قتلته؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- كان ذلك هو المصير العادل لذلك النذل.

وجلس على السرير، وتابع:

- كان التلذذ بموته هو رغبتي الوحيدة في الحياة وقتها، أعددت خطة لاختطافه بعد مراقبته ثلاثة أشهر كاملة، ونجحتُ في ذلك بالفعل بمساعدة بعض الأشقياء الذين كنت أعرفهم من خلال عملي. عندما كشفت له عن نفسي في تلك البناية المهجورة التي احتجزتُه فيها، ورآني أشحذ أمام عينيه السكين الذي كنت أنوي تقطيع أوصاله به، ظلَّ يصرخ مرتعبًا ويردد بأنه لم يكن سببًا فيما حدث لأسرتي، واصلت شحذي السكين، في حين كانت كلمات توسله تتطاير في الهواء كالهباء المنثور قبل أن تصل إلى أذني، إلى أن توقفتُ عندما صرخ باكيًا بأنَّه ليس إلا سمسارًا لبيع الخلايا المريضة والمنتهية خدمتهن، وأنَّه لم يُرد قط أن يحدث ما حدث لي ولزوجتي، تركت ما في يدي حينذاك، وجلست على مقعد أمامه، وسألته وأنا أحدق إلى عينيه المرتعبتين: «ماذا تقصد بسمسارٍ لبيع الخلايا؟»، تردد في كلامه وحاول المراوغة، فغرزت سكيني بكل طاقتي في فخذه، فصرخ النذل تألمًا، فنزعتُ السكين وغرزته في فخذه الأُخرى، فتوسل إليَّ بأنَّه سيخبرني.

وتنهَّد وهو يقول:

- سحقًا للجبناء المتمسكين بالدنيا.

ثم تابع:

- أخبرني ذلك الجبان عن المزادات السرية الإلكترونية التي تتم كل عامين لبيع الخلايا الحديثة المريضة والخلايا التي تصل إلى عامها السادس والثلاثين، كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أنَّ خلايانا الزرقاء لا تتحمل أجسادهن الحمل بعد ذلك العمر، وأنَّ دراسةً علميةً أثبتت موت معظم الخلايا عند ذلك العمر تقريبًا مع الإنهاك

الصحي الذي يعانينه بعد الحمل بثلاثة أو أربعة أجنة في المرة الواحدة على مدار ثمانية عشر عامًا متواصلات، لطالما تحدث الإعلام عن أهمية الدماء الإجبارية التي يتبرع بها المواطنون كل أربعة أشهر من أجل معالجة فقر الدماء الذي تعانيه الخلايا، لكنَّه لم يذكر ولو لمرة واحدة شيئًا عن استنزاف أجهزتهن الحيوية مع إخضاعهن للحمل المتكرر بكل تلك الأعداد من الأجنَّة.

وهزَّ رأسه آسفًا وهو يقول:

- كنت أظن في صغري أنَّ منع الخلايا المنتهية خدمتهن من معاودة المعيشة مع أسرهن كان خوفًا من سردهن القصصَ المؤلمة عما تعرضن له من إنهاك جسدي ونفسي، وما قد يؤدي إليه ذلك من غضبٍ عامٍّ قد يمنع الأهالي تسليمَ بناتهن، لكن الأمر تعدى كل ذلك. مع وصول الخلايا إلى عمر الرابعة والثلاثين يُرسَلن إلى محمية جنوب سيناء بتقرير طبي صريح يؤكد إصابتهن بأمراض طارئة تحتاج إلى إيقاف مؤقت لعمليات زراعة الأجنة في أرحامهن، يقضين عامين من النقاهة في تلك المحمية قبل أن يُعرَضن في المزاد نفسه مع الخلايا الجدد المريضات في تحقيق لأقصى استفادة منهن، خاصةً مع المصير المتوقع لهن خلال عامين أو ثلاثة على الأكثر. مع أعدادهن الكثيرة تتنافس دولٌ كثيرة ومنظمات إرهابية دولية وبعض فاحشي الثراء على الاستحواذ على أكبر عدد منهن لأجل فرصة أو فرصتين للحمل قد توفرهما الخلية الواحدة قبل موتها، وبالطبع مع المبالغ الكبرى المدفوعة.. لا يتوانى المشترون عن حقن رحم الفتاة الواحدة بأقصى عدد من الأجِنَّة في الفرصة الواحدة.

أخبرني النذل أنَّ الصفقة تُعدُّ ناجحة إن استطاعت الفتاة الوصول إلى الشهر السادس من الحمل، بعدها تتولى الحضانات الصناعية

احتواء الأجِنَّة لإكمال نموهم، ويُعاد حقن رحم الفتاة من جديد حتى وإن كان المصير موتها في الحال.

كاد عقلي يُجَن مما يقوله الرجل، سألته إن كان في داخل بلادنا أفراد بعينهم يشاركون في تلك المزادات، نفى ذلك، وأخبرني أنَّ تلك الخلية التي امتلكها كانت مجرد مكافأة له من إحدى المنظمات التي نجحت في توليد ثلاثة آلاف طفل في صفقة واحدة كان هو الوسيط فيها، وأكَّد أنَّ بنك التخصيب لا يقبل مشترين محليين أبدًا؛ خشية افتضاح الأمر، سألته عن المكان الذي تتم فيه عمليات البيع، رفض إخباري في بداية الأمر.. لكن مع سلخ قطعة لحمٍ كبيرة من فخذه دون مخدر.. باح بكل شيء عن الموقع الإلكتروني السري الذي تتم من خلاله تلك المزادات، ظننتُ أنّي أستطيع الوصول إلى ذلك الموقع عبر حاسوبي الشخصي، فأحضرته له كي يلج إليه، فحدثني باكيًا عن استحالة الوصول إليه بالحواسيب العادية، وأنَّ تسعة حواسيب فقط في بلدنا صُنعت خصيصى من أجل الولوج إلى ذلك الموقع؛ ثلاثة منها داخل بنك التخصيب المركزي، وستة خارجه، يمتلكها سماسرة البيع، ولا يستطيع أحدٌ الولوج إلى نظامها ما لم يمتلك كلمة سرها أو يكُن أحد الستة الذين يستطيعون الولوج ببصمات أياديهم إلى نظام أي حاسوبٍ منها. كان هو أحدهم، أدركتُ في داخل نفسي حينذاك قوة النفوذ الذي يمتلكه ذلك الرجل من امتلاكه أحد تلك الحواسيب، وقدرته على الولوج إلى نظام أي حاسوب منها، وتركته مؤقتًا كي أفكر بتأنٍّ في خطوتي التالية مع تلك المعلومات الطارئة التي لم تكن في حسباني، ثم عدت إليه بعد ثلاث أو أربع ساعات، أعطيته هاتفًا أولًا وأمرته بأن يستخدم نفوذه القوي كي يعيدني مرة أخرى

إلى العمل، كنت أعرف أنَّه من المستحيل عودتي في الظروف العادية مع ذلك الحكم الصادر ضدي، وأنَّ وجود ذلك الرجل معي كان الفرصة العظمى لإعادة ترتيب أوراقي من جديد، أنهى الرجل مكالمته التي سمعتُها عبر مكبر الصوت باستجابة فورية بإعادتي لوظيفتي مرة أخرى، سألني بعدها أن أتركه وشأنه، فلم أجب عليه إلا بابتسامة عريضة، سألته عن مكان حاسوبه، أصرَّ أنَّه لن يفيدني بشيء، سلخت قطعة لحم جديدة من فخذه، صرخ بأنَّه في بيته.. لكنَّه لن يعمل إلا ببصمة يده اليمنى، لذلك لا بد أن أصطحبه إلى هناك.

ونظر إلى اليد العائمة وهو يتابع:

- كنت أعرف أنَّه لن يتركني أبدًا بعد كل ما عرفته، وما فعلته به، لذلك لم آخذ وقتًا في التفكير، اقتصصت أولًا للفتاة ولزوجتي ثم احتفظت بيده لي إلى الأبد.

نظرتُ في شرود إلى اليد، فتنهد وأكمل:

- وصلتُ إلى حاسوبه، وباستخدام هذه اليد استطعتُ الولوج بنفسي إلى موقع المزاد الذي أخبرني باسمه قُبيل موته، وجدت صورًا لسبعة عشر ألف خلية معروضات للبيع، سواء كان العارض بنكنا المركزي أو بنوك بلدان أخرى غيرنا، كل خلية مُدوَّن أسفل صورتها عمرها، وبلدها، وعدد مرات إنجابها، وحالتها الصحية المُقيِّمة بنسبة مئوية. كانت أغلب الصور للخلايا المنتهية خدمتهن وبأعمار تتراوح بين الثلاثين والخمسة والثلاثين وفق قانون كل بلد، أدركت أنَّ الأمر أكبر بكثير مما ظننت وأكثر قوة وبطشًا مما أستطيع مقاومته، تركت الحاسوب في موضعه؛ تيقنًا منِّي أنَّه يحتوي على شريحة تجسس تكشف موقعه في أي لحظة،

وأخفيت ذلك السر معي كل تلك السنوات كي لا يُكتشف أنّي عرفت بالأمر، وعدت إلى عملي من جديد منتظرًا اللحظة الحاسمة التي ألدغ فيها لدغتي، جنّبوني الأماكن الحيوية وأرسلوني إلى المدن الصغيرة والقرى، فلم أيأس للحظة، وواصلت تخطيطي في صمت واضعًا عشرات الخطط التي قد أسلكها، حتى أرسل الله لي شيئًا لم يكن في الحسبان؛ سوزان أختكِ، الخلية الزرقاء التي وُلدت في الموعد المناسب تمامًا في قرية بعيدة عن الأعين لأم تثق بي، ثم وقوع ذلك الحادث الذي مات فيه أبوكِ، وكأنّ الله أراد أن يكافئني ويعوضني عن سنوات العذاب النفسي التي عشتها ويُعلن لي في كل خطوة أنّي أسلك الدرب الصحيح، أعددت خطتي بمساعدة أمك التي استجابت لطلبي بتزييف موتها بمرض قلبي في خطوة أولى لاستعادة الفتاة، وبقية التفاصيل أظن أنّكِ تعرفينها تمامًا.

والتقط أنفاسه ثم تابع:

- والآن صرنا على بعد خطوات من تحرير الفتاة.

وكاد يكمل شيئًا آخر لكنّه أمسك لسانه، فضممت شفتيّ، كان ما سمعته منه يفوق تفكيري بكثير.. وإن شعرت بالصدق في كل كلمة قالها، ثم سألته عن شيء كان يشغل بالي منذ حديث أمي ويونس لي:

- لماذا سلّمت سوزان إلى بنك التخصيب ما دُمتَ اكتشفتَ أنّ الموجات المغناطيسية القوية الناتجة عن جهاز مثل فاحص الرنين المغناطيسي، ستدمر شريحة مراقبتها؟

صمت هنيهة ثم أجابني:

- لم أرِدهم قط أن يستخدموا الموجات المغناطيسية لسوزان يوم الحادث، كان الأمر تأكيدًا لنا فحسب؛ من أجل استخدامها في مرحلة لاحقة، لقد زرعت بنفسي شريحة مراقبة أخرى في جسد

سوزان كي أستطيع تحديد موقعها في أي وقت، وهذا ما جعلنا متيقنين حتى هذه اللحظة من أنَّها لا تزال موجودة في محمية جنوب سيناء.

ومدَّ يده إلى حقيبة قماشية كانت مركونةً على الأرض جانبًا، وأخرج منها لوحًا إلكترونيًا زجاجيًّا حجمه ضِعف المؤقت مرتين، وقال وهو يشير إلى نقطة تومض وتخفت على شاشته:

- ستساعدنا تلك الشريحة في تتبع سوزان إلى المكان الذي تُسلَّم فيه الخلايا إلى رابحي المزادات.

اتسعت حدقتا عيني ذهولًا وخوفًا في الوقت ذاته، وقلت:

- كان يمكنكَ تدمير شريحة البنك فحسب إن أردت إنقاذ الفتاة، خاصةً أنَّكَ تعرف تمامًا أنَّ الأمر بذلك الخطر.. ولن يكون سهلًا أبدًا مع أولئك المجرمين.

فقال بهدوء شديد:

- عليَّ الوصول إلى الحافلات التي ستنقل الخلايا على الأقل، حتى وإن لم نصل إلى المكان نفسه.

قلت مستغربةً:

- لماذا؟

قال:

- كما أخبرتكِ منذ قليل، أرسل الله إليَّ سوزان في الوقت المناسب تمامًا.

ثم نظر إلى صورة أسرته الموضوعة على الطاولة من جديد، وأكمل وهو يمعن النظر فيها:

- إن ابنتي ستكون في المزاد نفسه كخلية منتهية الخدمة.

15

شهقتُ غير مصدقة عندما ذكر السيد شاهين احتمالية وجود ابنته في مزاد الخلايا القادم بعد أقل من ثلاثة أشهر برفقة سوزان، وجلست بجواره على السرير متسعة الحدقتين واضعةً رأسي بين كفي في ذهول كبير، بعدها رانَ الصمت مدة طويلة بيننا حتى قلت دون أن أنظر إليه:

- لم تحدثني أمي أو يونس بشيء عن ذلك الاحتمال الخاص بابنتك.

قال:

- إنَّهما لا يعرفان شيئًا عن أمر المزادات حتى الآن، مريم الوحيدة التي تعرف بالأمر، سأخبرهما في الوقت المناسب.

هززت رأسي إيجابًا، وقلت:

- لا يمكنك الولوج إلى الموقع الإلكتروني من جديد، أليس كذلك؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- كما أخبرتكِ، تركت الحاسوب في مكانه وقتها خشية أن تُفتضح معرفتي بالأمر، وإنْ بقيت أنسجة هذه اليد بكفاءتها كل هذه السنوات.

وتابع:

- كان الولوج إلى ذلك الموقع خطوة أساسية للتأكد من وجود تلك المزادات، وعدم استطاعتنا الولوج إليه في الوقت الحالي لن يمثل عوَزًا كبيرًا في مخططنا ما دمنا نمتلك الشريحة التي تحدد مكان سوزان.

قلت:

- وكيف ستعرف ابنتَكَ من بين آلاف الخلايا هناك بعد كل هذه السنوات؟! إن كانت هناك حقًّا!

قال وهو يلوِّح لي برسالة سوزان التي كانت لا تزال معه منذ أخرجتها ليونس:

- لقد وصلتْ إليها الفتاة بالفعل؛ «حياة»، من حسن الحظ أنَّهم لا يُغيِّرون أسماء الخلايا في محمياتنا، «حياة شاهين سعد الشلبي».

وبوجه جامد ردَّد رسالة سوزان:

- أخبري الموتى أنّي أتمسك بالـ«حياة» في انتظارهم.

وأردف:

- لقد أخبرت سوزان بكل شيء قبيل يوم الحادث، كانت صفقتي مع أختكِ واضحة، أعيدها إلى أهلها على أن تعيد إليَّ ابنتي معها، لم أخطط في الحقيقة لرسالتها التي أوصلها إليكِ صديقك، لكن الفتاة كانت ذكية بما يكفي لإرسال هذه الرسالة إلينا.

وتنهد قائلًا:

- لا بد أنَّها ترافق ابنتي هناك الآن في كل وقت، وستخبرها بما ننوي فعله في الوقت المناسب.

قطبتُ جبيني تعجبًا، وقلتُ ساخرة:

- يبدو أنّي الحمقاء الوحيدة في هذه العائلة.

تجاهل قولي وتابع:

- إنّي حقًا في حاجة إلى كل مساعدة موثوقة، إن كنتِ تثقين بصديقكِ وكان في مقدوركِ تدبير لقاء بيني وبينه.. فإنّ ذلك قد يساهم مساهمة كبيرة في تهريب الفتاتين بأقل قدر من الخسائر.

سألته:

- ألم تخطط من قبل لكشف الأمر كله لجموع الناس؟

هز رأسه نفيًا وقال:

- لقد تعلمت من تجربتي السابقة أن مواجهة بنك التخصيب علنًا هي أغبى الخيارات التي قد ينتهجها أي شخص، كانت زوجتي مخطئة بمحاولتها كشف أمر ذلك السمسار، لم نجنِ من ذلك إلا تدمير أسرتنا، وكما ترين.. لم يتأثر البنك في شيء، إنّه مُحصَّن بقوةٍ دولية، ولديه من القوة والنفوذ ما يكفيانه لقلب الطاولة على رؤوسنا جميعًا وإخراجنا نحن الخاسرين في كل الاحتمالات، لذا بعد كل هذا العمر لا أريد سوى الاجتماع بابنتي مجددًا لنعيش معًا فيما تبقّى من أعمارنا، سأشاكس البنك في حدود إمكاناتنا الضعيفة دون أن أمس سمعته بسوء.

وفرد أصابع يده اليمنى تباعًا وهو يقول:

- تهريب الفتاتين بعد تسجيل البنك اسميهما رسميًا بوصفهما حالتي وفاة، تدمير شريحتيهما بالموجات المغناطيسية، إعطائهما هويتين مزيفتين تكملان بهما حياتهما، وربما استئصال رحميهما إن استطعنا ذلك خشية أي حادث مستقبلي قد يكشف كونهما خليتين سابقتين.

سألته مستغربة ومستنكرة في الوقت ذاته:

- ولكن أليس من حق كل أسرة لديها ابنة في ذلك المزاد أن تسترد ابنتها هي الأخرى؟

قال ببرود شديد:

- بلى.. حقهم، لكننا لن نستطيع أبدًا تهريب الفتيات جميعهن، ولا نستطيع إشراك أناسٍ لا نعرفهم ولا نثق بهم تمام الثقة، إنْ أفشى أحدهم سر ما نخطط له فسنجد أنفسنا محتجزين بين أربعة جدران لا تعرف الشمس لنا طريقًا، وستجدين الأخبار جميعها تتحدث في اليوم التالي عن سعادة الخلايا في محميات البنوك وسعادة أسرهن بالامتيازات الإضافية التي أقرَّها البنك منحةً منه لإسعادهم.

وصمت لحظة، ثم قال وهو ينظر إلى عينيَّ:

- هناك بعض الأوقات علينا أن نفكر فيها بمصلحتنا فحسب، وهذا ما عوَّدتُ عليه عقلي منذ زمن بعيد، فلا أحد من أهالي الخلايا الأخريات شاركني أحزاني على زوجتي وطفلتي، أو شاركني غرفتي في المصحة النفسية، أو شعر بعذابي الداخلي الذي عشته السنوات الماضية.

هززت رأسي بغير اقتناع، ثم قلت:

- وما الدور الذي تحتاجني لشغله في تلك المهمة التي تنوي تنفيذها؟

قال:

- في الحقيقة لم أضع في الحسبان معرفتكِ بالأمر قبل تنفيذه، تصرف يونس من تلقاء نفسه حين أعاد إليكِ تلك الفرصة الفورية.

ثم أضاف:

- لا أعتقد أنّي في حاجة إليكِ الآن، كل ما أريده منكِ هو أن تعودي إلى بيتكِ وتنتظري اللقاء الثاني الذي وعدكِ به صديقك، وتدبري لي موعدًا معه إن استطعتِ وأنا سأتولى بقية الأمور، وحتى ذلك اللقاء سأتواصل معكِ هاتفيًا إن وجدت حاجة ماسة إليكِ.

وأخذ هاتفي ودوّن رقم هاتفه لي، وهو يقول:

- لا تخبري أمكِ أو يونس بشأن المزادات و«حياة»، إنّي أريد كشف كل شيء في الوقت المناسب تمامًا.

أومأت برأسي إيجابًا، ونهضت من جلوسي على السرير، وقلت وأنا أمد يدي لأصافحه:

- حسنًا سيدي، أرجو لكَ كل التوفيق، وأرجو أن ألتقي بكَ أنتَ وابنتكَ وسوزان في أقرب وقت.

صافحني مودعًا إياي، بعدها غادرتُ الغرفة في حين بقيَ هو موضعه ينظر إلى صورة أسرته بشرود.

عندما خرجت وجدت يونس وأمي ينتظرانني في الردهة، أخبرتهما بضرورة عودتي إلى «المنصورة الساحلية» مرة أخرى، فلربما يزورني رامي في أي وقت، فتقبّلا ذلك. وفي تمام التاسعة مساءً كنت على متن الحافلة المسائية المتجهة إلى تلك المدينة.

***

بعد ذلك اليوم.. شعرتُ أنّ الأيام تمضي مهرولة بلا توقف، أعددت في رأسي كل السيناريوهات التي قد أتحدث بها إلى رامي عندما ألتقي به كي يقتنع بمقابلة السيد شاهين، تارة أفكر في إخباره بأمر المزادات وتارات أخرى أتراجع خوفًا من إفشائه السر الذي قد يُودي بحياة الجميع بما فيهم أمي وأخي وسوزان، إنّي أعرف رامي جيدًا وأعرف

- لا أعتقد أنّي في حاجة إليكِ الآن، كل ما أريده منكِ هو أن تعودي إلى بيتكِ وتنتظري اللقاء الثاني الذي وعدكِ به صديقك، وتدبري لي موعدًا معه إن استطعتِ وأنا سأتولى بقية الأمور، وحتى ذلك اللقاء سأتواصل معكِ هاتفيًا إن وجدت حاجة ماسة إليكِ.

وأخذ هاتفي ودوَّن رقم هاتفه لي، وهو يقول:

- لا تخبري أمكِ أو يونس بشأن المزادات و«حياة»، إنّي أريد كشف كل شيء في الوقت المناسب تمامًا.

أومأت برأسي إيجابًا، ونهضت من جلوسي على السرير، وقلت وأنا أمد يدي لأصافحه:

- حسنًا سيدي، أرجو لكَ كل التوفيق، وأرجو أن ألتقي بكَ أنتَ وابنتكَ وسوزان في أقرب وقت.

صافحني مودعًا إياي، بعدها غادرتُ الغرفة في حين بقيَ هو موضعه ينظر إلى صورة أسرته بشرود.

عندما خرجت وجدت يونس وأمي ينتظرانني في الردهة، أخبرتهما بضرورة عودتي إلى «المنصورة الساحلية» مرة أخرى، فلربما يزورني رامي في أي وقت، فتقبلا ذلك. وفي تمام التاسعة مساءً كنت على متن الحافلة المسائية المتجهة إلى تلك المدينة.

***

بعد ذلك اليوم.. شعرتُ أنَّ الأيام تمضي مهرولة بلا توقف، أعددت في رأسي كل السيناريوهات التي قد أتحدث بها إلى رامي عندما ألتقي به كي يقتنع بمقابلة السيد شاهين، تارة أفكر في إخباره بأمر المزادات وتارات أخرى أتراجع خوفًا من إفشائه السر الذي قد يُودي بحياة الجميع بما فيهم أمي وأخي وسوزان، إنّي أعرف رامي جيدًا وأعرف

مدى حرصه على مصلحته الشخصية، وأدرك تمامًا أننا إن وُضِعنا في كِفَّة ووُضِع عمله في الكِفَّة الأخرى، فلن يأخذ الأمر منه ثانيةً لتقرير أي كِفَّة سيختار، بحثت كثيرًا كذلك في شبكة الاتصالات المحلية عن مزادات مشابهة لما تحدَّث عنها السيد شاهين، كانت النتائج جميعها واحدة؛ مقالات عن تجريم بيع أو إهداء الخلايا الزرقاء بين دولة وأخرى، وشروحاتٍ عن العقوبات الرادعة التي تضعها منظمة الإنجاب الدولية للحد من ذلك النوع من التجارة، بحثتُ أيضًا مراتٍ ومراتٍ عن أي خلية ناجية أو عادت إلى أهلها بعد انتهاء خدمتها، كان الفشل حليفي في كل محاولة من محاولات البحث. في اليوم العاشر بعد عودتي من المنيا القديمة.. خطرت في رأسي فجأةً فكرة مجنونة، لطالما أعلنت وزارة الإنجاب بصورة يومية أسماء الخلايا التي تُولد، والخلايا التي تنضم إلى المحميات عبر تقاريرها اليومية المعروضة على شاشات الميادين والمؤقتات وقنواتها التليفزيونية. فهمستُ إلى نفسي حالمةً: «ماذا لو استطعت الوصول إلى أهالي الخلايا المنضمات إلى المحميات منذ ثمانية عشر عامًا، وأشعلتُ الحماسة في قلوبهم كي يستعيدوا بناتهن قبل الرحيل عن البلاد؟»، ضاربةً بكلام السيد شاهين عن تفضيله المصلحة الشخصية عُرْض الحائط، ووجدت نفسي أُلِح إلى شبكة الاتصالات المحلية من أجل العثور على تسجيلات التقارير اليومية لوزارة الإنجاب قبل ثمانية عشر عامًا، لكن رجائي خاب سريعًا عندما وجدتُ أقدم التقارير المحفوظة على الشبكة لا يزيد عمرها على عشرة أعوام، وأخرجت زفيري حانقةً وأنا أغمغم: «وُئدَت الفكرة في مهدها»، ثم أردفت محدثةً نفسي: «إنَّ المكان الوحيد الذي لا بد أنَّه يمتلك قوائم تلك الأسماء هو المكتبة الرقمية لقناة البنك التليفزيونية».

وأمسكتُ برأسي يأسًا وأنا أفكر في استحالة الوصول إلى تلك المكتبة والحصول على ثلاثمئة وخمسة وستين تقريرًا يوميًا مرَّ عليها ثمانية عشر عامًا، بصفة غير رسمية، غير أنّي، وفي أثناء استحمامي في الليلة التالية لتفكيري في ذلك الأمر، خطر في بالي المكان الذي قد أستطيع من خلاله الحصول على أسماء تلك الخلايا وملفاتهن الكاملة في أقصر وقت وجهد ممكنين دون الحاجة إلى مكتبة تلك القناة؛ حاسوب مقر مجموعة الدعم! حيث القاعة الصغرى المُهمَّشة دون أفراد أمن، والتي لا أعتقد أنَّ أحدًا فكر من قبل أنَّ ذلك الحاسوب الصغير الموجود في مكتب موظفة الاستقبال هناك يتصل اتصالًا مباشرًا بشبكة اتصالات بنك التخصيب الرقمية، وعلى أساس ذلك تأكدَتِ الموظفة من صلة قرابتي بسوزان واليوم الذي سُلِمَتْ فيه للمحمية بضغطة زر واحدة عندما ذهبت إلى هناك للمرة الأولى، ثم فكرت في حتمية وجود كلمة سر معقدة له، وضحكت ساخرةً من نفسي بأنّي لن أقطع يد الموظفة من أجل الولوج إليه، إلا أنّي شعرت في داخلي بثقة غريبة بأنّي سأجد طريقةً لسرقته أولًا ثم اختراقه ثانية، لم أكن أعرف شخصًا في مجال اختراق الحواسيب، لكنّي فكرت على الفور أنَّ مراد لا بد أنَّه قد يعرف أحدًا، وفي صباح اليوم التالي ذهبت إليه مباشرة، أخبرته أولًا أنّي قابلت حسان، سألني مضطربًا إن كنت صادقة في حديثي، ربتُّ على كتفه وأومأت برأسي إيجابًا، سألني عن مكانه، رفضت أن أخبره مؤكدةً له أنَّ ذلك طلب أخيه، وأصررت على موقفي على الرغم من إلحاحه الشديد، في نهاية المطاف تقبل التزامي كلمتي لأخيه ما دام بخير، وسألني إن كان ذلك سبب زيارتي الوحيد، فقلت:

- في الحقيقة لقد جئت إليكَ من أجل شيء آخر، يوجد حاسوب في مكان ما أريد الحصول عليه أولًا ثم الولوج إلى نظامه الرقمي.

وأردفتُ:

- أعلم تمامًا أنَّ حسان لن يريد أبدًا توريطكَ في أي جريمة، لكنِّي أريدكَ فحسب أن تدلني على من يساعدني في ذلك، تعلم أنَّ علاقاتي محدودة للغاية.

سألني سريعًا:

- ماذا تهدفين من وراء هذه الفعلة؟

قلت:

- إنَّه شيء خاص بي.

سألني:

- له علاقة بحسان؟

أومأت برأسي نافية:

- لا.

ثم تابعتُ مستدركةً:

- ربما له علاقة، لكنَّها من بعيد.

فكر للحظات ثم قال:

- حسنًا.. اتركيني لبعض الأيام، سأبحث لكِ عن شخص موثوق قد يساعدكِ، هل حددتِ ثمنًا لذلك؟

فاجأني حديثه عن المقابل، خاصةً أنِّي لم أعد أمتلك مالًا متبقيًا من ثمن بيتنا بعد شرائي سيارتي، لكنِّي قلت له:

- جد لي الشخص المناسب، وسأعطيه المقابل الذي يطلبه.

***

عندما حلَّ منتصف الشهر، ذهبتُ إلى مقر مجموعة الدعم، ألقيت نظرة عابرة نحو حاسوب مكتب الاستقبال وأنا أعبر إلى الداخل قبل أن ألقي التحية على موظفة الاستقبال التي كانت منهمكة في الشاشة أمامها، ثم بدأتِ الجلسة وبدأت النساء في سرد حكايتهن المكررة، فظلَّت عيناي مُسلَّطتين على تعابير وجه السيدة فريدة دون غيرها، حتى إنّي شعرت بالقلق والتوتر يعتريان وجهها مع ملاحظتها ذلك الترصد مني. بعدما انتهت الجلسة وهمَّت النساء بالمغادرة، وجدتها تتلكأ في مشيتها وتتأخر عنهن عمدًا، فتعمدت التلكؤ أنا الأخرى، ثم وجدتُها تسألني ونحن في طريقنا إلى المغادرة، ولم يكن غيرنا في المقر سوى موظفة الاستقبال وإحدى عاملات النظافة:

- أعندكِ خطبٌ ما يا ليلى؟

فقلتُ لها مباشرةً:

- لماذا حقنتِ ابنتكِ بالأكسيدوفرين؟

امتقع وجهها الأبيض المُنمش في لحظات وحدَّقتْ ذاهلة إلى وجهي، وبنبرة مرتبكة سألتني:

- ماذا تقولين؟

قلت بعدما تأكدت بعينيَّ سريعًا أنَّه لا أحد يسمعنا:

- كنتِ تعرفين بأمر المزادات، أليس كذلك؟

زعقت فيَّ فجأةً بنبرة عالية لفتت انتباه عاملة النظافة التي كانت تتنقل بين الغرف:

- عن أي شيء تتحدثين؟!

ارتبكتُ من زعيقها المفاجئ، لكنِّي تماسكتُ سريعًا وقلت:

- أردتِ تلك الفرصة لتهريبها، أليس كذلك؟ يُدوِّن البنك وفاتها رسميًا مع مغادرتها محمية جنوب سيناء وتحاولين تهريبها قبل رحيلها عن البلاد.

همَّتْ بالمغادرة مثلما فعلت المرة السابقة حينما سألتُها عن ابنتها، فأسرعتُ متجاوزة إياها ووقفتُ أمامها، وقلت:

- لماذا سكتِّ كل هذه السنوات؟ ما الذي يخيفكِ إلى هذه الدرجة؟ ألذلك السبب سمح لكِ مندوبو وزارة الإنجاب بالانضمام إلى هذه المجموعة؟ ألم يحرك مشاعركِ بكاء الأمهات هنا كل مرةٍ حزنًا على بناتهن؟! ألم يستيقظ ضميرك ولو لمرة واحدة وقررتِ كشف الأمر لعل امرأة واحدة من تلك النساء البائسات تلتقي ابنتها من جديد؟!

زعقت فيَّ وهي تحذرني بإصبعها:

- ابتعدي عن طريقي.

جاءت موظفة الاستقبال مسرعة هذه المرة وسألتنا إن كانت لدينا مشكلة ما، فتحركتُ من أمام السيدة فريدة وأنا أزفر بقوة، وهززت رأسي للموظفة نفيًا، فأكملت السيدة طريقها إلى الخارج بصمت، سألتني الموظفة مُصِرَّةً:

- ما الأمر يا ليلى؟

قلت:

- لا شيء.

وغادرت أنا الأخرى بمشاعر وجسد مضطربين نادمةً كل الندم على عدم التحكم في انفعالاتي وتسرعي بإخبار تلك السيدة بمعرفتي عن أمر المزادات دون أن أعرف ما قد ينتج عنه ذلك، ومغتاظةً في الوقت نفسه

من إصرارها على كتمان ما تعرفه عن تلك المحمية، والذي بدوره قد يفيدنا في الأيام القادمة. فكرت في مهاتفة السيد شاهين.. لكنِّي أغلقت الخط قبل أن يصدر الجانب الآخر رنينه، وجلست إلى حاسوبي وولجت إلى شبكة الاتصالات المحلية وأخذت أبحث من جديد عن أي معلومة تتحدث عن مزادات الخلايا، عثرت هذه المرة مع بحثي باللغة الإنجليزية على مقال تناول صورًا لأطفالٍ في معسكرات المنظمات الإرهابية، على الرغم من القيود الدولية الصادرة قبل عقود بحرمان أعضائها الإنجابَ، ومراقبة مجلس الأمن الدولي محميات الدول المعروفة بدعمها الإرهاب، صادفتُ كذلك مقالًا آخرَ مُترجمًا إلى الإنجليزية عن اللغة الروسية، تحدث عن العثور على مقبرةٍ جماعية لمئة وثلاثين امرأة دُفِنت في جبل جليدي بإحدى دول شرق أوروبا -لم يُذكر اسمها-. رجَّحت السلطات هناك أنهن خلايا زرقاء من أصول شرق أوسطية، وإن لم يذكر المقال ما آلت إليه التحقيقات فيما بعد. حاولتُ البحث عن مزيد من المقالات المتعلقة بذلك الخبر، كان المقال نفسه منسوخًا بأكثر من لغة، وعندما اجتهدت في ترجمتها جميعًا عبر المترجم الفوري الإلكتروني.. لم أجِد إضافة تُذكر، حتى غلبني النعاس لأبدأ يومًا جديدًا في الصباح التالي، كان مثل أيامي السابقة جميعها، حيث لا شيء سوى التوتر، التوتر فحسب.

فكرت في العودة من جديد إلى المنيا القديمة، لكنَّ خوفي من مجيء رامي إليَّ في أي وقت جعلني أُبعد الفكرة عن رأسي مؤقتًا، فكرت كذلك في مهاتفة السيد شاهين لإخباره عن ذلك الحاسوب في مقر مجموعة الدعم وعن فكرتي بالوصول إلى أهالي الخلايا المنضمات للمحميات قبل ثمانية عشر عامًا من خلاله، لكنِّي كنت أعرف تمامًا أنَّه لن يوافق على ما يدور في رأسي بإفشاء سر المزادات في ذلك التوقيت، وربما يعنفني لتصرفاتي الهوجاء دون استشارته أولًا، فتراجعتُ عن إجراء تلك

المكالمة. هاتفتُ مراد راجيةً له أن يسرع في بحثه عن الشخص الذي يسرق لي ذلك الحاسوب، وخلال تلك المكالمة أخبرته عن تعديلٍ طفيف فيما أفكر فيه، خطر لي لحظتها وأنا أتذكر المشادَّة التي حدثت بيني وبين السيدة فريدة، وقلت:

- لا أريد سرقة الحاسوب، أريد الولوج إليه من موضعه ونسخ أسماء الخلايا المنضمات إلى المحميات خلال عام 2320م وملفاتهن، وترك كل شيء كما هو.

فسألني مستغربًا:

- أي خلايا؟! وأي محميات؟! هل الأمر يتعلق ببنك التخصيب؟!

أخرجتُ زفيري من الحماقة التي تغمرني بعدما تذكرتُ أنّي لم أخبره من الأساس عن الحاسوب الذي أود اختراقه، وعضضت على شفتيّ، وقلت:

- نعم.

سمعت تنهيدته الحانقة التي تبعها بصمت مُطبق ظننت معه أنَّ الخط قد انقطع، سألته إن كان لا يزال يسمعني، قال بعد ثوانٍ أخرى من الصمت:

- نعم يا ليلى.

قلت:

- إنَّ الحاسوب في مكان مُهمَّش الحماية، أريد شخصًا بارعًا في اختراق الأنظمة الرقمية فحسب، ولديَّ الاستعداد لإعطائه فرصة إنجاب فورية.

قال بنفاد صبر:

- إنَّ الأمر ليس بهذه السهولة التي تتصورينها، إنَّ آخر ما يريده أي شخص هو التورط في جريمة تتعلق ببنك التخصيب، ليس كل الجميع مثل حسان.

قلت:

- جد لي ذلك الشخص أرجوك، إنَّها مسألة مصيرية لأناسٍ كثيرين.

قال متململًا:

- سأواصل بحثي، لكنِّي لا أعدكِ بإيجاده.

وأغلق الخط.

***

في جلسة بداية الشهر الجديد.. لم تحضر السيدة فريدة إلى مقر المجموعة، أبدت النساء في البداية تعجبهن من غيابها غير المعتاد قبل أن يبدأن حكايتهن في غير اكتراث. بعد انتهاء الجلسة سألت الموظفة عن عنوان تلك السيدة، لعلَّ خطبًا غير سارٍّ أصابها، تعجبتْ من طلبي، خاصةً مع ما حدث بيننا في المرة السابقة، لكنَّها أعطتني العنوان باسمةً في النهاية.

في الطريق إلى تلك البناية التي دوَّنتْ لي موظفة الاستقبال عنوانها بخط يدها، كان رأسي يشتعل باحثًا عن السبب الذي أختلقه للسيدة فريدة كي أبرر زيارتي لها، كنت أعرف أنَّها لن تستسيغ أبدًا فكرة مجيئي إليها من أجل الاطمئنان عليها فحسب.. بعدما شُيِّد في داخلها حاجزٌ نفسي كبير ناحيتي بعد النقاش الحاد الذي دار بيننا قبل أسبوعين، غير أنِّي لم أجد في رأسي مبررًا مقنعًا إلا إعلاني لها صدق رغبتي في الاطمئنان عليها.

وصلتُ إلى بيتها في وقت الغروب تقريبًا، وجدته بيتًا فخمًا من طابقين، له واجهة حجرية بيضاء تطل على حديقةٍ من الزهور يحيطها سور حديدي منخفض، تجاوزتُ بوابة السور إلى الممر الطوبي الداخلي المنتهي بباب البيت الرئيسي، الذي ضغطتُ جرسه وانتظرت، تفاجأتِ السيدة عندما وجدتني أقف أمامها، ومكثت تنظر إليَّ بصمت ممزوج بترقبٍ واضح ربما لدقيقة كاملة، ضممتُ شفتيَّ قبل أن أنطق متجاهلةً كل ما فكرت فيه طوال الطريق:

- لا أعرف ما الذي جاء بي إلى هنا، لكنِّي وجدتُ قدميَّ تأخذانني إليكِ.

سمعت صوت زفيرها الذي أطلقته قبل أن تشير إليَّ كي أدخل، فدلفتُ وراءها في حذر، كان البيت واسعًا من الداخل أكثر مما تخيلتُ، وكان أثاثه لا يقل فخامةً عن واجهته، ومع الصمت المطبق في كل أرجائه والحالة المثالية لترتيبه.. أدركتُ أنَّ تلك السيدة تعيش وحيدةً منذ وقت طويل، أجلستني على مقعد مريح من مقاعد الردهة المُذهَّبة ذات النمط المتشابه، فجلست لا أجد كلمات للنطق بها، وخائفة في الوقت نفسه أن أتفوه بأي كلمة عن ابنتها فتلقي بي خارج بيتها، هي أيضًا واصلت صمتها وتحديقها إليَّ كأنَّها تفكر في شيء ما، إلى أن قالت أخيرًا:

- كيف عرفتِ بأمر المزادات؟

قلت كاذبةً بتلعثم:

- عثرت على مقال باللغة الإنجليزية تحدث عنها باستفاضة بعدما اكتُشفت مقبرة جماعية للخلايا الزرقاء في إحدى الدول.

أخرجت زفيرها من جديد، وانطبع وجهها بملامحَ تقول إنَّها لم تصدقني، وقالت:

- لماذا لا تخبرينني بالحقيقة؟

قلتُ مصممةً:

- إنَّ هذه هي الحقيقة.

فهزَّت رأسها إيجابًا، وسكتت من جديد كأنَّها تعلن لي موقفها من كذبي الواضح، وبدا عليها رغبتها في تمرير الوقت احترامًا لزيارتي، فدار في رأسي سريعًا صراع كبير بين رغبتي في البوح لها عن حقيقة معرفتي بالأمر، والذي قد يفضح أمر السيد شاهين ويونس وأمي ويهدد خطتهم من جهة، واحتمالية إضافتها شيئًا قد يساعدهم حقًّا مع خبرتها الكبرى بالعمل في المحميات من جهة أخرى، فقلت في النهاية:

- اكتشفها أبٌ لخلية زرقاء انضمت إلى المحميات قبل سنوات، عرف بالأمر من أحد سماسرة المزادات، وولج بنفسه إلى موقع بيع الخلايا وتيقَّن من الأمر، وهو مَن أعدَّ الخطة لإرسال أختي إلى محمية جنوب سيناء.

نظرت إليَّ بطرف عينها من أسفل جفنها المتهدل، وواصلت صمتها، فقلتُ:

- دائمًا ما أثق بحدسي، وحدسي يخبرني أنَّه يوجد أمر ما تخفينه عن الجميع.

وتنهدتُ ثم أردفتُ:

- لقد كذبتُ في حكايتي التي سردتُها في مقر المجموعة، أو دعيني أقُل إنّي اكتشفت مؤخرًا بُعدًا آخر لقصتي، لم يمُت أخي أو أمي كما ادَّعيت، لقد تخليا عن عيش حياتهما من أجل لَمِّ شملنا مرة أخرى غير عابئين بأي خطر قد يصيبهما، وهما الآن على وشك

فقدان روحيهما بالمعنى الحرفي في سبيل حصول أختنا على حريتها.

وصمتُ لحظةً، ثم أكملت:

- إنَّكِ تعرفين مرارة فقد الأحباء، وما يتركه ذلك الشعور من ظلام داخلي لا ينفك عن بسط أذرعه حتى ينهش داخلنا تمامًا، إنَّ مصير أسرتي جميعها مرهون بما سيحدث يوم تحرك الخلايا من محمية جنوب سيناء.

ونظرتُ حولي نحو أرجاء البيت الواسعة الصامتة قبل أن أقول:

- لقد أرادوا إبعادي عن الخطر؛ ظنًّا منهم أنّي أستحق حياة هادئة كريمة لا تشوبها أي مجازفة، لكنّي أحبهم، ولا أريد أن أكمل حياتي وحيدة هكذا، أو أقضي بقية عمري أحضر جلسات حكاياتكن الكئيبة، إن كنتِ أردتِ إدخال ابنتكِ محمية جنوب سيناء.. فلا بد أنَّكِ فكرتِ في شيء تنقذينها من خلاله هناك، ربما لم يخطر ذلك الشيء في بال من يريدون المغامرة من أجل أختي، أو ربما يقلل من المخاطر التي قد يتعرضون لها، أرجوكِ.. إنّي في حاجة ماسة لمعرفة أي شيء قد يساعدني في الحفاظ على عائلتي.

قالت بهدوء:

- إنّي لم أحقن ابنتي بالأكسيدوفرين قط، لقد كانت مريضةً فعلًا باعتلالٍ قلبي شديد، وماتت موتةً طبيعيةً في إثره دون أي تدخل خارجي.

ثم سكتت لحظةً، وتابعت:

- لكنَّ حدسكِ لم يخطئ حين شعرتِ أنّي أعرف شيئًا عن المزادات السرية، نعم أعرف الكثير عنها، وأعرف أنَّ أمر تهريب أقاربكِ لأختكِ مُحال ما لم يساعدهم أحدٌ من يتامى العلمين.

سألتها مستفهمةً:

- عفوًا، ماذا تقصدين بيتامى العلمين؟!

قالت:

- إنَّها قصة طويلة.

فقلت في الحال:

- وأنا كلي آذان مصغية.

16

قالت السيدة فريدة:

- بعد قرن ونصف تقريبًا من بداية الجائحة وسيطرة منظمة الإنجاب العالمية على عمليات الإنجاب في الدول برمتها، بدأ بنك تخصيبنا المركزي مشروعًا سريًا لإنجاب أطفالٍ خارج نظام المؤقتات بهدف بحثي يقوم على إجراء تخصيباتٍ عشوائية بين حيوانات منوية وبويضات لآباء وأمهات خلايا زرقاء لا يمتّون لبعضهم بصلة، لعل ذلك يزيد نسبة الخلايا الزرقاء بعدما لم تتحسن النسبة المعروفة عالميًا مع تكرار تخصيب أجِنَّةٍ من الأبوين نفسهما، وبالفعل خُصِّب أول ألف طفلٍ تخصيبًا عشوائيًا من البويضات والحيوانات المنوية المُجمدة في خزائن فروع بنك التخصيب، زُرعَت تلك الأجنة في أرحام الخلايا الزرقاء كأجِنَّةٍ إضافية لتحمل وقتها الخلية الواحدة أربعة أطفال في الحمل الواحد بدلًا من ثلاثة كما كان شائعًا في ذلك الأوان.

كانت الخطة البحثية في البداية تقضي بالتخلص من ذكور المواليد والإناث ذات الرحم المعطوبة، والإبقاء على الخلايا الزرقاء فقط، لكن حدث تغير غير مفهوم في تلك الخطة مع عدم حصاد النتائج المرجوة، واحتُفِظ بالذكور ليُرَبَّوا في محميات سرية تابعة

للبنك كي يكونوا فيما بعد جنودًا تابعين للبنك يدينون له بالولاء دون غيره، إضافةً إلى الخلايا الزرقاء، أما الإناث ذوات الأرحام المعطوبة فتُخلَّص منهن. استمرت عمليات التخصيب تلك سنوات كثيرة بعدها، وجُرِّب حقن أرحام الفتيات بأكثر من طفل إضافي من أجل الحصول على أكبر عدد من أولئك الأطفال في أقصر وقت، لكنَّ ذلك الأمر أدى إلى فقدان عدد كبير من الخلايا خلال دورة واحدة؛ ما جعلهم يعدِلون عنه ويكتفون بالطفل الإضافي الواحد، سُمي الأطفال الناتجون عن ذلك المشروع «يتامى العلمين»، إذ لا أب ولا أم لهم معروفان، والعلمين نسبةً إلى مكان المحمية السرية التي نشؤوا فيها.

بعد ستة عشر عامًا من بدء ذلك المشروع.. بدأت الخلايا الزرقاء الناتجة عنه تدخل دورة الإنجاب نفسها في محميات مستقلة تمامًا عن محمياتنا، ومع كل عام كانت أعدادها في ازدياد مستمر حتى وصلت إلى حدٍّ يكفي إنتاج اليتامى الجدد بعيدًا عن الخلايا الزرقاء المُسجَّلة رسميًا في وزارة الإنجاب. الأمر الذي حدث ولم يكن في الحسبان أنَّ أولئك اليتامى الذين شبُّوا في المحميات السرية وكوَّنوا النواة الأولى لقوّات حماية البنوك ومحمياتها وقطاراتها بدؤوا رويدًا رويدًا يسيطرون على مفاصل بنك التخصيب المركزي ومناصبه متخلصين ممن بدؤوا مشروع إنجاب اليتامى أو يعرفون عنه، يقودهم شاب اسمه «مديَن»، كان أحد مواليد الدفعة الأولى من ذلك المشروع، الشاب الذهبي، كما لُقِّب، والذي عُرف بذكائه الخارق، حتى قيل إنَّه خُصِّب من حيوان منوي وبويضة أكثر شخصين أذكياء في البلاد، استطاع ذلك الشاب خلال ستة أعوام فقط السيطرة على أنظمة البنك

بالكامل، ووضع مؤيديه في جميع الأماكن الحيوية في فروعه، ومن بعده وزارة الإنجاب ومن بعدها الوزارات الحيوية الأخرى، ثم سيطر على شبكة الاتصالات المحلية وزوَّدها بـ «جدار مدين الرقمي»؛ تطبيق فائق الذكاء والسرعة يراجع أي خبر يُنشر عن بنك التخصيب والخلايا والمحميات في أجزاء من الثانية، ويحجبه إن شك في إساءته إلى البنك.

تذكرتُ زوجة السيد شاهين عندما لم تستطِع نشر رسالة الطبيب عبر الشبكة المحلية، لكني لم أقاطع السيدة فريدة، التي كانت تكمل دون توقف:

- ثم أراد ذلك الرجل بسط نفوذه أكثر وأكثر خارج البنك، فأعطى سيطرة وقوة وهميتين للمواطنين العاديين ممن يعملون في بنوك التخصيب، فجعل طموح أي شاب في البلاد أن يلتحق بوظيفة تتبع بنك التخصيب دون أن يعرف أنَّه يوجد سقف معين لا يستطيع تجاوزه مهما كانت كفاءته. وهو أيضًا من بدأ مشاركة بنكنا في المزادات السرية لبيع الخلايا بغية استقلال البنك ماديًا عن بقية إنفاق البلاد وتمويل مشروع اليتامى المستمر، وعندما كُشف أمر مشاركة بنكنا في تلك المزادات داخل أروقة منظمة الإنجاب الدولية.. لم يحتَج الأمر منه سوى إرسال شُحنةٍ كاملة من الخلايا الصحيحات الناتجات عن مشروعه -كل خلية في تابوت ذهبي خاص بها- كهدية للمسؤولين هناك، فأتت تلك الصفقة بثمارها سريعًا وأخمدت أي ضغينة ضده مبكرًا، واضعًا أساسًا قويًا لمن بعده، والذين ساروا بدورهم على نهجه إلى يومنا هذا.

سألتُها بذهول:

- كيف عرفتِ بهذه الأمور؟

صمتت هنيهةً ثم قالت بهدوء:

- كان أبي من يتامى العلمين.

وأردفتْ عندما حدقتُ إليها غير مصدقة:

- قامت تربية أولئك الذكور في المحميات المعزولة على تحريم العلاقة بينهم وبين النساء أيًّا كان مسماها، بغية تنشئتهم بقلوبٍ قاسية لا تعرف الرحمة أو التعاطف حين يُدفعون لتنفيذ قرارات مصيرية حاسمة، لكن كما تعرفين.. إنَّ الخير والشر والحب والكره جينات تُورَّث مثلها مثل جينات الصفات الجسدية، ومهما اندثرت أسفل عوامل التنشئة فإنَّها تظهر في الوقت المناسب كالمعدن النفيس أسفل الغبار، بدأ أبي حياته العملية جنديًّا مُكلَّفًا بحماية القطار المتجه من محمية جنوب سيناء وإليها، وعلى عكس ما نشأ عليه.. لم يستطع قلبه تفادي سهم خليةٍ زرقاء منتهية الخدمة؛ فسقط عاشقًا من النظرة الأولى، امرأة صهباء منهكة القوى أذاب صحتها حملها المتكرر لأعوام طويلة في محمية «الإسكندرية»، وقادها القدر أخيرًا إلى محمية جنوب سيناء عبر القطار من أجل عرضها في مزادات الخلايا، فوقع في غرامها ومع كل رحلة شهرية بالقطار ظلَّ يتعمد الدخول إلى محمية الخلايا لعله يراها ولو للحظة واحدة، إلى أن التقاها فأعلن لها حبه وأعطاها وعدًا بإخراجها من ذلك المكان على الرغم من علمه بالمصير الذي ينتظرهما إن عرف أحد بما أصاب قلبه، لكنَّه قرر المجازفة في طريق المستحيل من أجل حبه الأول والوحيد، وانتقل فيما بعد لتأمين القطارات الخارجة من محمية جنوب سيناء إلى الشرق، وفي يوم تسليم الخلايا إلى مالكيهم الجدد من رابحي المزاد، قفزا معًا من القطار قبل تفريغ شحنته إلى

الحافلات، ليهربا معًا إلى عالم لا يعرفان عنه شيئًا، هو قضى حياته كلها بين المحميات وقطاراتها ومعرفة العالم الخارجي من الكتب وشاشات الحواسيب، وهي قضت نصف عمرها بين جدران المحميات، والنصف الآخر قبل ثمانية عشر عامًا غريبةً تنتظر يوم استردادها للبنك من جديد.

وابتسمت وهي تقول:

- كان أبي ذكيًا بما يكفي ليضمن لها حياة طبيعية بعد هربهما، فأخرج شريحتها من نظام مراقبة البنك بمساعدة أحد أصدقائه، وأعدَّ لها هويةً مزيفة تكمل بها ما تبقى من حياتها، ومنحها رمزين موثقين رسميًا لطفلين مولودين في البنك إن أرادت الإنجاب مستقبلًا كي يعيش طفلاها حياةً طبيعية ويحظيان بمؤقتيهما في عامهما السادس عشر مثلهما مثل بقية المواطنين.

ثم زمَّت شفتيها وأردفت:

- كان من المفترض أن يعيشا معًا إلى آخر العمر، لكنَّ القدر لم يمهلهما إلا أسبوعًا واحدًا.. وعلم البنك بمكان أبي، فسألها الرحيل خوفًا عليها، وودَّعها مُعطيًا إياها قلادةً من نصف طائر نورس فضي ووعدها بالعودة من جديد مهما طالت السنوات، تقبَّلت أمي رحيله عنها، وانتقلت لتعيش في المنصورة الساحلية دون أن تعرف أنها صارت تحمل في أحشائها منه أول طفلة تتقاسم هي چيناتها. مع كبر بطنها توارت عن الأعين، وعندما حلَّ موعد الولادة قامت هي بتوليد نفسها.

فانطبعت تعابير الدهشة على وجهي، فقالت:

- لم يكن أمر الولادة مقلقًا لها على الإطلاق، لكنَّ الهاجس الأكبر الذي كان يشغلها هو احتمالية إصابتي بالچين المعطوب وموتي خلال أيام مع انتشار السرطان في رحمي أولًا ثم جسدي لاحقًا، خاصةً أنّي لم أخضع لفحص چيني أو عملية استئصال رحم عقب الولادة مباشرة، لكنَّ القدر بدا وكأنَّه يريد مكافأتها على صبرها كل تلك السنوات، فأورثني عنها الچين السليم أنا الأخرى ولم أمت. أسمتني «فريدة»، ثم استخدمت أحد رمزيْ بنك التخصيب اللذين منحهما لها أبي، وسجَّلتني فتاةً مُتسلِّمةً من مخفر الشرطة.

مع بلوغي الحادية عشرة.. تعرفتْ أمي على جرّاحٍ نبيل كان يكره بنك التخصيب وسياسته، وعندما وثِقت بحفظه سرنا.. سألَتْه أن يزيل رحمي خشية أن يُفتضح أمري مع بدء الطمث الشهري فينتزعني بنك التخصيب منها، أجرى لي ذلك الجراح الاستئصال بالفعل وحافظ على وعده لأمي بحفظ سرنا، رجتني أن أسامحها على تلك الفعلة بعد إفاقتي يومها، لكنِّي كنت صغيرة لا أفهم شيئًا، حتى وإن كنت أفهم ما حدث.. فلم أكن لأغضب منها أبدًا، كانت عائلتي الوحيدة ولم أُرِد مفارقتها قط. عندما بلغتُ الثالثة عشرة.. أخبرتني قصتها مع أبي، وإن لم تذكر أمر المزادات، وأعطتني قلادة نصف طائر النورس التي منحها لها، لم تكن تعرف حتى تلك اللحظة إن كان لا يزال على قيد الحياة أم لا، لكنِّي في قرارة نفسي عزمت يومها على المُضي قدمًا كي أتفوق دراسيًا من أجل شيء واحد؛ هو الالتحاق بالعمل في محميات الخلايا، فلربما تسنح لي فرصة لقائه هناك إن كان حيًا، وأجمع شملهما من جديد لأدوِّن قصتهما يومًا ما بين قصص الحب الخالدة.

وهزتْ رأسها أسفًا قبل أن تضيف:

- لكنَّها ماتت وفارقتني قبل أن أتم عامي السابع عشر، ومن بعدها بقيتُ وحيدة في هذه الدنيا أمضي حياتي في الدراسة وحسب، تحيط عنقي قلادة أبي التي أهداها إلى أمي، ويراودني الحلم القديم بالالتحاق بالمحميات، حتى التحقت بكلية الطب وحصدت المركز الأول كل عام، فعُيِّنتُ رسميًا طبيبةً في محمية «جنوب الصعيد»، ومنها انتقلت فيما بعد إلى محمية العاصمة، حيث تعرفت إلى زوجي هناك. لم أقابل أبي قط كما تمنيت، أو دعيني أقُل لم يتعرف أحد ممن قابلتهم في عمر أبي على قلادة عنقي.

وأطلقتْ تنهيدة ساخرة قبل أن تقول:

- ثم لعب القدر لعبته معي من جديد، ورُزقتُ أنا الأخرى خليةً زرقاء تسلَّمتها رسميًا في أحد المخافر الرئيسية بالعاصمة، كان الأمر غريبًا ومثيرًا بالنسبة إليَّ؛ أن أكون أنا وأمي وابنتي من ذوات الرحم السليمة، مناقضين النسبة الضئيلة المعروفة محليًا وعالميًا؛ ثلاثين بنتًا سليمةً من كل ألف مولودة، تجاهلت الأمر لبعض الوقت حتى نسيته تمامًا.. إلى أن جاء يومٌ بعد خمس سنوات من ولادة ابنتي كنَّا نجتمع فيه مع مديري كي نناقش خطة فرز الخلايا للشهر الجديد، كان الرجل يومها يشعر بإرهاق شديد، وأنهى الاجتماع باكرًا قبل أن يستدعيني مرة أخرى كي يكلفني ببعض المهام الإضافية. ما زلت أتذكر حتى الآن وجهه المتعب وهو يحدثني دون أن ينظر إليَّ صابًا كل تركيزه على شاشة الحاسوب أمامه، حتى انتهى من تلقين أوامره، وكدت أغادر الغرفة، فسقط فجأةً من فوق مقعده فاقدًا وعيه وحركة تنفسه بعد إصابته بأزمة قلبية حادة، هُرعت إليه كي أسعفه

وبدأت أنعش قلبه بضغطات مستمرة على صدره، بَيْد أنَّ عينيَّ تعلقتا ذاهلتين بشاشة حاسوبه التي كانت تعرض نتائج الفحص الچيني للمولودات الجدد في ذلك اليوم، والتي أكدت سلامة الچين لجميع أسماء الفتيات الموجودات في الصفحة المعروضة.

وهدأت نبرتها بعض الشيء وهي تقول:

- أتعلمين شيئًا؟ مع الذهول الذي أصابني من تلك النتائج، تركت الرجل، ومددت يدي إلى لوحة تحكم الحاسوب، وتصفحت بعينيَّ سريعًا بقية صفحات ذلك الملف لأجد أغلب نتائجها تشير هي الأخرى إلى سلامة چين المولودات، في لمح البصر اتخذتُ قرارًا بإرسال نسخة من تلك النتائج إلى حاسوبي، قبل أن أمحو أي أثر لفعلتي وأصرخ للجميع في الخارج كي يساعدوني في إنقاذ الرجل الذي كان قد مات بالفعل، بعدها عدت إلى حاسوبي وفتحت الملف وتفحصته على مهلٍ، وجدته يعرض الفحص الچيني لألف وثلاثمئة مولودة، سجلت نتائج فحصهن سلامة أربعمئة وستين منهن، بنسبة تتجاوز الثلاثين في المئة، على عكس النسبة المُعلَنة للجميع، أُصِبتُ بحالة من الصدمة وعدم التصديق، وكدت أعلن فرحتي بذلك الإنجاز المفاجئ، لكنِّي فوجئت بعد ساعات بوصول التقرير اليومي المعتمد رسميًا إلى حاسوبي، الذي كان مغايرًا تمامًا للتقرير الذي صادفته؛ خمسة وأربعون فتاة فقط ذات چين سليم! وإخضاع البقية لعمليات استئصال الرحم الطارئة، صُعِقتُ وأنا أرى بعيني ما يحدث، لكنِّي حافظت على هدوئي وكتمت سر اطّلاعي على ذلك التقرير. بعد أيام استطعت الوصول إلى ثمانية من الأرحام المستأصلة حديثًا، وأخذتُ من كل واحدة منها عينة لفحصها بنفسي، كانت النتائج كما توقعت؛ ثلاثٌ منها تحمل چينا سليمًا، ثم أخذتُ عينات أخرى عشوائية من الأرحام

المستأصلة في أيام أخرى، كانت النسبة نفسها تقريبًا، ثلث الأرحام أو ما يزيد سليم تمامًا، لأدرك أن هناك لعبةً كبرى تُلعَب من أجل الحفاظ على كيان المحميات وسطوة بنك التخصيب.

والتقطتْ أنفاسها ثم قالت:

- كان إعلان النسبة الحقيقية سيعني إمكانية بقاء الخلايا مع أسَرِهن، وشيئًا فشيئًا العودة إلى حياة ما قبل الجائحة؛ الإنجاب دون رقيب، وهذا ما لن يرضاه أبناء العلمين أبدًا بعد السلطة والنفوذ اللذين امتلكوهما.

ذُهلت مما تقوله وكِدتُ أنطق، لكنَّها تابعت سريعًا:

- أخبرتُ زوجي، فنصحني بالصمت، وحاول الوصول بنفسه إلى حقيقة الأمر. بعد شهر واحد اختفى فجأةً دون مقدمات، عرفت أنَّ أمرنا قد افتُضح، وأنِّي على وشك الموت أنا وابنتي، وعشتُ لحظات رعب لم أعِشها في حياتي، لكن وسط تلك اللحظات.. زارني الضيف الذي انتظرته أكثر من ثلاثين عامًا، كهلٌ أنيق يحمل النصف الآخر من قلادة طائر النورس الفضي؛ أبي.

وضحكتْ بعينين تلمعان بدموعهما وهي تقول:

- لم أصدق أنَّه كان لا يزال على قيد الحياة، أخبرته باكيةً أنِّي لطالما حلمت بجمع شمله مع أمي مرة أخرى، سقطتْ دموعه حين علم بموتها، فأخبرته عن المكان الذي دُفِنت فيه إن أراد زيارتها ولو لمرة وحيدة، حدثني أنَّه أُجبِر على التخلي عنها من أجل حمايتها، وأخبرني عن المنصب المهم الذي صار يشغله في بنك التخصيب بعد نجاحه في العودة مجددًا وطمسه كل دليل يورِّطه في هرب أمي، قال إنَّه عثر على القلادة في رقبتي قبل وقت قريب عبر الصور التي تلتقطها كاميرات المراقبة في محمية العاصمة صدفةً، وتأكد أنَّ الرمز الخاص بمولدي هو أحد الرمزين

اللذين أعطاهما لأمي قبل رحيله عنها، ثم مكث يراقبني من بعيد حمايةً لي ولأسرتي المستقرة، إلى أن عرف بإدراج اسمي هدفًا للتصفية أنا وزوجي، وهنالك كان لا بد من تدخله، قال إنَّه لم يستطع إنقاذ زوجي، لكنَّه استطاع إبدالي بزميلة تشبهني لقيت حتفها للأسف، كذلك استطاع إصدار قرار بإبعادي عن محمية العاصمة إلى محمية جنوب سيناء، سألته عن التقارير المزيفة والنسبة المغلوطة عمدًا، رفض الحديث عن الأمر في البداية.. لكنَّه عاد وأخبرني عن قصة يتامى العلمين والمشروع الذي بدأ قبل سنوات طويلة، وكل شيء أخبرتكِ به قبل قليل.. وإن أكد لي أنَّهم لا يعرفون بعدُ سر ازدياد النسبة بهذا الحد في السنوات الأخيرة، واختتم حديثه لي محذرًا عندما أصررت على سؤالي عن سر إخفاء الأمر:

- إنَّ الأمر يُدار على نطاق دولي كبير، وتوجد مؤسسات دولية كبرى تتحكم في الأمر برمته، إنَّ الأمر أكبر مني ومن أي شخص.

سألته إن كانت النسبة مغلوطة في البلدان كلها، هزَّ رأسه نافيًا، وقال:

- لا أعتقد ذلك، جميع التقارير السرية التي تأتي من البلدان الأخرى لم تذكر أي تحسن في نسبتها.

وكرر حديثه بصوت منخفض قليلًا:

- وكما قلت لكِ، حتى الآن لا نعرف بعدُ سبب الطفرة التي حدثت لدينا منذ سنوات.

في تلك الليلة أكمل لي الجانب الآخر من قصته مع أمي، التي لم تكن أنا أو هي نعرفه؛ المزادات السرية، وكأنَّه أراد تهيئتي لما قد أكتشفه مع عملي في محمية جنوب سيناء، أخبرته مصعوقة أنَّ ابنتي خلية زرقاء، وقد تواجه المصير نفسه، أخرج زفيره في

قلة حيلة غريبة، ولم يفعل شيئًا بعدها سوى أنه قبَّلها وغادر بعد أن حذرني أنَّه لن يستطيع إنقاذي في المرة القادمة. عرفت في داخلي أنَّ أبي لم يكن متمردًا قط، فقط أحب أمي فأنقذها من أجل ذلك الشعور الغريب الذي اجتاحه، ثم عاد ليكون ترسًا في آلة البنك المركزي الغاشمة. عندما ذهبتُ إلى العمل في محمية جنوب سيناء.. كان قلبي يعتصر حزنًا على الفتيات اللاتي أُعالجهن هناك، ورعبًا من المصير الذي ينتظرهن وينتظر ابنتي المسكينة هي الأخرى بعد سنوات، وإن لم أستطع فتح فاهي بكلمة عمَّا أعرفه خوفًا من المصير الذي لاقاه زوجي خاصةً مع تحذير أبي.

بعد عام واحد من العمل في تلك المحمية.. أُصيبت ابنتي باعتلالٍ قلبي شديد، حاولتُ الوصول إلى أبي من جديد لعله يتدخل ويبعدها عن ذلك المصير، لكنِّي لم أصل إليه قط، ثم زاد مرض المسكينة سوءًا واشتدادًا، وصار عذابًا حقيقيًا لها، فاختلستُ قنينة أكسيدوفرين سرًا من خزانة الأدوية المحظورة في المحمية كي أحقنها به لأريحها من ذلك العذاب، لكني لم أستطع فعلها.

وتساقطت دموعها وهي تكمل:

- حتى عدت إلى البيت ذات صباح فوجدتها قد فارقت الحياة، ما زلت أتذكر زرقة وجهها وشفتيها، ماتت وحيدة وأنا أعمل في المحمية.. كأنَّ الله أراد عقابي على سكوتي عما يحدث.

ومسحت دموعها بيديها، وتابعت:

- تركت العمل في المحميات في العام نفسه بعد إثبات عدم كفاءتي النفسية للعمل، وعدت إلى هنا وحيدة بائسة أؤثر الصمت على النطق بكلمة واحدة.

وهزَّت رأسها آسفةً وهي تقول:

- بعد عام من وفاة ابنتي.. وصلت إليَّ رسالة صوتية من أبي، بدا صوته وكأنَّه ينازع الموت وهو يعتذر لي عن ابتعاده مرغمًا عني وعن ابنتي كل ذلك الوقت كي يؤمِّن حياتنا بعدما صار هو نفسه هدفًا للتصفية، لم يكن يعرف أنَّ الفتاة ماتت بالفعل.. قال في رسالته إنَّه ترك لي في المكان الذي دُفنت فيه أمي حاسوبًا نادرًا استطاع الحصول عليه أخيرًا، بمقدرة ذلك الحاسوب الولوج إلى موقع بيع الخلايا، لربما أستطيع من خلاله إنقاذ ابنتي أو المساومة على إرجاعها.

وضحكتْ ساخرةً:

- كانت الطاقة الغاضبة في داخلي حينها لا تريد شيئًا في الدنيا سوى فضح أولئك السفلة، لكنِّي لم أستطع الولوج إلى نظام ذلك الحاسوب قط. قال أبي في رسالته إنَّ كلمة السر الخاصة به تتكون من اجتماع رمزَي الطفلين اللذين أعطاهما لأمي قديمًا، وحصلتُ أنا على أحدهما. ولم يذكر الرمزين في رسالته خوفًا من وقوعها في أيدٍ غير مرغوب فيها، لم يكن يعلم أنَّ أمي لم تخبرني بالرمز الآخر قط.

وهزَّتْ رأسها من جديد آسفة:

- كان السبيل الآخر للولوج إليه هو بصمة يد كاملة لشخص لا أعرفه.

هنالك اندفعتْ الدماء في عروقي، وخفق قلبي خفقانًا عظيمًا وأنا أتذكر يد السمسار المقطوعة التي لا يزال السيد شاهين محتفظًا بها.

17

سألتُ السيدة فريدة على الفور:

- أما زلتِ تمتلكين ذلك الحاسوب؟

قالت:

- نعم، لكنَّه ليس معي هنا، عندما لم أستطع الولوج إلى نظامه الرقمي وأصابني اليأس من ذلك.. أعدته مرةً أخرى إلى المكان الذي تركه فيه أبي؛ قبر أمي، هناك يقبع في صندوق معدني، ومعه بعض الأغراض التي تخصهما.

قلت بلهفة:

- أعتقد أنّي أستطيع مساعدتكِ في الولوج إليه، إنَّ السيد شاهين الذي يسعى لتهريب أختي.. يمتلك يدًا محفوظة لأحد السماسرة الستة الذين يستطيعون الولوج إلى أي حاسوب من حواسيب المزادات، قتله قبل وقتٍ بعيد واحتفظ بيده في حالة جيدة، أعتقد أنها ستكون صالحةً للمرور إلى نظامه.

نظرتْ إليَّ متشككة، فأردفت متابعة بحماس:

- قبل أن آتي إليكِ.. لم يكن في بالي أي تصور عن الخطوة التالية، ولكن يبدو أنَّ الأمور تسير جميعها نحو هدف واحد وهو فضح تلك المزادات.

وحكيتُ لها تفصيلًا عن قصة السيد شاهين وزوجته والسمسار الذي احتفظ بخلية زرقاء لنفسه وكانت سببًا في فضح أمره. قالت بعدها مُفكرة:

- لا أعتقد أنَّ الأمر سيكون بهذه السهولة يا ليلى، لا يأخذكِ الحماس فيتسبب في قتلكِ وقتل من تحبينهم، بعد حديثكِ هذا صرت أوقن أنَّ ذلك الحاسوب الذي تركه لي أبي منذ اثني عشر عامًا سيُعطي إشارة فورية لمسؤولي بنك التخصيب بمجرد الولوج إليه إن استطاعت اليد التي تتحدثين عنها فك شفرة دخوله، لذلك علينا أن نفكر في تأمين حياتنا أولًا قبل اتخاذ تلك الخطوة.

قلت:

- سأعمل على التفكير في الأمر وسأخبركِ بما سأصل إليه، لكنْ لديَّ سؤالًا واحدًا الآن وأريد إجابتكِ سيدتي؛ هل لديكِ النيَّة لمساعدتنا باستخدام ذلك الحاسوب إن كُنَّا في حاجة إليه؟

نظرت إلى عينيَّ، ثم هزَّت رأسها إيجابًا.

غادرتُ بيتها بعد حصولي على ذلك الوعد منها، كانت الساعة وقتها قد صارت الثانية والنصف صباحًا، لذلك لم أجد ردًّا من السيد شاهين عندما واصلت الاتصال به خمس مرات متتالية. عندما وصلتُ إلى شقتي كان الحماس والقلق قد بلغا ذروتهما داخلي، يدفعني الحماس إلى أن أصُبَّ كل تفكيري على الطريقة التي أفضح بها خبايا بنك التخصيب، وفي الوقت نفسه يُلجِّم أفكاري القلق الذي يساورني من فشل مساعينا

فتكون الخسارة أعظم مما يتصورها عقل، جلستُ إلى مكتبي وبدأت أدوِّن النقاط المهمة التي أخبرتني بها السيدة فريدة، وبعدها بدأتُ أخطط في الأوراق مُفكرةً لعلّي أصل إلى خطوة تالية أقوم بها. بعد قليل من الوقت وجدت أنَّ خططي جميعها تقوم على إقناع السيد شاهين أولًا باللجوء إلى الحاسوب الذي تمتلكه السيدة فريدة، وأدركت في داخلي أنَّ مجرد محادثته هاتفيًا لن تكفي لإقناعه على الإطلاق، وكذلك لا أعتقد أنَّه سيودُّ أبدًا الحديث عن شيء مهم مثل ذلك عبر اتصال هاتفي قد يكون مراقبًا، لذلك قررت أن أعود إلى المنيا القديمة مع بزوغ النهار.

***

وصلت إلى قرية «المحمدية» في الثالثة عصرًا تقريبًا، تعجبتْ أمي من عودتي المفاجئة وهيئتي المُرهقة للغاية، أخبرتها أنّي لم أنَم لحظةً واحدة الليلة السابقة، وسألتها عن السيد شاهين ورفاقه، قالت:

- إنَّهم لا يزالون في الخارج.

سألتها أن تأتي معي إلى المكان الذي يواصلون فيه تدريبهم بالدراجات النارية، قالت:

- إنَّهم يبتعدون لأميال بدراجاتهم كل مرة دون التزام أماكن معينة.

فاضطررت إلى الانتظار، سألتني إن كان لديَّ أي جديد، تذكرت أنَّ السيد شاهين لم يخبرها من الأساس بأمر المزادات أو ابنته، فقلت:

- إنّي أريد لقاء الرجل فحسب.

سألتني في لهفة إن كانت قد وصلت إليَّ رسالة جديدة من سوزان، هززتُ رأسي نافية، وبعد أن أمضينا بعض الوقت في الحديث عن حياتي الماضية وحياتها خلال المدة نفسها غلبني النعاس، فتركتني أخلد للنوم، ولم أنهض إلَّا مع عودة السيد شاهين ورفاقه مع حلول الليل.

رحَّب الجميع بي على عكس الرجل الذي تفحص تعابير وجهي بريبةٍ دون أن ينطق بكلمة، قلت له أمامهم مُباشرةً:

- أريد أن أتحدث معكَ منفردةً سيدي.

أومأ برأسه إيجابًا، وتقدَّم إلى غرفته، قلت بعدما أغلقت باب الغرفة ورائي:

- لقد عثرت على سيدة تمتلك حاسوبًا من الحواسيب التسعة لسماسرة المزادات، السيدة نفسها التي اعتقدنا أنَّها حقنت ابنتها بالأكسيدوفرين.

وبمُلخص سريع أخبرته بقصة يتامى العلمين، وقصة والدها التي أخبرتني بها، ورأيها باستحالة تهريب الفتاتين ما دام مَن يحمي قطارات الخلايا والحافلات التي تنقلهم هم أولئك الفتية الناشئين في محميات البنك السرية ولا يعرفون الرحمة.. حتى لو كُنَّا نراقب تحرك سوزان لحظةً بلحظةٍ. صمتَ مُفكرًا، فأردفتُ:

- إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الفتاتين هو فضح الأمر برمته، أعلم أنه لا يمكننا فعل ذلك عن طريق شبكة الاتصالات المحلية مع وجود جدار مذيَن الرقمي الذي حكيت لك عنه، لكني أفكر في طريقة أخرى نستخدم من خلالها حاسوبًا يتبع نظام بنك التخصيب، ويوجد في مكانٍ مهمش الحماية.. نستطيع من خلال ذلك الحاسوب الوصول أولًا إلى أسماء الخلايا المنضمات للمحميات قبل ثمانية عشر عامًا ثم نستغل الوقت الضيق الذي يمنحنا إياه حاسوب السيدة قبل تحديد البنك موضعه، لنحصد من شاشته صورًا ومقاطع حركية لما يحدث على ذلك الموقع لإرسالها إلى تلك الأسر، أو لعلنا نصل إلى مبرمج يستطيع اختراق جدار

مدْيَن فنبثها عبر شبكة الاتصالات المحلية حينذاك.. غير ذلك لن نستطيع استعادة الفتيات أبدًا.

هزَّ رأسه نفيًا، وقال باقتضاب:

- لا، لن أشرك أحدًا غيرنا في الأمر، لقد حسبت كل شيء بدقة، وسأنقذ الفتاتين بالطريقة التي أعددت لها كل المدة السابقة.

قلتُ مُتذمرةً من غروره:

- أعلم أنَّكَ تحب ابنتكَ وترغب في إنقاذها، لكنَّ التهور والحماقة لن يقوداك إلا إلى الموت المحقق.

قال:

- سأكون حاولتُ على الأقل.

صرخت فيه:

- وماذا ستُجدي المُحاولة إن كنتَ موقنًا بفشلها؟ إنَّ لدينا فرصة لإنقاذ آلاف الخلايا وإعادتهن إلى أهاليهنَّ إن أحسنَّا استخدام ذلك الحاسوب.

صاحَ فيَّ غاضبًا:

- سأعيد ابنتي أولًا ثم أعطيكِ اليد تفعلين بها ما تشائين بعد ذلك، هذه صفقتي معكِ، وحتى ذلك اليوم لا أريد رؤيتكِ مجددًا.

نظرتُ إليه، وقلت:

- لا سيدي، إنَّ الأمر لا يخصكَ وحدك، إنَّ الأمر يخص أختي وعائلتي كذلك.

قال:

- حسنًا.

وتحرَّك ناحية الباب وفتحه، وزعق في أمي ويونس، في حين وقف البقية مترقبين:

- إنَّ ليلى تريد وقف كل شيء، وتريد فضح أمر المزادات أولًا، إن كنتما تريدان مرافقتها فلتفعلا.

ونظرَ إلى البقية؛ حسان ومريم والثلاثة شُبان:

- وأيٌّ منكم كذلك، أيُّ فرد يودُّ المغادرة الآن فليفعل، سأنقذ ابنتي بنفسي.

نظرتُ إليهم، بدا على وجوههم جميعًا أنَّ أمر ذكر المزادات وابنته ليس جديدًا، فأدركتُ أنَّه أخبرهم بالأمر خلال المدة السابقة بعد زيارتي الماضية، لكن الاضطراب أصابني عندما تحركت أمي ويونس خطوات نحوي قبل أن تقول أمي بهدوء:

- لن نبرح هذا المكان إلَّا لإنقاذ سوزان يا ليلى، لقد أخذنا عهدًا على أنفسنا بذلك، سنكمل مع السيد شاهين المشوار إلى نهايته.

قلت:

- ستموتون جميعًا.

قال يونس:

- كما تعلمين، لولا مجيء سوزان لما جئتُ من الأساس.

صرختُ فيهم:

- توجد فرصة كُبرى، دعوا لي بعض الوقت فحسب!

مدَّت أمي يدها إلى كفِّي وأطبقت عليها بيدها الأخرى في لين، وقالت:

- عودي إلى حياتكِ يا ليلى، وأعدكِ أنَّنا سنجتمع معًا في القريب العاجل.

ونظرتْ إلى السيد شاهين وقالت:

- سنكمل معكَ المشوار لإنقاذ ابنتنا أيها الرجل الطيب، أمَّا ليلى فستعود إلى حياتها إلى أن نلتقي مجددًا.

وأومأ يونس إيجابًا موافقًا كلام أمي، فأومأتُ برأسي استسلامًا وقلتُ:

- حسنًا، كما تريدان.

وبرأس مطأطئ غادرتُ البيت عائدةً إلى الفندق نفسه الذي نزلت فيه المرة السابقة، يعصف في داخلي مزيجٌ صاخبٌ من المشاعر المتضاربة، حجزت تذكرة الحافلة العائدة إلى المنصورة الساحلية صباحًا، وانتظرت بزوغ النهار بفارغ الصبر دون أن يغمض لي جفن وسط ذلك الصراع الذهني الذي لم يتركني لحظة، عندما تحركت الحافلة بي في تمام العاشرة صباحًا.. كانت المشاعر كلها قد انحسرت إلى الغضب وحسب، الأمر الذي جعل ساقيّ تهتزّان لافتةً انتباه من يجلس بجواري ليسألني عمًّا إن كان لديَّ خطب ما، فصرختُ حينذاك إلى قائد الحافلة كي يتوقف قبل أن أركض إلى باب الحافلة وأهبط منها وسط تعجب بقية الركاب، وأستقل سيارة أجرة عائدة إلى قرية «المحمدية» من جديد، كنت أعلم في نفسي أنّي لن أجد في بيت السيد شاهين غير أمي، طرقتُ الباب، تعجبتْ حين رأتني، خطوت إلى الداخل دون أن أقول كلمةً واحدة واتجهت نحو غرفة السيد شاهين، ركلتُ السرير بقدمي، صاحت فيَّ كي أتوقف عمًّا أفعله، هبطتُ على ركبتيَّ وأزحت غطاء حفرة الأرضية ومددت يدي مُخرجةً الصندوق الزجاجي المحفوظ في داخله تلك اليد العائمة، أعادت صراخها فيَّ كي أترك تلك اليد وأعود أدراجي، نهضتُ وجذبت غطاء السرير القماشي وغطَّيت به الصندوق الشفاف قبل أن أتجه إلى الخارج، وقَفَت أمامي بعينين حادَّتين قائلة:

- لن أسمح لكِ بالمغادرة بهذه اليد.

قلت بتحدٍّ:

- فلتقتليني إذن يا أمي إن أردتِ إبعادي عنها.

نظرت إلى عينيَّ حائرةً، فقلتُ:

- دعيني أساعد سوزان بطريقتي، أرجوكِ.

وتقدمتُ والصندوق في يدي، فوجئتُ بها تُخرِج سلاحًا ناريًا وتُعيد صراخها في وجهي:

- أعيدي ذلك الصندوق موضعه وارحلي عن هنا.

واصلتُ تقدمي ناحيتها، صرخت فيَّ باكيةً:

- أرجوكِ يا ليلى، لا تُفسدي علينا ما سعينا لأجله كل تلك السنوات.

واصلتُ تقدمي دون أن أنطق، جذبَتْ زر أمان المسدس عندما تجاوزتها واقتربتُ من باب البيت، فتوقفتُ عن سيري ثواني قبل أن أكمل طريقي مرة أخرى تاركةً الباب مفتوحًا ورائي، كنت أعرف أمي، خُلقَت تلك السيدة لتفدينا بروحها، لا لتترك جرحًا ولو ضئيلًا في جسدنا. كانت سيارة الأجرة تنتظرني، سألني السائق إن كنت أرغب في الذهاب إلى محطة الحافلة، فسألته أن ينطلق بي هو إلى المنصورة الساحلية مباشرةً.

***

هاتفتُ مراد في الطريق لعلَّه وجد الشخص الذي أبحث عنه، أجابني بأنَّه لم يجد شخصًا مناسبًا وموثوقًا في الوقت نفسه بعدُ، أنهيتُ المكالمة معه، ولم تتوقف بعدها شاشة هاتفي عن الإضاءة برقم السيد شاهين الذي واصل محاولاته كي يهاتفني، فأغلقتُ الهاتف إيمانًا مني أنَّ الحديث لن يفيد بشيء، وكي أستطيع التركيز فيما أفكر فيه بخصوص اليد والحاسوب وكل شيء اكتشفته خلال الأيام الماضية، ثم

بدأت أطرق بأطراف أصابعي على الصندوق المُغطى بالقماش بجواري وأنا أفكر في الفرصة الوحيدة التي لن يكون بعدها فرصة أخرى للولوج إلى الحاسوب بعدما يعطي إشارته لمسؤولي البنك بإعادة استخدامه، الذين بدورهم لن يتوانوا عن تحديد موقعه ومحاصرتنا في أقل من ساعة واحدة، باتَ الأمر كأنك تلعب مباراةً للملاكمة والوقت ينفد منك وليس أمامك سوى ضربة وحيدة.. إمَّا أن تكون القاضية وإما تخسر كل شيء. فكرت في الاستغناء عن فكرة اقتحام حاسوب مقر مجموعة الدعم إن لم يجد مراد المخترِق الموثوق والوصول إلى أسماء الخلايا المعروضة في المزاد عبر حاسوب المزاد نفسه في أثناء حصادنا المقاطع المصورة منه، إلَّا أني استبعدت الفكرة سريعًا، فبخلاف ضيق الوقت الذي لن يسمح لي بذلك، خطَر في بالي حديث السيد شاهين عما رآه في ذلك الموقع حين ولج إليه، وأنَّ البيانات المتاحة فقط أسفل صورة كل خلية هي عمرها وبلدها ومرات إنجابها وحالتها الصحية دون ذكر اسمها، فأخرجتُ زفيري، واستقر بي التفكير إلى ضرورة انتظار الشخص الذي قد يأتي به مراد، وريثما يأتي ذلك الحين سأجهِّز ملفًا كاملًا بكل شيء عرفته عن المزادات سواءً عن طريق السيد شاهين أو السيدة فريدة، لأرفق به المقاطع التي أحصدها من شاشة حاسوبنا النادر عندما ألِج إليه، بعد ذلك أُرسِل تلك الملفات في الوقت نفسه عبر إحدى شركات الشحن الخاصة أو عبر البريد إلى أسر الفتيات، وأيًا كانت النتيجة سواءً بتصفيتي أو باستطاعتي النجاة.. فأعتقد أنّي سأكون راضيةً تمامًا عمَّا فعلته، وليقرر أولئك الأهالي قرارهم بعد إلقائي الكرة في ملعبهم.

وصلت إلى المنصورة الساحلية، فعدت إلى شقتي وأخفيت صندوق اليد في خزانة ثيابي، جالَ في بالي مهاتفة السيدة فريدة، فانتبهتُ حينذاك أنّي ما زلتُ أغلق هاتفي، فأعدت تشغيله من جديد محاولةً



مهاتفتها، لكنّي لم ألقَ منها ردًا، فألقيت هاتفي جانبًا، وبمجرد أن وضعتُ رأسي على السرير لم أشعر بنفسي، بعد أقل من نصف ساعة من غفوتي أيقظني رنين جرس الباب المستمر، نهضت مفزوعة خشية أن يكون السيد شاهين قد لحق بي وإن تعجبت لأنّي أيقن أنّه لا يعرف عنوان شقتي الجديدة، كذلك خشيت أن يكون ضيفًا غير مستحب يكتشف وجود تلك اليد معي فيدخلني متاهات لا مخرج منها، وبخطوات حذرة تقدمت نحو الباب، سألتُ بصوت حذر دون أن أفتحه:

- من في الخارج؟

قال الصوت بتذمر:

- أين أنتِ؟ لقد مللتُ من انتظاركِ هنا منذ الصباح، وحاولت مهاتفتكِ منذ ساعات، كان هاتفكِ مغلقًا على الدوام، ليس لديَّ متسع من الوقت.

قلت مدهوشة:

- رامي!

قال:

- نعم.

فتحت على الفور قبل أن أعتذر مرتبكةً عن هيئة ثيابي الفوضوية، سألني بغضب:

- لماذا تغلقين هاتفكِ كل هذا الوقت؟ ألم أخبركِ أنّي قد آتي إليكِ في أي ساعة؟

قلت متلعثمة:

- أعتذر يا صديقي، أردت أن أريح رأسي من بعض المكالمات المزعجة، انتظر دقيقة فحسب.

وركضتُ سريعًا إلى الداخل وغسلت وجهي وهندمت ثيابي ثم عدت إليه، كان قد دخل إلى الردهة وجلس على أحد مقاعدها، فسألته:

- هل لديك رسالة جديدة من سوزان؟

هزَّ رأسه نافيًا وقال:

- لا، لم أستطع لقاء الفتاة منذ المرة التي حصلتُ فيها على تلك الرسالة، حتى رسالتكِ لم أستطع إخبارها بها بعدما عُزلَت الفتيات في معزلٍ عنَّا خلال المدة السابقة. يقول العاملون القدامى هناك إنَّ ذلك هو المُعتاد قبل بداية العام، لكنِّي أحببت أن آتي إليكِ لرؤيتك حتى وإن لم ألتقِ بالفتاة.

فابتسمتُ ابتسامة مصطنعة بذهن مُشوَّش تمامًا، قال:

- ما الأمر؟ هل أنتِ على ما يرام؟

قلت:

- نعم، إنّي بخير.

كانت الحيرة نفسها قد نشبت في ذهني ما بين إخباره أو إخفاء الأمر عنه، السيدة فريدة وقد فلح الأمر معها وباحت لي بكل ما في جعبتها، أمّا رامي فرغم علاقتي الكبيرة به.. فما زلت لا أعرف أي جانب سيفضّل، لا سيَّما أنّي لم أقرر بعد ماذا سأفعل أساسًا، سألته:

- هل تشعر الآن أنَّكَ حققتَ حلمكَ بالفعل؟

أجابني باسمًا:

- بالطبع.

وأضاف بعد ثانية:

- ليس الحلم كاملًا، لكنِّي وضعتُ قدمي على بداية الطريق، تعرفين أنَّه مع الوقت سيصير لديَّ امتيازات مادية واجتماعية كُبرى نادرًا ما أتمتع بها في أي وظيفة أخرى.

أومأتُ برأسي إيجابًا باسمة، فسألني:

- ألم تتقدمي بطلب لحفظ بويضاتكِ بعد؟

قلت:

- لا أشغل بالي بهذا الأمر حاليًا، ربما أسعى في الأمر بعد الزواج.

قال متباهيًا:

- قد أعطيكِ وقتها بطاقة توصية منِّي.

ضحكت وقلت:

- صارَ لوظيفتكَ فائدةٌ عظيمة إذن.

ضحك، ثم قال بنبرة مغايرة:

- لا أخفيكِ سرًّا، كنت أظن أنَّ الوظيفة ستسعدني أكثر من ذلك.

وتنهَّد وهو يتابع:

- ربما كان سقف توقعاتي كبيرًا للغاية، لذلك لا أشعر بعد بالرضا الذي توقعته، لكن يوجد شيء ما أشعر أنَّه ناقص.

قلت:

- رأيتَ عاملين أقدم منكَ كثيرًا ولا تزال وظيفتهم محدودة، على عكس مجموعة من العاملين أصغر سنًّا يشغلون مناصب أرقى، أليس كذلك؟

قال:

- نعم، أخشى أن أكون من أولئك الذين لا يتقدمون خطوة في تدرجهم الوظيفي، ربما يحصدون رواتب كُبرى مع سنوات عملهم الطويلة.. لكنَّ طموحي أكبر من مجرد راتب كبير، أتمنى أن ينقلوني إلى محمية أخرى من المحميات النشطة غير تلك المحمية المليئة بالخلايا المتساقطات يومًا وراء آخر.

قلت:

- ماذا لو كان كل ذلك وهمًا كبيرًا صُنع لنعيشه؟

سألني ساخرًا:

- أيُّ وهم؟

قلت:

- كل شيء نعيشه منذ مولدنا؛ الجائحة، بنك التخصيب، الوظيفة المثالية، الخلايا الزرقاء.

ضحك وقال بمسحة أخرى من السخرية:

- لكانت هذه هي عملية التزييف الكُبرى في التاريخ الإنساني، لكن من داخل الحدث أقول بكل ثقة إنَّ كل شيء حقيقي تمامًا.

قلت:

- هكذا يظنُّ المغفلون دائمًا.

ضحك، فأردفتُ:

- ربما لو أخبرتكَ بما حدث لي خلال الأيام الماضية بعد توصيلك رسالة سوزان لظننتَ أنّي جننت، أعتقد أنَّكَ ستسمع عنّي قريبًا في كل تقارير الأخبار التي تخص بنك التخصيب.

تابع بسخرية:

- إلامَ ستقودكِ حماقتكِ هذه المرة؟

قلت:

- حتى الآن لا أعرف، لكنَّها ستقودني إلى السجن أو القبر، أيهما؟ لا أعرف بعد.

قال ببرود دون أن يسألني عن أي تفاصيل:

- هنيئًا لكِ إذن يا صديقتي.

فقلت متجاهلة بروده:

- كيف حال نتائج التحاليل التي أجريتَها للخلايا منذ التحاقك بتلك المحمية؟

قال:

- إنَّها متنوعة ما بين سيئة وجيدة، لقد أجريت التحاليل لمئات الخلايا بنفسي.

أومأت إيجابًا قبل أن أقول:

- لديكم كم خلية الآن تقريبًا؟

قال وهو يحذرني بإصبعه:

- أعتقد أنَّ ذلك سر يخص المحميات. لكن على كل حال إنَّه عدد كبير يقدر بالآلاف، خاصةً مع الانضمام الشهري للخلايا منتهية الخدمة.

سألته حينها بجدية:

- ماذا لو خُيِّرتَ بين وظيفتكَ وبقاء أولئك النساء أحياء؟

قال:

- أعتقد أنَّه لا توجد علاقة بين وجهَي الاختيار.

قلت:

- لقد تحدثتَ منذ قليل وقلتَ إنَّ نتائج تحليل الخلايا متنوعة بنسبة أنت تعرفها، ماذا لو جاء يوم ووجدتَ أنَّ النتائج النهائية المُعلنة تخالف النتائج التي سجلتها بنفسك؟

قال:

- لا أعتقد أنَّ ذلك قد يحدث.

هززتُ رأسي إيجابًا وقلت:

- لكنَّ ذلك سيحدث قريبًا.

وتابعتُ:

- إنّي أحمق امرأة في هذا العالم، لكنّي صرتُ أعرف أمرًا سيؤدي السكوت عنه إلى قتل الكثيرات، وقد يؤدي الإفصاح عنه إلى قتل الكثيرين أيضًا.

قال:

- لا أفهم ألغازكِ الكثيرة اليوم.

قلت:

- إنَّ الخلايا اللاتي تراهُنَّ في محمية جنوب سيناء.. سيُبَعن جميعًا في نهاية الشهر القادم.

قال ساخرًا:

- يُبَعنَ لِمَن؟

قلت بجدية:

- لمن يدفع أكثر وفق المزاد الساري الآن.

قال:

- لقد بلغ خيالكِ العنان.

قلت:

- أريد أن أريكَ شيئًا، انتظر دقيقة.

هزَّ رأسه موافقًا، فدلفتُ إلى غرفتي وخرجت ومعي صندوق اليد الزجاجي، وناديته كي يقترب منّي، وما إن اقترب حتّى نزعتُ قطعة القماش التي تغطي الصندوق، فجفل مرتعبًا، وتراجع إلى الخلف، وبصوت مذعورٍ سألني:

- ما هذه اليد؟!

قلت:

- إنَّها قصة طويلة، لكن لا تقلق.. لستُ أنا من قتل صاحبها، لا أعرف إن كان ما سأخبركَ به سيؤدي إلى موتي أم لا، لكنّي عاجزةٌ عن التفكير وعن الفعل أيضًا، وأعتقد أنّي بمفردي لن أستطيع فعل شيء، إنّي أعرف قدراتي وأعرف أنّي لست تلك البطلة الخارقة أبدًا.

سألني وهو يُحدِّق إلى اليد:

- ما الأمر؟

حكيتُ له عمّا حدث خلال الأيام الماضية وعن السيد شاهين والسيدة فريدة، وعن اكتشافي بقاء أمي وأخي على قيد الحياة، ظلَّ صامتًا دون أن يُبدي وجهه أيَّ تعابير إلى أن انتهيت، فقال:

- أعتقد أنّكِ تعلقتِ كثيرًا في الآونة السابقة بأشخاصٍ مصابين بالجنون والهلاوس، وبدأ ذلك يؤثر فيكِ حقًّا، عليكِ أن تتخلصي من هذه اليد، وتنسي أمر أختكِ تمامًا، وكل ما قصصتِه الآن كي

لا يودي بكِ ذلك إلى السجن. أعتقد أنَّ بقائكِ وحيدة هذه الأيام قد ألقى بظلاله عليكِ، وأرى أن تُعاودي جلسات الطبيب النفسي.

صحت فيه غاضبةً:

- لستُ مجنونة! أعرف أنَّ ما قلتُه صعب التصديق، لكنَّ الأمر حقيقي تمامًا، ستُسجِّل كل الخلايا الموجودة في المحمية لديكم بصفتها خلايا أكفاء قبل أن تُدوِّن بأنها حالات وفاة لدى نظام البنك عند مغادرتهنَّ المحمية من غير أن يعرف العاملون في المحمية عندكم بذلك.

نهض من جلوسه وقال:

- سأحتفظ بهذا الحديث لنفسي يا ليلى، لكنِّي لن آتي لزيارتكِ مرةً أخرى، إنَّ مجرد الاستماع إلى حديث بهذا الشكل عن بنك التخصيب قد يضر بوظيفتي، أرجو أن تراجعي نفسك وتشغلي وقتكِ بشيء يُبدد طاقة تفكيرك الزائدة.

صرختُ فيه:

- أخبرتكَ أنِّي لم أختلق كل ذلك، لولا أنَّنا نمتلك فرصة وحيدة للولوج إلى ذلك الحاسوب لكنتُ قد اصطحبتكَ الآن إلى السيدة التي تمتلكه وحاولنا الولوج إليه لإثبات صحة حديثي، ولولا أنَّني أعرف أنَّها سترفض الحديث معكَ على الأمر لأرغمتكَ على الذهاب معي إليها. لقد أخبرتكَ بالأمر لأنِّي أعلم تمامًا خطر ما أنا مُقدِمة عليه وأحتاج إلى كل مساعدة موثوقة.

قال:

- حتى وإن كان ما قلتِه صحيحًا، فلن أنخرط فيه بأي شكل من الأشكال.

أومأتُ برأسي بصمت، فتركني وغادر دون أن يقول كلمة إضافية.

***

في اليوم التالي أخبرتُ السيدة فريدة أنّي صرتُ أمتلك اليد التي حدثتها عنها، شعرتُ بارتباك يُصيب وجهها ونبرتها بمجرد إخباري إياها، وكأنّها أدركت أنَّ الأمر باتَ جديًا تمامًا وليس مجرد حديث، إلّا أنَّها استعادت جأشها سريعًا وسألتني عن خطوتنا القادمة، فأعلنتُ لها عن الحيرة التي تُصيبني كُليًا، فاتفقنا على التريث وانتظار عثور مراد على من يساعدنا في اختراق حاسوب مقر المجموعة للوصول إلى أسر الخلايا أولًا، بعدها نخطو خطوتنا التالية بالولوج إلى حاسوب والدها والحصول سريعًا على صور المزاد القائم وإرسالها إلى تلك الأسر لينتهي دورنا عند ذلك الحد، غير أنَّ الأيام مرَّت تباعًا دون أن يأتينا مُراد بأي جديد.

عندما صرنا على بُعد خمسة عشر يومًا من مطلع العام الجديد.. عدتُ إلى قاعة سجلات المحكمة العليا، بحثتُ عبر أحد الحواسيب هناك عن أسماء أشخاص نالوا حكمًا بحرمان الإنجاب ويحملون وظائف تتعلق بالأمن الإلكتروني، إلّا أنَّ الإحباط أصابني كُليًا بعد ثلاثة أيام فقط بعدما لم أعثر على اسمٍ واحد بين أكثر من ألفَي اسم فحصت ملفاتهم، وقررت التوقف عن إضاعة مزيد من الوقت هناك، قبل أسبوع من نهاية العام صار اليأس والإحباط يتملّكانني كُليًا، وباتَ الشعور بعدم قدرتي على تغيير أي شيء والتوقف لانتظار ما سيصل إليه السيد شاهين ومن معه هو المسيطر عليَّ، هاتفتني السيدة فريدة في الثامن والعشرين من ديسمبر كي أذهب إليها، وسألتني حين جلستُ عمًّا أنوي فعله، فقلتُ بإحباطٍ شديد:

- لا أعرف.

ربتت على يدي مُشفقةً عليَّ، وقالت:

- ربما تستطيع عائلتكِ إنقاذ أختكِ، على الأقل يكون هناك مكسب وحيد، ونفكر في أمر بقية الخلايا مُستقبلًا.

أومأتُ برأسي دون أن أقول شيئًا، وجدتها تُعطيني مفتاح مقبرة أمها وتصف لي مكانها تفصيلًا، ثم أردفتْ:

- ربما حين تجدين الحل المناسب لا أكون على قيد الحياة، لا أريد أن أكرر خطأ أبي وأموت دون أن أمنح الفرصة كاملة لمن يرث ذلكَ الحِمل عنِّي.

ابتسمتُ ابتسامة خفيفة، ونهضت وقبَّلتُ رأسها، وقلتُ:

- أعدكِ أنّي سأحافظ على ذلك الإرث حتَّى آخر عمري.

في تلك الليلة عدتُ إلى شقتي وحملتُ صندوق اليد ثم انطلقتُ بسيارتي إلى مقابر المدينة، وهناك اتَّبعت وصف السيدة فريدة تمامًا إلى أن وصلتُ إلى مقبرة أمها، فتحتُ بابها الحديدي ودلفت إليها، ثم أنرتُ مصباحي وهبطت درجات السُلَّم القليلة، كان قبران طوبيّان يتوسَّطان الغرفة، يُغلِق كلَّ واحدٍ من أعلى غطاءٌ أسمنتيّ سميك، وضعتُ مصباحي على الأرض وبدأت زحزحة غطاء أقرب القبرين لي، زُحزح مسافة صغيرة ظهر من خلالها كفنٌ مهترئ وفاحَت في الحال رائحةٌ خانقة، فأعدت الغطاء إلى موضعه من جديد، ثم تحركت إلى القبر الآخر، زحزحتُ غطاءه، كان أكثر ثقلًا من الغطاء الأول.. لكنِّي واصلتُ زحزحته بكل طاقتي إلى أن انفرج مسافةً تكفي لإخراج الصندوق المعدني الذي ظهر لي، فتحت الصندوق بعدما أخرجته، كان الحاسوب النقَّال يقبع في داخله مع وصلاته الكهربائية بحالة جيدة، تفحَّصتُه سريعًا ثم وضعته من جديد في صندوقه، ووجَّهتُ مصباحي إلى داخل

القبر، كانت حقيبة أخرى توجد في داخله، جذبتها وفتحتها، وجدتُ في داخلها بذلةً عسكرية تشبه البذل العسكرية التي رأيت جنود حراسة القطار يرتدونها عندما اقتربت مع رامي من قطار الخلايا القادم إلى مدينتنا، فأدركتُ أنَّها بذلة والد السيدة فريدة التي كان يرتديها في أثناء عمله كأحد جنود القطار، كانت هناك أيضًا قلادة طائر النورس الفضي بنصفيها، وصورة مطبوعة لرجل وامرأة صهباء، سقطت على الأرض حين رفعتُ بيدي البذلة العسكرية، عندما قرَّبتُ المصباح منها أدركتُ أنَّ أم السيدة فريدة كانت جميلة حقًّا، وفكَّرتُ في أنَّ تلك الصورة ربما تكون الصورة الوحيدة التي جمعتها مع حبيبها؛ والد السيدة فريدة، وأنا أعيد كل شيء إلى الحقيبة وجدت قنينة عقار صغيرة تتدحرج في قاعها، وبمجرد أن أمسكتها وقرأت الاسم المطبوع عليها بحروف إنجليزية، همستُ إلى نفسي باسمة: «الأكسيدوفرين اللعين».

ثم أعدت كل شيء كما كان، ووضعت بجوارهم صندوق اليد المحفوظة، وأعدت زحزحة غطاء القبر الأسمنتي إلى مكانه، وحملتُ مصباحي كي أغادر، صعدتُ درجات السُلَّم من جديد، وكدت أخطو خارجًا حتى كاد قلبي يتوقف فجأةً عندما ظهر أمامي من بين الظلام شخصٌ ما فجأة جعل المصباح يسقط من يدي في إثر الاضطراب المفاجئ الذي أصابني، وكدت أسقط أنا الأخرى على ظهري لولا أنَّه أمسك بيدي قبل انزلاق قدمي على السُلَّم وهو يقول:

- يبدو أنَّكِ مُحقة أيتها الحمقاء.

18

صرخت من الرعب الذي انتابني:

- رامي!

قال:

- نعم.

لعنته في سري، ثم قلت مدهوشة ووجهي لا يزال مضطربًا من مفاجأته المفزعة:

- لقد أخفتني حقًا، كيف عرفت أنّي هنا؟

قال:

- كنت في طريقي إلى شقتكِ عندما وجدتكِ تتحركين بسيارتك بمجرد وصولي، حاولت اللحاق بكِ هناك لكنَّكِ لم تنتبهي، ولم أُرِد استخدام هاتفي لأهمية الأمر، فتبعتكِ بسيارتي إلى هنا، انتظرتكِ كثيرًا في البداية بجوار سيارتكِ ثم لم أُطِق الانتظار، فتحركت بين المقابر بحثًا عنك، وجدت باب هذه المقبرة مواربًا وأمامه آثار حذاء واضحة، فقررت الدخول إليها، فوجدتكِ في وجهي.

ثم أردف:

- إنَّكِ محقة، لقد صدرت قوائم المغادِرات من الخلايا الزرقاء نهاية هذا الأسبوع، سترحل جميعهن كخلايا أكفاء باستثناء خمسين خلية فقط سُجِّلن أنهن حالات وفاة، إنَّ ذلك ينافي نتائج التحاليل الأخيرة التي أجريتها بنفسي لأغلبهن والتي أشارت إلى أنَّه توجد على الأقل ستمئة امرأة لا تسمح حالتهن الصحية بمغادرة المحمية في الوقت الحالي بأي حالٍ من الأحوال، أثار ذلكَ بعض التساؤلات في رأسي خاصةً مع حديثكِ السابق لي، الذي ظننته هلاوسَ منكِ، لكنَّ الشيء الذي جعل الشكوك تعصف في داخلي وجعلني أفكر في صحة حديثكِ، ومن وقتها لا أستطيع النوم، هو تلك القائمة التي أُعلنَت قبل يومين بأسماء الفتيات المتوفيات، والتي فوجئتُ بوجود اسم سوزان أختكِ فيها، والتي أُوقن تمام اليقين أنَّ نتائجها كانت سليمة تمامًا، بالطبع لم أستطع التأكد من أمر وفاتها من عدمه بعدما عُزلَت الفتيات بمعزل عنَّا خلال الآونة السابقة ومُنع جميع العاملين الوصولَ إليهن عدا عدد قليل من الموظفين القُدامى الذين لا أستطيع الوثوق بهم، لكنِّي تذكرت جزءًا من حديثكِ يتعلق بالشريحة التي زرعها ذلك الضابط في جسدها، إن كانت الفتاة لا تزال على قيد الحياة.. فأعتقد أنَّ حركتها ستكون مستمرة لدى متتبع ذلك الرجل، وهذا ما سيؤكِّد لي حديثكِ كله عن أمر المزادات.

قلت بهدوء:

- يا صديقي، إنِّي واثقة تمامًا أنَّ المزادات حقيقية، وهذه المقبرة تحتوي الآن على أحد الحواسيب التي تُديرها، إنَّ سوزان لا تزال حية في تلك المحمية، وما يحدث هناك ليس إلا زيفًا لخداع العاملين هناك.

قال بتوجسه المعتاد:

- أريد أن أرى بعينيَّ جهاز تتبع الرجل، وسأكون معكم.

ابتسمتُ ابتسامة خفيفة، وقلت:

- إن رآني ذلك الرجل فسيقتلني بعدما سرقت صندوقه الزجاجي، كما أنّي ما زلت مُصِرّة أنَّ ما ينوي فعله في أثناء عملية ترحيل الخلايا لن يفلح أبدًا، وكما قلت لكَ في المرة السابقة.. لم يعد الأمر بالنسبة إليَّ متعلقًا بسوزان وحدها منذ معرفتي بأمر المزادات، وكذلك أنتَ إن لم تُرِد في داخلك فعل أي شيء من أجل إنقاذ الخلايا كلهن.. فلا بد أن تراجع نفسك.

وأخرجتُ زفيري بيأسٍ وتابعتُ:

- للأسف صار الوقت ضيقًا للغاية، وبدأ داخلي يفقد الأمل لوصولي إلى أهالي الخلايا المعروضات في المزاد قبل إتمامه، وإن كنت أُصبِّر نفسي باحتمالية نجاح الأمر مستقبلًا ما دام لديَّ هذا الحاسوب.

قال:

- هل تأكدتِ بعدُ من مناسبة اليد للحاسوب؟

هززتُ رأسي نافيةً، وقلت:

- إنَّها فرصة وحيدة، لو فُتح الحاسوب ووُلج إلى نظامه لن يهدأ البنك حتى يصل إليه، وسيفعل ذلك لا محالة في أسرع مما نتخيل، حتى لو اقتلع المنطقة التي تصدر منها الإشارة من جذورها كي يعثر عليه، تستطيع القول إن الولوج إليه سيكون بمنزلة انتحار لمستخدمه، وإن كان ذلك لا يمثل لي مشكلة، لكن على الأقل أريد أن يكون هناك مقابل يستحق موتي.

نهض من جلوسه ونزل درجات السلم حاملًا مصباحي، ثم تحرك نحو القبرين وقال:

- هل هو حاسوب عادي؟

قلت:

- يشبه الحواسيب النقالة العادية، لكنَّ نصف لوحة تحكمه عبارة عن لوحٍ ماسح كبير يناسب بصمة اليد الكاملة.

قال:

- هل لي أن أراه؟

قلت:

- إنَّه عندك أسفل الغطاء الأسمنتي للقبر الثاني.

زحزح الغطاء الأسمنتي فأصدر صريره، فنهضت واقتربت منه، أخرج الصندوق المعدني وألقى نظرة سريعة إلى الحاسوب، ثم أعاده إلى الصندوق مرة أخرى، بعدها رمق صندوق اليد الزجاجي بعينيه، ثم سألني عن الحقيبة الموجودة هي الأخرى في القبر، فقلت إنَّها أغراض تخص والد السيدة فريدة، فقال:

- هل يوجد فيها شيء قد يساعدنا؟

تعجبتُ من حديثه بصيغة الجمع وانفرجتْ أساريري بذلك الإعلان منه عن وقوفه إلى جانبي، وقلت له:

- إنها فقط ثيابه العسكرية وأشياء بسيطة تتعلق به وبحبيبته التي هرَّبها من قطار الخلايا، وزجاجة أكسيدوفرين كانت السيدة فريدة تفكر في حقن ابنتها بها لإراحتها من مرضها الشديد ولم تفعل.

تفحص محتوياتها سريعًا قبل أن يعيدها إلى مكانها ويقول وهو ينظر إلى صندوق الحاسوب:

- يحتاج الأمر إلى التفكير في كل خطوة بحذر شديد، كيف تحمَّل عقلكِ كل هذه التفاصيل المتداخلة؟

كدت أجيبه لولا أنَّ جرس هاتفي قد رنَّ فجأة، ومعه نظرت إلى شاشته والدماء تندفع في عروقي، وهمست إلى نفسي:

- مراد!

وفتحتُ الخط على الفور، قال صوت مراد:

- لقد وصلتُ إلى شخصين، قد يكونان مناسبين.

سألته:

- أين أنتَ الآن؟

قال:

- هنا في شقتي.

قلت:

- سآتي لكَ في الحال، عشرين دقيقة على الأكثر.

سألني رامي:

- ما الأمر؟

قلت:

- يبدو أنَّنا حصلنا على رجلنا المناسب، سأشرح لكَ في الطريق ما أنوي فعله، هيا.

غادرنا المقبرة تاركين كل شيء في داخلها كما كان، وفي الطريق شرحت لرامي فكرتي عن استخدام حاسوب مقر مجموعة الدعم

للوصول إلى أهالي الخلايا المعروضة في المزاد، فلم يُعقّب حتى وصلنا إلى حي الأجانب وصعدنا إلى شقة مراد، سألني متوجسًا عندما رأى رامي، فأخبرته بأنَّه صديقي الموثوق، قال:

- لقد وعدتكِ بتكثيف بحثي عن شخص بارع في اختراق أنظمة الحواسيب يمكننا الوثوق به قبل أي شيء ما دام الأمر يتعلق ببنك التخصيب، وخلال الأونة السابقة لم أدخر جهدًا في التقصي هنا وهناك بين من أعرفهم للوصول إلى ذلك الشخص الذي تريدينه، وبالفعل وصلت إلى شخصين خلال الثلاثة أيام السابقة فقط. الأول؛ شاب في الثامنة عشرة اسمه «مُهاب موسى»، استطاع اختراق نظام مدرسته الإلكتروني وعدَّل نتائج الفتاة التي انفصلت عنه لترسب في الاختبارات النهائية قبل أن يُكشَف الأمر ويُنقَل إلى مدرسة أخرى تقع في إحدى القرى المجاورة عقابًا له، الثاني اسمه «سليم الحارث»، عفوًا «كريم الحلبي»، استطاع اختراق حاسوب مجمع الحي الشرقي في المدينة، وقدَّم حصصًا تموينية مجانية لسكان شارعه بالكامل، جلستُ مع كليهما على حدة، لا أنكر أنَّ العبقرية تشع من عيونهما الحادة، لكن الشاب الأول أعتقد أنَّه في حاجة إلى مزيد من الرزانة والثبات، متباهٍ بطريقة مبالغة، وثرثار لا يكف عن الحديث، أعتقد أنَّ أمر اختراقه حاسوبًا يتبع بنك التخصيب سيكون مثار حديث كل زملائه خلال ساعات من تلك العملية، الثاني طلب فرصتَي إنجاب دفعة واحدة عند علمه بأنَّ الحاسوب يتبع أحد مؤسسات بنك التخصيب، وإن كنتُ أراه أكثر مناسبة.

ضممت شفتيَّ، ثم سألته:

- ومن «سليم الحارث» الذي نطقت اسمه؟

قال:

- لا، لقد أخطأتُ الاسم فحسب، إنَّه مبرمِج أيضًا، أخبرني عنه صديق يوم أمس، لكنَّه محتجزٌ منذ شهرين في مقر أمن المؤقتات، ويخضع لتحقيقات عالية السرية، ومن المتوقع أن ينال حكمًا بالسجن مدى الحياة.

قلت مندهشة:

- ماذا فعل؟

قال:

- أخبرني صديقي أنَّ ذلك الرجل كان يعمل محاضرًا في معهد الهندسة قبل أن يُفصَل منذ ثلاثة أعوام بعد رهانه أحد أصدقائه بقدرته على اختراق شبكة الاتصالات المحلية، ومع الضائقة المالية الشديدة التي أصابته بعد قرار فصله وإغراقه بالديون من رأسه حتى أخمص قدميه.. استطاع بموهبته الفذة اختراق نظام مؤقته الشخصي، وأضاف إليه ثلاث فرص إنجاب دفعة واحدة، باعها وسدَّد ديونه بالكامل، ثم كرر الأمر مرارًا وتكرارًا إلى أن اكتُشِف أمره قبل شهرين فقط عندما وشى به أحد المشترين لخلافهما على سعر فرصة فورية.

وابتسم وهو يقول:

- استطاع ذلك العبقري تحويل سبع وأربعين فرصة إنجاب لنفسه في عامين فقط، لا أعتقد أنَّ أحدًا من قبله استطاع فعل ذلك الأمر، من المؤسف أن يكون السجن مكانًا لمثل أولئك العباقرة.

سأله رامي:

- وكيف عرف صديقكَ كل ذلك؟

قال:

- إنَّ صديقي يعمل سائقًا لأحد قادة أمن المؤقتات، وأخبرني بقصة ذلك المبرمج عندما سألته بمكر إن كان يعرف شخصًا يساعد في اختراق حاسوب فتاة أحبها ككذبة كنت أدّعيها وأنا أبحث عن الشخص المخترِق لليلى، فتطرَّق الحديث بيننا إلى ذلك الرجل.

قال رامي آسفًا:

- خسارة.

فقال لي مراد:

- على أي حال أستطيع أن أدبر لكِ لقاءً مع الشخصين اللذين عثرت عليهما.

قلت شاردةً:

- دعني أفكر في الأمر أولًا وسأهاتفكَ في الصباح.

عدت إلى شقتي بعدما ودعت رامي وعقلي منشغلٌ تمامًا بذلك المبرمج الذي استطاع اختراق نظام مؤقته، أما الشابان الآخران فلم يشغلا ذرةً واحدة من تفكيري، وبعدما أويت إلى فراشي ظلَّ ذهني مشتعلًا بأفكارٍ جاءته للمرة الأولى إلى أن نهضت من جديد وجلست إلى مكتبي وبدأت أدوّن كل ما يجول في رأسي تباعًا حتى انتهيت، فبحثت في هاتفي عن رقمٍ كنت قد سجَّلته منذ مدة، وعلى الفور أجريت اتصالًا به دون مراعاةٍ للوقت المتأخر، ثم أنهيت المكالمة فهاتفتُ السيدة فريدة فوجدتها قد استيقظت، سألتني إن حدث شيء طارئ، فقلتُ:

- سأخبركِ بعد قليل سيدتي، سآتي إليكِ في الحال.

ثم هاتفت رامي بعد ذلك، أجابني بصوت ناعس بالسؤال نفسه، فقلت:

- أريد أن أناقش معكَ أمرًا لا أعتقد أنَّه يحتمل الانتظار حتى الصباح، دوِّن هذا العنوان، إنَّه عنوان السيدة فريدة، وقابلني هناك بعد ساعة من الآن.

***

بعد ساعة كان الهدوء قاتلًا في محيط منزل السيدة فريدة قبلما قطعه صوت سيارة رامي التي أعلنت وصوله في موعده تمامًا، أما أنا فكنت قد وصلت قبله بدقائق ومكثت واقفةً خلف النافذة المطلة على حديقة البيت في انتظاره وسط دهشة كبرى من السيدة فريدة التي كلما أرادتني البدء في الحديث سألتها أن تنتظر قليلًا ريثما يأتي صديقٌ أثق به، إلى أن رأيت رامي يتقدم عبر بوابة السور إلى باب البيت الرئيسي، فأسرعتُ وفتحت له الباب، سألني مستغربًا عن الفكرة التي لا تحتمل الانتظار ساعتين أخريين، أدخلته إلى الردهة، وقلت في حين كانت السيدة فريدة تنظر إلينا بترقب كبير:

- لقد طرأت في بالي الليلة خطة قد نستطيع من خلالها فضح بنك التخصيب وإنقاذ الفتيات من خلال الاستعانة بالسيد «سليم الحارث».

سألتني السيدة فريدة متعجبة:

- مَن ذلك الشخص؟!

حكيت لها سريعًا عما حدثنا به مراد، وقبل أن يبدأ سيل التساؤلات التي بدت في أعينهما، قلت:

- لقد قدَّمتُ صفقةً بالفعل، يوجد محقِّقٌ يعمل في قسم أمن المؤقتات يتولى قضية سرقة مؤقت أخي، ويهدده رئيسه بأن يطرده إن لم يجد آخِذ ذلك المؤقت قبل بداية العام، لقد عرضت

عليه أن يدبر لي لقاءً لدقائق مع السيد «سليم الحارث» بصفتي دارسة للحقوق، في مقابل أن أسلمه آخِذ المؤقت الذي يبحث عنه في غضون ثمانية وأربعين ساعة.

نظرا إليَّ بصمتٍ وكأنَّ على رؤوسهم الطير، فأردفتُ:

- لقد تركت المحقق يفكر في عرضي، وإن وافق سأضحي بأخي يونس من أجل ما سأخبركما به الآن.



19

سألني رامي بعدما انتهيت من سرد خطتي تفصيلًا:

- هل أنتِ متأكدة من ذلك القرار؟

قلت:

- نعم، سأحصل على مقابلة مع السيد «سليم الحارث»، مقابل أن أخبر المحقق بمكان يونس ومؤقته، إنَّ ذلك المبرمج هو أملنا الوحيد لإنقاذ الخلايا.

وأضفتُ بصوت واجم:

- سيتفهم يونس الأمر يومًا ما.

نظرتْ إليَّ السيدة فريدة التي ظلَّت صامتةً طوال حديثي، ثم قالت:

- حسنًا، لتفعلي ما ترينه صوابًا يا ابنتي، سأدعمكِ حتى آخر لحظة.

قلت:

- شكرًا سيدتي.

وأردفتُ:

- أمهلتُ المحقق ثماني وأربعين ساعة كي يعطيني جوابه، أعتقد أنَّه يفكر مليًّا الآن في ذلك العرض الطارئ مني، خاصةً مع انتباه الأعين جميعها هناك على ذلك المبرمج، لكن في النهاية أظن أنَّه

سيُفضِّل مصلحته فوق كل شيء، لطالما بحث الجبناء عن أقصر الطرق إلى مصالحهم الشخصية، سيوافق.

ونظرتُ إلى رامي وقلت:

- هل تستطيع القيام بما أخبرتكَ به خلال هذا النهار؟

أجابني:

- أعتقد ذلك.

قلت:

- حسنًا، ليبقَ اتصالنا عبر البريد الإلكتروني لا الهاتف حتى حلول الخطوة التالية، من المحتمل أن يجعل هذا المحقق هاتفي تحت المراقبة خلال الساعات القليلة القادمة.

قال باسمًا:

- حسنًا.

عدت إلى شقتي بعد ذلك، ولم أفعل شيئًا سوى أنّي جلستُ أحملق في هاتفي وأدعو الله في سري أن ينجح رامي فيما هو ذاهب إليه. مع حلول المساء بدأ التوتر يسيطر عليّ شيئًا فشيئًا، خاصةً مع عدم استقبالي الاتصال المُنتظَر، وعندما وصلَت الساعة إلى الثانية عشرة منتصف الليل.. فكرتُ في أن أهاتف أنا ذلك المحقق لأتبين قراره، لكنّي وضعت هاتفي جانبًا بعدما كدت أضغط زر الاتصال، وعدت إلى أوراقي التي كنت أخطط فيها فجرًا، وراجعت ما فكرت فيه قبل أن أعود إلى سريري ويغفو جفني دون أن أشعر، في اليوم التالي استمرت ساعات توتري وقلقي وانتظاري بجوار الهاتف، وبدأ الشعور بأنَّ المحقق لم يأخذ عرضي على محمل الجد يتسرب إليّ، وكدت أهاتف رامي لألغي كل شيء لولا أنّي آثرت الانتظار لمزيد من الوقت، إلى أن رنَّ هاتفي



أخيرًا في الثامنة مساءً، قفزت من نومتي، كانت الشاشة تشير إلى ورود اتصال من رقم غير مُدوَّن لديَّ، استحضرتُ هدوئي أولًا ثم أجبته:

- مرحبًا.

قال صوت المحقق -الذي أعرفه- باقتضاب:

- ستقابلين «سليم الحارث» في تمام الثالثة عصرًا غدًا في مقر أمن المؤقتات، سيكون أمامكِ عشر دقائق معه فحسب، سأقابلكِ هناك أولًا في الثانية والنصف ثم تقابلينه بعدها، لا تنسَي بطاقة هويتك.

قلت بحماس:

- حسنًا سيدي، سأكون عندكَ في الموعد.

وما إن أغلق الخط حتى جلست على سريري يخفق قلبي بقوة من التوتر، وبيدٍ مرتعشة بقوة أرسلتُ رسالة من حاسوبي عبر البريد الإلكتروني إلى رامي: «لقد تمَّت الصفقة، سألتقي بالرجل تمام الساعة الثالثة من عصر غدٍ في محبسه».

لم يصل إليَّ ردٌّ فوري منه، إلا أنّي كنت أعرف أنَّه سيقرؤها في أقرب وقت، فجلست أفكر مليًّا فيما سأقوله للمبرمج خلال الدقائق القليلة التي سأقضيها معه قبل أن أنهض وأسجِّل رسالةً مصورة إلى السيدة فريدة.

***

في صباح اليوم التالي كان قد وصل إليَّ الرد من رامي، وفي تمام الثانية وعشرين دقيقة كنتُ أقف أمام بوابة مبنى أمن المؤقتات مرتديةً نظارتي الشمسية وأجمع شعري معقودًا وراء رأسي على غير عادتي في الآونة الأخيرة، قدمتُ بطاقة هويتي إلى فرد الأمن وقلت:

- لديَّ مقابلة مع المحقق «شريف بهجت» في الثانية والنصف.

تفحّص بطاقتي بعينيه قبل أن يهز رأسه ويقول:

- نعم، لقد أُبلغنا بهذه المقابلة منذ قليل.

وأشار إليَّ كي أمُرَّ من بوابة التفتيش فمررت، بعدها اصطحبني فرد أمن آخر إلى الداخل نحو المبنى الرئيسي الذي كان يبعد قُرابة مئة متر عن البوابة، وهناك صعدنا معًا إلى الطابق الثالث، حيث قادني مباشرةً إلى غرفةٍ في نهاية رواقه يقف بجوار بابها جندي فتح الباب مباشرة بمجرد أن وصلنا إليه، ازدردتُ ريقي عندما دلفت بمفردي إلى تلك الغرفة الضيقة ووجدت المحقق يجلس إلى طاولة في انتظاري، ثم أشار إليَّ كي أجلس على الكرسي الشاغر المقابل له، فجلست، قال وكأنَّه شعر بتوتري وأراد أن يخفف من وطأته:

- تعجبني تسريحة شعركِ الجديدة.

قلت محاولة استجماع ثباتي:

- يحتاج المرء إلى بعض التغيير أحيانًا.

هزَّ رأسه موافقًا حديثي وقال:

- حسنًا، لقد هاتفتِني فجر أول أمس وأخبرتِني أنَّكِ تعرفين كل شيء عن مُتَسَلِّم مؤقت أخيكِ، وتستطيعين أن تسلميه إليَّ مقابل دقائق مع سليم الحارث.

قلت:

- نعم.

قال:

- ماذا تريدين من سليم الحارث؟ قال إنه لا يعرفكِ.

قلت:

- ليس هذا في الاتفاق، إنَّ اتفاقي معكَ واضح تمامًا: أجلس مع الرجل وتنال معلوماتك.

قال بابتسامة صفراء، وداخله يعرف أنَّ كل شيء سأناقشه مع المبرمج فيما بعدُ.. سيرصده عبر أجهزة تسجيلات تلك الغرفة:

- كما تريدين، لقد قبلتُ عرضكِ على أي حال، ها.. أخبريني عن آخذ المؤقت.

قلت:

- أقابل الرجل أولًا.

هزَّ رأسه نفيًا وقال ببرود:

- إنّكِ في ملعبي الآن، لتخبريني بما تعرفينه وأنا سأفي بجانبي من الاتفاق، غير ذلك لن تغادري هذا المكان بتهمة إخفاء معلومات مهمة تضر الشأن العام.

قلت بتحدٍّ:

- وقتها ستضيع على نفسكَ فرصةً عظيمة، لأنّي أعرف جيدًا كيف أحفظ الأسرار في داخلي، وسيُبرّئني القضاء عاجلًا أم آجلًا، حتى وإن نلتُ حكمًا بحرمان الإنجاب.. فلا أسعى للإنجاب على أي حال، لقد جئتكَ بقدميَّ غير مُجبرة، وأريد مقابلة ذلك الرجل من أجل أمور تتعلق بدراستي حقًّا، أنتَ من تحتاج إليَّ أيها المحقق.

نظر إلى ساعته وبدوري نظرتُ إلى ساعتي أنا الأخرى، كانت الساعة قد وصلت إلى الثانية وخمس وخمسين دقيقة، ثم ضغط زرًا على جانب الطاولة فدلف إليه جندي، لم يكن الواقف بجوار الباب، فأعطاه إيماءة دون أن يتكلم. بعد قليل وجدت ذلك الجندي يأتي برجل أربعيني شعره بني قصير وعيناه زرقاوان كسماءٍ صافية، يداه مكبلتان، ويرتدي السترة

الكحلية التي لطالما رأيت السجناء يرتدونها في قاعات المحكمة، ثم تركه الجندي وخرج، فقال المحقق:

- ها هو رجلكِ، لقد أخرجته من محبسه على مسؤوليتي، ولا يعرف مديري بالأمر حتى الآن، فلتخبريني بما لديكِ وسأترككما بعدها كما وعدتكِ.

نظر المبرمج الذي وقف في ركن الغرفة إلى عينيَّ وكأنَّه يستغربني ويستغرب وجودي، فقلت:

- إنَّ يونس أخي لم يمُت، لقد زيِّف وفاته، هو من تسلَّم المؤقت في مدينة المنيا القديمة بمساعدة أحد رجال الشرطة السابقين، ومنح فرص إنجابه لأناسٍ آخرين منهم أنا.

وأخرجتُ مؤقتي، وبعدما فتحته ببصمتي، حركته على الطاولة إليه، وقلت:

- تستطيع التأكد أنَّ آخر فرصة وصلت إلى مؤقتي قد جاءتني من المؤقت نفسه الذي تهتم بأمره.

حرَّك إصبعه في توجس على شاشة المؤقت، وبعد دقيقة واحدة رمقني بطرف عينه كأنَّه تأكد من صدق حديثي، وإن لم يستطع إخفاء دهشته من إفشائي سر أخي، وقال:

- وأين هو الآن؟

قلت:

- لا يزال في إحدى القرى التابعة للمنيا القديمة، اسمه يونس حلمي نوح.

ونظرتُ من جديد بعين تلمع بالدموع إلى «سليم» الذي كان يستند إلى الحائط ويحدق إليَّ بنظرات أشد استغرابًا، قبل أن ترتجف شفتاي وتفر دموعي إلى وجنتيَّ وأكمل:

- اسمها قرية «المحمدية»، يختبئ في بيت السيد «شاهين سعد الشلبي»، ويستعد للمغادرة في مساء اليوم.

وسكتُّ بعدها، ووضعت رأسي بين كفّي محاولةً إمساك نفسي عن النشيج، حدَّق إليَّ بصمت قبل أن يُمسك جهاز إرساله ويتحدث عبره إلى أحد الأشخاص باسم يونس ورقم المؤقت والعنوان الذي ذكرته تفصيلًا، ثم وضع جهاز اتصاله على الطاولة من جديد ولاذَ بصمته.

***

ظلَّ الصمت الطويل قائمًا بيننا، بقيتُ واضعةً رأسي بين كفّيَّ، وظلَّ سليم واقفًا مستندًا إلى الحائط يراقبني دون أن ينطق بكلمة، أمَّا المحقق فمكث محدقًا إلى جهاز إرساله بوجه ممتقع متعرق وأنفاس عميقة كان صخبها المنتظم يقطع الصمت المطبق بين ثلاثتنا، إلى أن جاءت الإشارة الأولى من جهاز الإرسال بعد أربعين دقيقة تقريبًا، قال الصوت:

- سيدي، لقد عثرنا على الفتى وعلى المؤقت، وهما في حوزتنا الآن.

وضعت يدي على فمي كي أمنع نفسي البكاءَ، غير أنّي لم أستطع وبدأت دموعي في التساقط بغزارة، في حين قال المحقق بأسارير منفرجة عبر جهاز إرساله:

- فعلتم حسنًا يا رجال، فلتتحفَّظوا على الفتى ومؤقته، وسأكون عندكم هذا المساء للقيام بالتحقيق بنفسي.

رد الصوت:

- حسنًا سيدي.

نظر إليَّ بعدها بفيهه المبتسم، وقال بنبرة المنتصر:

- أحسنتِ يا فتاة، لقد أنقذتِ مستقبلي.

ونظر إلى المبرمج وتابع بفرحته الكبيرة:

- إنَّ الرجل لكِ لمدة عشر دقائق.

وحمل جهاز إرساله وغادر. كان سليم لا يزال يُحملق فيَّ، ما إن أُغلق الباب حتى نهضتُ واقتربت منه وقلت:

- كما رأيتَ؛ لقد ضحَّيتُ بعائلتي من أجل هذه الفرصة.

هزَّ رأسه مستفهمًا، فأردفتُ وأنا أنظر إلى أغلال يديه التي تُعوِّق أيَّ مقاومة منه:

- لا وقت للشرح، ثِق بي فحسب.

وفي لمح البصر كنت قد أخرجت القلم الذي يجمع شعري وراء رأسي وأزلت غطاءه، وبسنِّه البلاستيكية المُقوَّاة، غرزته في رقبته لأمرر السائل المُخزَّن في داخله إلى عروقها ليتأوَّه قبل أن ينظر إلى عينيَّ جاحظ العينين ويسقط موضعه مسندًا ظهره إلى الحائط يعلو صدره وينخفض بسرعة شديدة في حين تنتفض عروق رقبته تباعًا بوضوح شديد وهو يقول:

- ماذا فعلتِ؟!

في تلك اللحظة دلف إلى الغرفة المحقق راكضًا وصرخ فيَّ مرتعبًا وهو ينظر إلى الرجل الذي كان يُنازع الموت:

- ماذا فعلتِ؟!

قلت:

- لقد أضرَّ ذلك الرجل بحياتي.

صاح في جهاز إرساله مستغيثًا:

- أريد طبيبًا الآن في غرفة التحقيقات ثلاثمئة وخمسة.

بعدها لم أعرف ماذا حدث بعدما صرخ المحقق في جنديٍّ آخر كي يقودني إلى غرفة أخرى مصمتة الجدران ويُغلق بابها الحديدي من ورائي، لأُعزَل عن العالم تمامًا في تلك اللحظة.

الفصل الأخير

«رامي»

- إنَّ أعظم الإنجازات لطالما بُنِيَت على أصغر التفاصيل.

قالتها ليلى بحماسٍ شديد في بداية حديثها عندما جلستُ أنا والسيدة فريدة أمامها كي نستمع إلى خطتها الطارئة التي استدعتنا من أجل إخبارنا بها في السادسة صباحًا، وأردفتْ بالحماسة نفسها وهي تتحرك أمامنا جيئةً وذهابًا:

- منذ عدت إلى شقتي أمس وأنا أفكر في كل كلمة قالها مراد عن ذلك المبرمج وعبقريته، تصيبني حالةٌ من الانبهار بعدما عشتُ حياتي كلها أظن أنَّ نظام المؤقتات الرقمي غير قابلٍ للاختراق.

ثم وقفتْ فجأة وقالت:

- لقد تراجعت عن فكرة إرسال الرسائل الُمدعمة بأدلة وجود المزاد إلى أهالي الخلايا الزرقاء المُنضمّات إليه، ربما نستطيع ذلك فعلًا مع أحد المخترقَينِ اللذَينِ وجدهما مراد، لكنها لن تكون الضربة القاضية أبدًا التي تُزعزع كيان البنك، الذي بمقدوره تحجيم أي ردة فعل منهم ومحوهم جميعًا إن اقتضى الأمر، لكنه سيكون من المستحيل أن يمحو البنك ومسؤولوه مِن يتامى العلمَين شعبًا بأكمله. لنجعل نقاط قوى البنك وتغلغله داخل كل بيت هي

حافة الموت، وفي مكانٍ غير مجهز طبيًا مثل مبنى أمن المؤقتات وجُبن ذلك المحقق ستعوي سيارات الإسعاف من أجل نقله إلى أقرب مستشفى، خاصةً أنَّه لم يخضع للمحاكمة بعد، وقتها تحين خطوة إخراجه من ذلك الإسعاف. إنَّ السيد شاهين ورجاله يتدربون يوميًا بدراجاتهم النارية كي يلحقوا بقطار الخلايا، لنجعل وجهتهم تلك السيارة لا ذلك القطار.

ونظرتْ إليَّ وقالت:

- اذهب إليهم يا رامي، وأخبرهم بنفسكَ عن استحالة إنقاذ سوزان وحياة من براثن جنود العلمين، وعن فرصتنا السانحة بإنقاذ الفتيات جميعهن مع وجود ذلك المبرمج، وإن واصل السيد شاهين عناده حدِّث يونس وأمي بما سأقوم به بمجرد أن يعطيني ذلك المحقق موافقته، أخبرهما أنّي ذاهبة إلى ذلك المبنى بلا رجعة، وأنّي لن أترك هذه الفرصة تضيع منِّي أبدًا، أخبر أمي أني لطالما آمنتُ بما علمتنا إياه، أن العائلة تأتي أولًا رغم كل شيء، لكن التخلي عن فتياتٍ نستطيع إنقاذهن سيبقى الإثم الذي لن نستطيع مسامحة أنفسنا عليه أبد العمر. أخبرهما أنّي لا أضع نفسي في كِفَّة وسوزان في كِفَّة، بل أنا وسوزان الآن في الكفَّة نفسها ونحتاج إلى مساعدتهما، أخبرهما أني أحتاج إلى ثقتهما بي فحسب، سيُنصتان إليك، لن يتركاني، إنهما يعرفان في قلبيهما أني لم أسعَ في حياتي إلا للحفاظ على أسرتنا، خذ مراد معك، أخبره بكل شيء في الطريق، إنَّه أمين على سرنا وأكثر تعقلًا من أخيه، سيُقنعه بالانضمام إلينا. أتمنى أن تنجح حقًّا في ذلك الأمر، إنها فرصتنا الوحيدة، إنْ نُقل ذلك المبرمج إلى السجن العمومي فلن نستطيع الوصول إليه مستقبلًا، لنقم بذلك.

قلت:

- إن نجحتِ في مقابلة الرجل وحققتِه بعقاركِ فلن يتركوكِ ترحلين من ذلك المكان أبدًا.

قالت:

- أعرف ذلك، لكن منذ متى والغايات الكُبرى لا تحتاج إلى أعظم التضحيات؟! وحتى إن كان الموت مصيري هناك، فكما قلت لكَ.. لن يُمثِّل ذلك لي مشكلة ما دام هناك مقابلٌ يستحقه، والمقابل هذه المرة يُرضي داخلي تمامًا.

ونظرتْ إلى عينيَّ وقالت:

- هل أنتَ بجانبي يا رامي؟

ضممتُ شفتيَّ، ودارت برأسي في أجزاء من الثانية كل السيناريوهات المُحتملة التي كانت أغلبها تحمل مؤشرات ضعيفة للغاية لنجاحنا واحتمالات أكبر بإزهاق أرواحنا جميعًا، كنت أعرف نفسي جيدًا، ربما لو استمعتُ إلى ذلك الحديث وتلك الخطة مئة مرة وطُلب مني المشاركة فيها لرفضت المئة مرة، لكنَّ شيئًا في داخلي أرادني هذه المرة أن أمنح تلك الحمقاء فرصتها، فهززتُ رأسي باسمًا موافقًا، وقلتُ:

- أنا معكِ يا ليلى، سأذهب إلى عائلتكِ والسيد شاهين وسأقنعهم بالأمر، أعدكِ بذلك.

ابتسمَت ابتسامة لا تخلو من القلق، ثم نظرَتْ إلى السيدة فريدة في انتظار رأيها، فقالت السيدة بعدما صمتت ثواني:

- لتفعلي ما ترينه صوابًا يا ابنتي، سأدعمكِ حتى آخر لحظة.

سألَتْها ليلى وكأنها تذكرت شيئًا:

- تستطيعين توفير مضادٍ للأكسيدوفرين الذي يوجد في الحقيبة داخل القبر، أليس كذلك؟

أجابتها السيدة باسمةً:

- بلى.. إن مضاده ليس محظورًا مثله.. دعي لي هذا الأمر.

فقالت لها ليلى بحماس:

- حسنًا، لنستغل كل لحظةٍ، سأذهب إلى القبر أولًا من أجل إحضار ذلك العقار، ثم أعود إلى شقتي وأنتظر مكالمة المحقق، بعدها سأسجِّل رسالةً مصوَّرةً سأرسلها إليكِ، سأشرح فيها كل شيء أعرفه عن المزادات لتسبق بثنا الحي من حاسوب والدك.

ثم نظرتْ إليَّ وقالت:

- سيكون الحاسوب ملككَ هو وليد من هذه اللحظة يا رامي.

أومأتُ برأسي إيجابًا، فدوَّنتْ لي عنوان قرية «المحمدية»، وبعد أقل من ساعتين كنتُ أقود سيارتي في اتجاه الجنوب يرافقني مراد الذي لم يتأخر عندما أخبرته بأنّي في طريقي إلى المكان الذي يمكث فيه أخوه، ومعنا صندوق اليد الزجاجي وحاسوب المزاد. ثم أخبرته بما سألتني ليلى أن أخبره به.. فواصلَ صمته طوال الطريق ولم ينبس ببنت شفة، مثلي تمامًا بعدما لم يتوقف رأسي عن التفكير في كل كلمة قالتها ليلى وكل كلمة كنت أنوي التحدث بها إلى أمها وأخيها والسيد شاهين.

***

عندما وصلنا إلى بيت السيد شاهين.. بدا من الحقائب المحزومة في ركن الردهة أنهم كانوا يستعدون لمغادرة المكان، احتضن مراد أخاه بمجرد أن رآه، وعندما أثار وجودي تعجبهم جميعًا قال مراد:

- إنّه رامي؛ صديق ليلى الذي يعمل في محمية جنوب سيناء.

زاد تحديقهم فيَّ بعدها، فقلتُ:

- لقد أخبرتني ليلى بكل شيءٍ عنكم، ولقد جئتكم اليوم لغرضٍ محدد تريده الفتاة.

ونظرتُ إلى الضابط المتقاعد، وقلت:

- لقد حدثتني ليلى أنّكَ أردتَ تدبير لقاءٍ معي، لكنّي الآن أنا من أحتاج إليكم. إنَّ ليلى على وشك دخول عرين الأسد.

سألتني أمها بقلق:

- ماذا يعني ذلك؟

قلت:

- سأروي لكم ما تنوي الفتاة فعله.

كان السيد شاهين وأم ليلى ومراد قد جلسوا في مواجهتي عندما بدأتُ أحكي، في حين وقف يونس وحسان ومريم والثلاثة الآخرون مستندين إلى الحائط ومنتبهين إلى كل كلمة أقولها. حدثتهم أولًا عن الوضع الحالي في المحميات، وكيف وُضعت سوزان في قوائم حالات الوفاة، الذي لا نعرف ما قد ينتج عنه ذلك فيما بعد، ثم وجهت الحديث الذي أرادت ليلى توصيله إلى أخيها وأمها أمام البقية جميعهم تمامًا مثلما أرادته، وشرحتُ تفصيلًا ما تنوي ليلى فعله في مقر أمن المؤقتات، حتى انتهيتُ ففتحت الصندوق المعدني وأخرجت حاسوب إدارة المزاد وقلت:

- إن كانت لدينا فرصة عظيمة لِلَمِّ شمل أسركم وأسر الفتيات من جديد.. فستكون عن طريق هذا الحاسوب وذلك المبرمج، وإن كنت أؤمن بشيء فإنّي أؤمن أنَّ ليلى تسعى لهذا الهدف دون أي حسابات أخرى.

نهض السيد شاهين من موضعه وتفحَّص الحاسوب وموضع البصمة في لوحة تحكمه، ثم رمقني بنظره كأنَّه تذكر الحاسوب الذي ولج عبره إلى موقع المزادات قبل أكثر من ثلاثين عامًا، قبل أن يقول:

- لا أصدقك، سأمضي في الأمر الذي عملنا كل تلك المدة عليه، سنغادر اليوم إلى صحراء سيناء، إن كنت تريد مساعدتنا فسيكون هذا جميلًا لا ننساه.

رانَ صمت طويل على الجميع، فقلت بهدوء:

- أعرف أنَّكَ تناقشت مع ليلى سابقًا عن عدم جدوى ما نسعى إليه، لكنّي جئتكَ من داخل المحمية وأعرف تمامًا تأمين مثل ذلك القطار، وأنَّ ما تُقدِمون عليه هو انتحار حقيقي. لقد كان رفضكَ قاطعًا لما تريد ليلى فعله يأسًا من قدرتها على فضح نظام البنك عبر شبكة الاتصالات المحلية، لكنَّنا الآن لدينا طريقة أخرى تمامًا كما شرحتُ لكم.

زعق فيَّ:

- إن فاتنا اللحاق بقطار الخلايا بين الجبال وغادرت الفتيات البلاد فلن نتمكن من إعادة سوزان وحياة أبدًا، لسنا مسؤولين عن تهور ليلى وحماقتها وقراراتها الفردية.

قلتُ بنبرة أعلى:

- حماقتها؟! كانت الوحيدة بينكم التي تستطيع عيش حياتها دون مشكلة واحدة، كانت تستطيع الاحتفاظ بفرص إنجابها لنفسها وأن تجعلكم جميعًا صفحةً مطوية في حياتها مثلما أردتم إبعادها عن حياتكم، لكنَّها لم تكن أنانية قط، وعملت طوال حياتها للحفاظ على عائلتها، وأنتم جميعًا تعرفون ذلك. إنَّها

تضع نفسها الآن مكان كل أبٍ وأمٍّ لخلية زرقاء، وتريد أن تعيد كل فتاة لا حول لها ولا قوة إلى أهلها، وهي تضع لكم الخيار الآن، أمامكم هذا الحاسوب واليد التي تُشغِّله، وهناك القطعة الناقصة المتمثلة في ذلك المبرمج.

ونظرتُ إلى أمها وقلتُ:

- لقد ربيتِها على الاقتناع بوجود أمور لا يمكن تغييرها أبدًا، يبدو أنَّ الحياة علَّمتها أنَّها تستطيع تغيير أي شيء تريده.

صاح السيد شاهين فيَّ:

- خذ حاسوبك وعُد إلى حيثما جئت.

أخرجتُ زفيري ثم ضممت شفتيَّ يأسًا وطأطأتُ رأسي إلى أن رفعته مرة ثانية عندما سمعت ذلك الصوت المفاجئ الناتج عن ارتطام شيء، كان يونس قد ضرب السيد شاهين على رأسه ليسقطه فاقدًا الوعي، وقال:

- إنّي أثق بليلى.

ونظر إلى من معه، لاذوا جميعًا بصمتهم وهم ينظرون إلى السيد شاهين الملقى على الأرض فاقدًا وعيه، إلى أن قالت مريم:

- وأنا أعرف أنَّ تلك الفتاة صادقة رغم سذاجتها الشديدة، أنا معكم.

نظر حسان إلى مراد، فقال مراد نيابةً عنه وعن أخيه باسمًا:

- ونحن معكم.

الثلاثة الآخرون انسحب اثنان منهم، أمَّا الثالث -الذي عرفتُ لاحقًا أنَّ اسمه «صادق»- فأعلنَ مرافقته لنا، فقال يونس بعدما جلس موضع السيد شاهين:

- تتضمَّن صفقة ليلى مع المحقق تسليمي، لا بد أنَّ ذلك المحقق المتوجِس لن يسمح لها بمقابلة رجلنا إلا بعد التأكد من الحصول عليَّ، أخبر الفتاة أنّي على أُهْبَة الاستعداد، سأنتظر هنا حتى يأتي رجال أمن المؤقتات، وسيغادر البقية معك، أمَّا أمي فستعتني بالسيد شاهين في بيت آخر هنا في القرية.

أومأتْ أمه برأسها موافقةً بصمتٍ وشرود، فهززتُ رأسي باسمًا، فقال حسان:

- بعد بقاء يونس هنا ورحيل الثنائي، لم يبقَ إلّا أنا ومريم ومراد وصادق، إنّي أعرف المنطقة الشرقية التي يوجد فيها مبنى أمن المؤقتات جيدًا، إنَّ لديَّ خطة في رأسي لكنَّها قد تحتاج إلى شخص آخر يستطيع قيادة دراجة نارية إضافةً لنا.

قلتُ متباهيًا:

- لا بد أنَّ ليلى لم تخبركم عن مهاراتي في قيادة الدراجات النارية، لا أظن أنَّ أحدكم اقترب من قطار سريع بالمقدار الذي كنت أقترب إليه من قبل.

قال حسان باسمًا:

- حسنًا، أعتقد أنَّنا لا نمتلك مزيدًا من الوقت لإضاعته، لا يزال أمامنا سفر طويل إلى المنصورة الساحلية، إن الشاحنة جاهزة لنقل دراجاتنا ومعداتنا.

وتحرك نحو صندوقٍ خشبي كبير كان يقبع وسط الحقائب المحزومة، وقال:

- سنكتفي بأجهزة الإرسال وثلاثة مسدساتٍ وقنبلتَي دخان فقط، أما البقية فسنتركها في مكان بعيد عن هنا كي لا يُورِّط فتانا في حكم بالسجن مدى الحياة عندما يصل إليه رجال أمن المؤقتات.

ابتسم يونس ورفع ذراعيه مازحًا، وأومأ البقية برؤوسهم موافقين، أما أنا فلم أستطع إخفاء دهشتي من امتلاكهم تلك الأغراض.

***



وأغلقت الخط لتتحدث عبر جهاز إرسالها إلى حسان ومراد:

- لقد اعتُقل يونس الآن، اقتربتْ لحظتنا الحاسمة يا رفاق.

ارتديتُ حينها خوذتي وأحكمت إغلاق بذلتي، ثم ركبت دراجتي النارية، وفعل صادق مثلي، وعندما وجدته يثبِّت بجانب دراجته النارية قنبلتَي الدخان أغمضتُ عينيَّ محاولًا استجماع شجاعتي واستعادة كل تفصيلة شرحها لنا حسان في الطريق من المنيا القديمة.

بعد سبع دقائق تقريبًا كانت صافرات سيارة الإسعاف تدوي قادمةً من بعيد، فركبتْ مريم دراجتها النارية وأحكمت بذلتها وخوذتها، ثم تفحصت المحقن المعدني الذي يحمل في خزّانه مضاد الأكسيدوفرين، وعلَّقته إلى جانب بنطالها، ثم وضعت خوذتها فوق رأسها بثباتٍ كبير وأدارت محركها بزمجرة عالية مُعلنةً استعدادها. بعد دقيقتين جاء صوت حسان عبر جهاز الإرسال:

- لقد خرجت سيارة الإسعاف من بوابة المبنى الآن، حظًّا موفقًا يا رفاق، ألقاكم في السجن العمومي.

ابتسمتُ، وأظن أنَّ الجميع ابتسموا، بعدها فتح مراد من موضعه أمام مقود الشاحنة باب صندوقها الخلفي لينبسط مائلًا أمامنا إلى الأرض كمنحدر فولاذي لدراجاتنا، ويقول عبر جهاز إرساله:

- حظًّا موفقًا.

لننطلق بسرعتنا مغادرين الشاحنة في اتجاه سيارة الإسعاف التي كانت تواصل عواءها، تتبعها سيارة شرطة تطلق صافراتها هي الأخرى.

كان حسان يعرف طرق المدينة جيدًا كسائق مُحترف، ويُدرك أنَّ الطريق الأقصر بين مقر أمن المؤقتات وأقرب المستشفيات يحتوي على نفق أرضيٍّ طوله ميلان ونصف، وهذا ما بنى عليه خطته العاجلة.

قبل وصول سيارة الإسعاف إلى ذلك النفق، كان حسان قد وصل بشاحنته إلى خلف سيارة الشرطة مباشرةً، أمّا نحن فتأخرنا قليلًا بدراجاتنا النارية. عند منتصف النفق زاد حسان من سرعته ليباغت سيارة الشرطة ويتجاوزها ويصبح حائلًا بينها وبين سيارة الإسعاف قبل أن يتوقف فجأةً ويلتف مستخدمًا مكابح سيارته لتصطدم بشاحنته سيارة الشرطة ويُسَدَّ النفق تمامًا عدا حيِّز ضيق لا يزيد على متر واحد كان كافيًا لتمرير دراجاتنا الثلاث تباعًا، لنلاحِق سيارة الإسعاف التي واصلت انطلاقها تاركةً سيارة الشرطة وبقية السيارات من خلفها، بعدها زاد صادق سرعة دراجته إلى السرعة القصوى ليتجاوز سيارة الإسعاف، وقبل أن يزعق سائقها فيه عبر مكبر صوتها كي يتنحى عن طريقه.. كان الفتي قد ألقى أمام سيارته قنبلتَي الدخان اللتين يملكهما دفعة واحدة، ليصرخ صوت مكابح سيارة الإسعاف التي ضغطها سائقها فجأةً بعدما انعدمت الرؤية أمامه تمامًا، حينذاك هبط صادق سريعًا عن دراجته النارية وتحرك راكضًا بمسدسه مرتديًا قناع الغاز إلى قائد سيارة الإسعاف وأرغمه على النزول منها، ثم جاء دوري أنا ومريم وهبطنا عن دراجاتنا سريعًا مرتدين قناعينا لنفتح مصراعي باب الإسعاف الخلفي.

كما توقعنا؛ كان رجلٌ آخر يجلس برفقة طبيب الإسعاف بجوار المبرمج المستلقي يُنازع الموت أسفل قناع الأكسجين، أدركتُ من الوهلة الأولى أنَّه المحقق الذي عقدتْ معه ليلى الصفقة، رفعتُ مسدسي في وجهه المضطرب، في حين وجَّهتْ مريم مسدسها نحو الطبيب وقالت:

- لا داعي للعنف، سنستعير هذا الرجل ليوم واحد.

رفع كلاهما يديه إلى أعلى، فجذبتْ مريم السرير النقال إلى خارج سيارة الإسعاف، وسُرعان ما حقنت عقار محقننا إلى «كانيولا» كانت

مُثبَّتة في رقبة الرجل، حاول المحقق التحرك من موضعه، فأطلقتُ رصاصةً في سقف السيارة أعادته إلى مكانه، ثم أتى إلينا «صادق» بالسائق موجهًا مسدسه نحو رأسه قبل أن يدفعه إلى داخل صندوق السيارة بجوار الطبيب والمحقق ويغلق مصراعي الباب، في ذلك الوقت ركبت مريم دراجتها، أمَّا أنا فحملتُ المبرمج الذي كان لا يزال في حالةٍ من الإعياء الشديد إلى خلفها، وألبستُه قناعًا فوق وجهه، ثم ركبت خلفهما تاركًا دراجتي، لتنطلق مريم بنا وسط الدخان نحو مخرج النفق، حاول صادق اللحاق بنا بعدما افترقنا عن سيارة الإسعاف بمسافة كافية، لكنَّ رصاصةً أطلقها المحقق نحو ظهره أسقطته صريعًا.

خرجنا بالدراجة النارية من النفق بسرعتنا القصوى، قبل أن تنحرف بنا مريم إلى شارع جانبي تفرَّع فيما بعد إلى عدة شوارع أكثر ضيقًا حتى وصلت بنا في نهاية المطاف إلى جَراج يقع أسفل بناية قديمة كانت تقف فيه سيارة تجلس إلى مقودها السيدة فريدة، والتي أدارت محركها سريعًا بمجرد وصولنا، هبطتُ من الدراجة النارية على الفور ونقلت المبرمج إلى داخل السيارة بمساعدة صديقين مقنَّعين من أصدقاء مراد كان أحدهما يرتدي ثيابًا تشبه ثيابي، والآخر يرتدي سترة السجن المعروفة وعلى رأسيهما خوذتان تشبهان خوذاتنا، ركبا بعدها وراء مريم التي واصلت انطلاقها بدراجتها النارية، أمَّا نحن فقد تحركت بنا السيدة فريدة تحركًا طبيعيًّا لِنخرج من بوابة ذلك الجراج في حين كانت صافرات عربات الشرطة تُدوي في كل مكان. عندما أفاق المُبرمج واستقرَّت حالته.. سألني باستغراب عن هويتي، قلت:

- ستعرف لاحقًا.

نظر حوله عبر نافذة السيارة وقال:

- هل تقفون في صف الفتاة المجنونة التي أرادت قتلي؟

قلت:

- نعم.

وأكملتُ وأنا أنظر إلى سيارات الشرطة التي كانت تهرع مُقابلةً لنا:

- ستعرف كل شيء بعد قليل جدًا، بدِّل ثيابك هذه ولا تفكر في شيء سوى أنَّكَ حُر الآن.

نظر إلى يديه وكأنَّه لم يكن يُدرك أنَّ أغلاله قد حُلَّت مع نقله عبر سيارة الإسعاف، ثم تناول الثياب التي كنا قد جهزناها صباحًا وبدأ يُبدِّل ثيابه، فأدركتُ للمرة الأولى أنَّ يده اليسرى لا تتحرك، فأشحت ببصري بعيدًا، فقال ضاحكًا:

- لا عليك، إنَّها إعاقة قديمة منذ مولدي، لطالما كانت يدي اليُمنى كافيةً لتعويض شلل يدي اليُسرى.

بعدها هندم بيده اليُمنى شعره بمساعدة مرآة السيارة الداخلية، فضحكت السيدة فريدة من اهتمامه بمثل هذه الأمور في هذه الظروف. عندما وصلنا إلى بيت السيدة فريدة كانت الساعة قد صارت الخامسة والنصف مساءً، بدت علامات التعجب على وجه «سليم» ونحن نهبط درجات قبو منزلها، وهناك سردتُ له ما نحن بصدد فعله، ولماذا ضحَّت ليلى بمستقبلها ومستقبل أخيها، وضحَّى حسان ومريم، اللذان لا بد أنَّهما معتقلان الآن، بحريتهما من أجل تحريره، عندما انتهيتُ قال متعجبًا وهو ينظر إلى صندوق اليد وصندوق الحاسوب وحقيبة الأدوات والأسلاك التي كنَّا قد جهزناها له لرُبما يحتاج إليها في عمله:

- لم أظن أبدًا أنّي سأغادر تلك الجدران المُصمتة يومًا ما، لقد رأيت حديث الفتاة مع المحقق، كان قلبي متيقنًا بأنَّ شيئًا غير طبيعيٍّ يحدث وهي تتحدث، لكنَّ الدموع التي نزلت منها عندما جاء إلى

المحقق خبرُ اعتقال أخيها كانت صادقة تمامًا، إنّي أستطيع تمييز صدق المشاعر.

ثم صمتَ ثواني وقال:

- سوف أفعل هذا الأمر، ليس من أجل الفتاة ولا من أجلكم، لكن كي يُعرَف فيما بعد أنّي مَن قمتُ بذلك الاختراق، كم أعشق تلك الإنجازات.

قلتُ باسمًا:

- بالطبع، لكَ كل الحق في ذلك.

قال:

- حسنًا، لننقذ الفتيات وأصدقاءكما، إنّي أشتاق كثيرًا إلى أزرار الحواسيب. أريد حاسوبًا عاديًا غير هذا.

قالت السيدة فريدة:

- إنَّ لديّ واحدًا في الأعلى، لكن ألن تحتاج إلى اختراق حاسوب مقر مجموعة الدعم للوصول إلى نظام البنك الرقمي؟

فقال الرجل:

- لا، لسنا في حاجة إليه، سنسيطر على نظام البنك من خلال حاسوبك الشخصي وأي مؤقتٍ هنا ما دام لديّ «كود» برمجتي الذي اجتهدتُ سنواتٍ لصنعه، ظلَّ اللَّعَنَة يحاولون معي شهرين كاملين كي يعرفوا مكان الشريحة الحاملة لذلك الكود، لم يُدركوا قط أنّها في داخلي.

وفجأة شمَّر ذراعه اليُسرى والتقط بيمينه سكينًا صغيرًا من بين حقيبة المعدات المفتوحة وغرز ذلك السكين في الجانب الداخلي لذراعه اليُسرى محدثًا جرحًا عميقًا وهو يقول:

- كما أخبرتكم، يجب على المرء الاستفادة القصوى من أي قصور لديه، لطالما كانت هذه الذراع التي لا تشعر بالألم مخبئي الأول للأشياء الثمينة.

انفرج ثغري باسمًا عندما أخرج شريحةً صغيرة ذات غطاء بلاستيكي من جرح ذراعه قبل أن يلفها بقطعة قماشية نظيفة أحضرتها له السيدة فريدة، ويقول وهو ينظر إلى الوصلات السلكية الموجودة في الحقيبة وإلى مؤقتي الذي وضعته أمامه:

- هيا، لنحرم أولئك السفلة دفْأَ القيادة لبعض الوقت.

ثم وصّل مؤقتي بالحاسوب الذي أحضرته السيدة فريدة من الطابق الأعلى، وصرخ صرخةً حماسية وهو يُدخِل شريحته إلى موضع بطاقات الذاكرة الإضافية في جانب ذلك الحاسوب، وبيده اليمنى بدأ يضغط أزرارًا متتالية في سرعة رهيبة صابًا كل تركيزه على الحروف والأرقام التي ظهرت في نافذة سوداء احتلت سطح الشاشة أمامه، وعينيَّ مُسلَّطتين عليه وعلى مؤقتي وعلى ساعة الحائط التي كانت تُشير إلى السابعة مساءً، بعدها عاد بظهره إلى مسند المقعد وظلَّ ينظر بصمت إلى الأرقام والحروف العشوائية التي تكوِّن سطورًا متتابعة على الشاشة أمامه، حتى ابتسم فاهه وقال لي:

- لم تُخيِّب عبقريتي ظنِّي أبدًا، أتريد فرص إنجابٍ إضافية لمؤقتك؟

قلتُ بتوتر شديد وأنا أنظر إلى شاشة الحاسوب التي اكتملت بالسطور المتتابعة:

- لا.

قال:

- فاتتكَ فرصة عمرك يا فتى.

ثم ضغطَ زرًا بإصبعه ضغطةً مُتباهية، وقال بعدما فُتحَت أمامه نافذةً أخرى:

- أصبحنا جزءًا من النظام الرقمي للبنك الآن، لنُخضِع البقية لسيطرتنا.

وبدأ من جديد يُحرك يده على لوحة التحكم ويضغط أزرارًا متتابعة قبل أن يهمس إلى نفسه بصوت نسمعه:

- المؤقتات.

وبعد بضع ثوانٍ:

- شاشات الميادين.

وبعد بضع ثوانٍ أخرى:

- قنوات البنك المحلية.

ثم عاد بظهره وقال للسيدة فريدة:

- صار حاسوبكِ سيدتي هو المُغذِّي الرئيسي لمنصّات البنك جميعها، وفي أي وقت نستطيع أن نكون المُغذِّي الوحيد.

ثم سألنا:

- أين رسالة ليلى المُصوَّرة؟

فسألته مستغربًا:

- ألن نجرِّب حاسوب المزادات أولًا؟

فقال:

- كم مدة الرسالة؟

قلت:

- ست عشرة دقيقة.

فقال:

- أتوقن بأنَّ ذلكَ الحاسوب سيعمل؟

قلت:

- أعتقد ذلك، إنَّ ليلى كانت موقنة بأنَّ هذه اليد ستشغِّله.

فكَّر ثم قال:

- لا نعرف كم سيمنحنا الحاسوب من دقائق قبل أن يُكتشف مكاننا، سنلج إليه في أثناء بث الرسالة للاستفادة بأقصى عدد من الدقائق، إن خيَّبت تلك اليد ظنَّ الفتاة وظنَّنا فستكون قد قدَّمت رأسها ورأس من اعتُقلوا اليوم ورؤوسنا وجبةً دسمة لمسؤولي البنك.

نظرتُ أنا والسيدة فريدة إلى بعضنا بعضًا بقلق، قبل أن تومئ السيدة برأسها إيجابًا وتعطيه هاتفها، ضغط بعض أزراره، نقل من خلالها رسالة الفتاة إلى الحاسوب أمامه، ثم نظر إلى ساعة الحائط التي كانت تشير إلى السابعة وخمس دقائق وقال:

- لا بد أنَّ الفتاة ستظل فخورة بما فعلته طوال حياتها، وكذلك أنا، من اللحظة أنا الرُّبَّان الوحيد لنظام البنك.

وضغط أزرارًا متتابعة وهو يقول:

- ستصل عدة إشعارات متتالية الآن إلى كل مؤقت للفت انتباه صاحبه إلى شاشته.

قبل أن يقول وهو يضغط زرًّا:

- الآن!

أطلق مؤقت السيدة فريدة خمس صافرات طويلات متتاليات بصورة لم أرَها تحدث من قبل لأي مؤقت، صاح سليم بعدها وهو يضغط زرًّا آخر بقوة:

- والآن تُشغَّل رسالة ليلى المُصوَّرة إجباريًا على شاشة كل مؤقت وشاشة كل ميدان وقناة تلفزيونية تتبع بنك التخصيب.

خفق قلبي بقوة وأنا أشاهد ظهور ليلى مرتدية سترة بيضاء ذات ياقة زرقاء على شاشة مؤقت السيدة فريدة، لتبدأ رسالتها المُسجَّلة:

«ربما لا يعرف الكثيرون منكم من أنا، اسمي ليلى حلمي نوح، طالبة في كلية الحقوق، أخت الخلية الزرقاء سوزان حلمي نوح، إن كانت هذه الرسالة تُبث الآن عبر المؤقتات وشاشات الميادين وشاشات التلفاز.. فأعتقد أني سأكون في الوقت ذاته حبيسةً في مقر أمن المؤقتات. أعتذر لاقتحامي حياتكم بهذا الشكل المفاجئ، لكني أمامكم الآن لأعلمكم بمصير آلاف الفتيات والنساء من خلايانا الزرقاء...».

كانت آذاننا تسمع صوت ليلى الآتي عبر المؤقت وهي تواصل كشف ما تعرفه عن خبايا بنك التخصيب في حين كانت أعيننا تراقب بتوترٍ «سليم» الذي كان قد جفف اليد المقطوعة تمامًا وهيأ حاسوب المزاد لفتحه.

فجأة خفق قلبي خفقانًا عظيمًا كاد يوقفه عندما ظهر على شاشة الحاسوب أمرٌ بوضع كلمة المرور أو بصمة المستخدم، ووضع سليم اليد في موضعها، فظهرت بعد ثوانٍ رسالةٌ تعلن حدوث خطأ ما في الولوج، لأسأله مذعورًا بوجهٍ مضطرب:

- ماذا حدث؟!

قال وقد اضطرب وجهه هو الآخر:

- لا أعرف.

ثم جفف اليد من جديد وأعاد وضعها موضع البصمة، فظهرت الرسالة ذاتها مرة أخرى، وقال:

- إن الحاسوب يرفض بصمة اليد.

قلت بارتباكٍ شديد:

- وما العمل؟!

قال:

- أستطيع فك شفرة هذا الحاسوب، لكني قد أحتاج إلى ساعات وربما أيام للحصول على كود اختراقه.

صِحت فيه:

- لقد بُثت الرسالة للتو وبعد ساعات سيكون المزاد قد توقف.

حاولنا وضع اليد مراتٍ أخرى غير أن الحاسوب رفض الولوج إلى نظامه. وضعتُ يدي على رأسي بصدمةٍ لم أشهدها من قبل، ونكس سليم رأسه ضاربًا بقدمه مقعدًا بجواره، ووضعَتِ السيدة فريدة يدها على فمها بذهولٍ وحسرة لا يُوصفان.

فجأة رن هاتفي مشيرًا إلى اتصال من أم ليلى، فتحتُ الخط بخيبة أمل، جاءني صوت ذكوري عبره، قال زاعقًا فيَّ:

- عندما استخدمتُ تلك اليد في المرة الوحيدة التي ولجتُ فيها إلى حاسوب السمسار، كان ذلك السمسار يضع شريطًا لاصقًا على العقلة الأولى لسبابته، لم يفلح ولوجي وقتها عندما أزلت ذلك الشريط، ثم نجحت في الولوج إلى الحاسوب بعد لف تلك العقلة بالشريط مرة أخرى، نسيت أن أقول لليلى أن ذلك الشريط قد

أذابته المادة الحافظة مع مرور السنوات، لا تستعمل اليد دون تغطية تلك العقلة.

قلت على الفور بلهفة:

- حسنًا سيدي، شكرًا سيد شاهين.

قال:

- فليوفقكم الله أيها السفلة.

وأغلق الخط، فقلت للسيدة فريدة في الحال:

- أريد شريطًا طبيًا لاصقًا الآن.

قالت:

- حسنًا.

كانت رسالة ليلى المُصوَّرة قد انتهت، فسألتُ سليم أن يعيد تشغيلها مرة أخرى، فأومأ برأسه في حماس، في حين أحضرت السيدة فريدة لفَّةً من الشريط الطبي اللاصق، فهمستُ إلى نفسي وأنا أمسك اليد:

- العُقلة الأولى للسبابة.

ثم لففت حولها تمامًا قطعة من الشريط اللاصق وأعطيتها لسليم فثبَّتها موضع البصمة وانتظرنا، بعد بضع ثوانٍ أطلق الحاسوب صافرته وزادت إضاءة شاشته فجأة.

قال سليم غير مصدق:

- اللعنة لقد فعلناها.

بعدها لم يبذل جهدًا في الوصول إلى موقع المزاد الساري بعدما ترك والد السيدة فريدة كل شيء جاهزًا للعرض بمجرد الولوج إلى الحاسوب.

***

عندما فُتحت نافذة التصفح الخاصة بالمزاد، كانت ساعة إيقافٍ كبرى يتبقى لها أربع ساعات وخمس وثلاثون دقيقة تظهر في أعلاها، ثم تدرَّج سليم إلى الأسفل فبدأت صور النساء المعروضات للبيع تظهر تباعًا في مجموعات، وأسفل كل مجموعة يسطع رقمٌ ذهبي يزداد بين الحين والآخر، كان واضحًا أن تلك الأرقام هي أسعار المجموعات المُتنافَس عليها، ولج سليم حينذاك إلى نافذة إحدى المجموعات، كانت تضم صور سبعين امرأة، يظهر أسفل كل واحدة منها عمرها وبلدها وعدد مرات إنجابها وحالتها الصحية. أطلقتُ تنهيدتي بصدمة بعدما فحصنا سريعًا أكثر من مجموعة أخرى، ووجدتُ صور فتيات رأيتهنَّ من قبل في محمية جنوب سيناء، في حين جلست السيدة فريدة موضعها تحدق إلى الشاشة بحدقتين متسعتين ذاهلتين، أما سليم فهزَّ رأسه غير مصدق قبل أن يوصِّل الحاسوبين معًا، ويضغط أزراره ويقول:

- ليرى العالم أجمع ما يحدث.

ثم ضرب الزر الأخير بقوة وأعاد ظهره إلى الوراء، نظرتُ إلى مؤقت السيدة فريدة، كانت شاشته قد صارت صورة طبق الأصل من الصفحة المعروضة على شاشة حاسوب المزاد، فقالت السيدة بعين باكية وهي تنظر إلى مؤقتها:

- لقد نجح الأمر.

قلت:

- علينا أن نغادر الآن، لا بد أن يتامى العلمين في طريقهم لمعرفة مصدر إشارة هذا الحاسوب.

أومأتِ السيدة فريدة برأسها، أما سليم فقال:

- اذهبا أنتما.. أما أنا فسأبقى، لن أستطيع التحكم في البث عن بعد، سأواصل عرض رسالة ليلى بين الحين والآخر بالتبادل مع

بث المزاد إلى أن يأتي رجال البنك، أريد أن أرى في أعينهم نظرة الإعجاب بي، لقد قلَّلوا كثيرًا من شأني في محبسهم.

نظرت إليه باستغراب، فقال:

- لا تقلق بشأني يا رجل، لقد هيَّأتُ نفسي منذ شهرين على عدم رؤيتي الشارعَ مرة أخرى، سأعدُّ نفسي ما زلت في محبسي.

أومأتُ برأسي وأمسكتُ بيد السيدة فريدة وصعدنا إلى الطابق الأرضي، قبل أن نغادر البيت وجدتُ السيدة فريدة تعود راكضةً وتشغِّل تلفازها، كانت صور المزاد تُبث على قناة البنك الرئيسية، غيَّرت القناة إلى ثلاث قنوات أخرى للبنك كانت جميعها تعرض الصور نفسها، خرجنا بعد ذلك بحماس، وركبنا سيارتها، توليت أنا القيادة هذه المرة، ثم انطلقنا إلى الشوارع لا نعرف إلى أين نذهب، كانت جميع السيارات متوقفة على جانب الطريق، ينظر قائدوها إلى مؤقتاتهم، وكذلك السائرون على أقدامهم يحدق كل واحد فيهم إلى مؤقته بذهول، عندما وصلنا إلى وسط المدينة.. كانت الشاشات العملاقة تبث رسائل ليلى بالتبادل مع صور بث المزاد ويقف المئات أمامها محملقين بصمتٍ رجالًا ونساءً، شيوخًا وشبانًا وأطفالًا، واصلنا تقدمنا بالسيارة، كانت أعداد الناس من حولنا قد بدأت تزداد أكثر وأكثر، ومعها بدأ نفير السيارات يتصاعد وكأنه الصيحة الأولى لإعلان الاحتجاج على بنك التخصيب، أطلقتُ نفير سيارتنا أنا الآخر، رن هاتفي، قالت مريم باكية:

- إن المدن الكبرى الآن قد بدأت تحتشد بالمحتجين أمام الشاشات، وصارت جميع قنوات التلفاز غير التابعة للبنك تعرض رسائل ليلى بالتزامن مع صور المزاد.

قلت بعينين تلتمعان بالحماس:

- نعم.. نرى ذلك الآن.

واصل الزحام من حولنا ازدياده أكثر وأكثر حتى صار التحرك بالسيارة مستحيلًا، هبطتُ أنا والسيدة فريدة وتحركنا بين الجموع التي بدا أنها قررت الذهاب إلى مبنى بنك التخصيب الشاهق الذي عشتُ حياتي كلها أتطلع إليه على أمل اللحاق بوظيفته، عندما وصلنا إلى ذلك المبنى ظهرت أمامنا على واجهته فجأة رسالة ليلى المصورة بسترتها ذات الياقة الزرقاء، أمسكتُ رأسي منبهرًا، لطالما حملتْ واجهة بنك التخصيب الكهرمانية شاشةً عملاقة كانت تعمل فقط ليلة رأس السنة عارضةً احتفالات العام الجديد، لكن يبدو أن سليم كان له رأي آخر، وكأن الرجل بقي مع الحاسوب ليتحدى نفسه بالولوج إلى مصادر عرض البنك كافةً.

فجأةً أُطفِئت الشاشات وشاشة واجهة البنك ومؤقت السيدة فريدة، أدركت أن يتامى العلمين قد وصلوا إلى سليم، وأحكموا السيطرة من جديد على نظامهم الرقمي، غير أن نفير السيارات والهتافات من الجموع المحيطة بمبنى البنك والموجودين في كل شوارع المدينة لم تتوقف، بل رأيت البعض يتبادلون قطعًا قماشية زرقاء ليضعوها على سترهم كياقاتٍ تضامنًا مع ليلى والخلايا الزرقاء الموشكات على الرحيل، حتى صار الكل خلال دقائق يضع تلك الياقات على سترهم.

ألقت ليلى بالكُرة إلى قلب كل شخص يحمل في داخله ذرةً من الإنسانية، ولم تُخيِّب القلوب ظنها، من كان يدري أن تلك الفتاة التي عاشت عمرها تظن نفسها ساذجة لا تقوى على تغيير أمور مُسلَّم بها صارت بين ليلة وضحاها السبب الرئيسي في إنهاء سيطرة بنك التخصيب على الإنجاب في بلدنا، فقبل ساعات من بزوغ نهار اليوم التالي كانت قوات الأمن الوطنية قد سيطرت على البنك ومحمياته ومسؤوليه. تداولت الأخبار كذلك إنقاذ الفتيات قبل ترحيلهن إلى الشرق ولم نعرف ليتامى العلمين وجودًا بعد ذلك.

في الأيام التالية خرجت عدة بيانات صارمة لإعادة النظر في إبعاد الفتيات الزرقاء عن أسرهن عند عامهن السادس عشر، كنّا نعرف أن تلك الأمور ستحتاج إلى مزيد من الوقت لتنظيمها، وخاصةً أن أعداد الخلايا الزرقاء كانت لا تزال بالنسبة الضئيلة المعروفة مع اقتصاص أرحام الفتيات السليمات في الأوقات السابقة، لكننا على الأقل وضعنا اللبِنة الأولى لحياة إنسانية لفتيات كُنَّ وما زلن المسؤولات عن استمرار نسلنا.

خرجت ليلى من محبسها بعد يومين من العام الجديد، وكذلك حسان ويونس، أما سليم الحارث فلم نعرف مصيره ولم نرَه بعدها.

عادت سوزان إلى أسرتها من جديد ريثما تصدر القرارات الحكومية الجديدة بشأن الخلايا الزرقاء، أما حياة فالتقت بأبيها أخيرًا بعد كل تلك السنوات. عندما تجمعنا للمرة الأولى في منزل السيدة فريدة بعد عودة الفتيات إلى أسرهن وكان الجميع حاضرين؛ أسرة ليلى، والسيد شاهين وابنته، وحسان وأخوه، وأنا والسيدة فريدة، طبع السيد شاهين وجهه بوجومٍ غريب بضع ثوانٍ قبل أن يبتسم لنا ويقول متباهيًا بسبابته:

- لولا ملاحظتي الحاسمة على اليد المحفوظة لما تم الأمر.

قالت ليلى ضاحكة:

- ونحن لن ننكر ذلك أبدًا سيدي ونشكرك.

قبل أن تنظر إلينا، فأحنينا رؤوسنا تحيةً لها، فاحمرَّ وجهها خجلًا، فقلتُ لها عندما نظرت إليَّ:

- لا تزالين أطيب حمقاء أعرفها في حياتي.

قالت ضاحكة:

- وهل يمثل ذلك لك أي مشكلة؟

قلت ضاحكًا:

- لا.. بكل تأكيد.

فنظرتْ إلى البقية وقالت:

- ما الخطوة التالية إذن يا رفاق؟

قال حسان:

- أعتقد أنه وقت الاسترخاء وحسب.

فسألتني:

- وما رأيك يا رامي؟

فركتُ شعري ثم قلت:

- أفكر عندما تعلن الحكومة الأوضاع الجديدة للإنجاب أن نضم مؤقتينا معًا.

قالت ضاحكة:

- هل أعدُّ هذا إعلانًا منك بالرغبة في الزواج مني؟

رفعتُ كتفيَّ وقلت:

- بكل تأكيد.

صاح الجميع مهللين، فنظرتْ إلى أمها وقالت:

- ما رأيكِ في انضمام فردٍ جديد إلى العائلة؟

ضحكت أمها دون أن تقول شيئًا، فقالت ليلى وهي تنظر إليَّ:

- لن تجد عائلة أكثر جنونًا وتهورًا في قراراتهم من عائلتنا، وأظن أن تلك العدوى قد انتقلت إليك مؤخرًا، مرحبًا بك بيننا.

صاح الجميع من جديد مباركين ومهللين قبل أن يُشغِّل يونس الموسيقى عبر جهاز التحكم عن بعد، لتتراقص أجسادنا بفرحةٍ تصل حد الثمالة، كنّا نستحقها بكل تأكيد.

تمت بحمد الله.